

عثمان صالح سبي





ملف السبعينات

عثمان صالح سبي

تاريخ أريتريا

قضايا ١٢ دولية



ililom@yahoo.com

يعود ريع هذا الكتاب
الى اللاجئين الاريتريين
في السودان

هذا الكتاب ...

بقلم يوسف ابرهيم يزبك

بسرور واقتناع ألبّي رغبة الاخوان العاملين لتحرير اريتريا ، فأقدم هذا الكتاب الجليل للقارىء العربي .

وقد نعتّهُ بالجليل قاصداً مصمّماً ؛ وحسبه استحقاقاً لهذا النعت خلوّ المكتبة العربية في مشرقها ومغربها من تاريخ لاريتريا « الجارة — الأخت »، التي هي بعض الكيان العربي ، والتي لجوارها المطمئن تأثيرٌ عظيم في مصير هذا الكيان العربي ، والتي لابنائها حقوق في ذممنا ، وهم الاخوة الذين نجهل تاريخهم وواقعهم وأمانيهم المشروعة جهلاً مطبقاً !

فجاء هذا الكتاب القيّم يملأ فراغاً مزعجاً وكان ضاراً .

ثم ان فضل عثمان صالح سبي في وضعه هذا التاريخ ، يسجل لصاحبه فضلاً آخر في انه اتاح لنا أن نعرف تاريخ أريتريا « الجارة — الأخت » .

وكم يطيب لي أن أشكر للمؤلف صنيعه المضني الذي أتمّه بجهد وعناء، ومجالدة وقلق ، وهو بعيد الدار، فاضطراره إلى تأمين الاجهزة والقواعد والمراجع لوضع كتابه — وأيّ عمل شاقّ هو ! — كان يرافقه في الوقت عينه قيامه بمهمة وطنية مقدسة، بوصفه الامين العام لجبهة التحرير الاريترية،



والناطق الرسمي باسم ثورتها ، لاسماع صوت بلاده المستضعفة ، وايصاله الى الشرفاء في اصقاع الأرض . وحسبنا ان نتراءى مناضلاً طريداً معوزاً سلاحه الوحيد إيمانه بالله تعالى، وبحق وطنه في الحرية والاستقلال، يطارده الظلم وتسامره اشباح المضطهدين والجائعين من بني قومه ، وتطنّ في اذنيه حشرجات المستشهدين من اخوانه في الكفاح المسلح ، فيصابر ويجالد في سبيل تبليغ رسالته الشريفة – حسبنا ان نتراءى هذا الساعي الصابر لنعرف أي فضل له في ايجاد الوقت لوضع مؤلفه !

* * *

من الصعب عليّ ، وعلى سواي ، ان احكم على هذا العمل الجديد في لغتنا حكم التقنية التاريخية ، ذلك لأن الاصول تنقصنا ، والاسانيد تغيب عنا ، والاحاطة عسيرة ، وهذا كله يمنعنا من ارسال كلمة الاختصاص فيه . ولكن جهد المؤلف المحترم ، والظرف الذي جمع فيه كتابه ، والرسالة التحريرية التي يحملها ، جميعها آيات مقدسات تناديني لأن اشكره وأثني على دأبه وجهده .

* * *

ان مستقبل اريتريا – « الجارة – الاخت » – لا ينفصل بأي حال عن مستقبل الوطن العربي ، فالشاطىء الغربي المترامي على البحر الاحمر ، حيث تنبسط بقاع اريتريا من السودان إلى باب المندب، والمواجه الستراتيجي والاقتصادي والاخوي للجزيرة العربية – ومن استولى على اسمرة وصلت مدافعه إلى هذه الجزيرة – هو في محاذير السياسة وفي التلاصق الجغرافي « جزء » لم يستطع البحر ان يفصله فصلاً تاماً عن هذه الجزيرة . فمن



الحكمة والوعي وواجب الوطنية العربية ان يعنى جميع العرب في جميع اقطارهم بما يضيم اريتريا من شجون ومشاكل ومخاطر تهدد شعبها الطيب وتهدد مصيره ، وتهدد أمن الوطن العربي في رقعته الجنوبية تهديداً مباشراً .

* * *

ان جهاد الشعب الاريتري في سبيل حرياته الكاملة ، سياسياً ووطنياً واقتصادياً ، هو اليوم محكّ جديد للضمير العالمي في تأييد الحق . إن الحق واحد للجميع : للأقوياء والضعاف ، وللأغنياء والفقراء ، على السواء . ومن واجب العرب — ونحن بعض هذا الضمير العالمي ، ونحن الذين عُرفنا بأنّا للمروءة ، وعُرفنا بأن أحياءنا كانت تفنى على بكرة أبيها في الذود عن المستجيرين بنا ، من واجب العرب في امصارهم كلها ان نلبي داعي الاخوة والجوار ، مع داعي المصلحة القومية في معاطفة الكفاح الاريتري ، فندعو حكوماتنا جميعاً للوقوف إلى جانب «الجارة ، الاخت» في مساعيها لتحقيق مطالبها المشروعة .

* * *

وبعد ، فإن جامع هذا التاريخ ، باستطاعتي تقدير المشاق التي تجشّمها لأجل تحقيقه ، يستحق الثناءين : فهو قد خدم وطنه المظلوم ، وخدم في الوقت عينه المعرفة الانسانية ، وفي الخدمتين كان مفيداً ، وكان كريماً .

وبكل إخلاص اقول له سلمت يداك !

وأدعو القارىء العربي إلى قراءة تاريخ اريتريا .

يوسف ابرهيم يزبك



مقدمة

يحتوي هذا الكتاب تاريخ اريتريا منذ اقدم العصور حتى عصرنا الحاضر . وليس دافعي إلى كتابته الرغبة فقط في سد النقص الذي تعانيه المكتبة العربية عن ماضي هذا القطر الذي تجمعه بالعالم العربي اواصر التاريخ والجغرافيا والحضارة والثقافة، بل رغبتي ايضاً في الإسهام بخدمة متواضعة في دحض المزاعم الاثيوبية التي دأبت على اغتيال الحقائق التاريخية لمصلحة أهدافها التوسعية منكرة وجود اريتريا ككيان مستقل تاريخياً .

وقد واجهتني عند الشروع في الكتابة مصاعب عديدة منها انني لست عالماً متخصصاً في علم التاريخ ، وتبعاً لذلك فإلمامي بالحقائق التاريخية المتعلقة بالمنطقة محدود ، مع الملاحظة ان تاريخ اريتريا ارتبط في معظم اطواره بتاريخ الاقطار المجاورة في شمال شرقي افريقيا وحوض البحر الاحمر ، مما يستلزم دراسة كاملة لتاريخ المنطقة المذكورة ،وهو امر يحتاج إلى وقت لاتتيحه لي مسؤولياتي الوطنية .

زيادة على ذلك لا تتوافر عن تاريخ اريتريا مراجع كافية باللغتين اللتين الم بهما — العربية والانكليزية . فما كتب عن تاريخ اريتريا انما كتب باللغة الايطالية ، وهناك اكثر من مائتي كتاب عن اريتريا تزخر بها مكتبة المتحف الافريقي في روما ، كتبت باقلام علماء متخصصين في مختلف فروع المعرفة ابرزهم : المؤرخ الايطالي المعروف كونتي روسيني ،بذلوا ولا شك جهوداً كبيرة في اعداد هذه الكتب . وكلي امل ان يستفيد أي باحث او باحثين اريتريين من هذه المكتبة الايطالية ومن مكتبة الدراسات الاريترية التي تنشئها الآن البعثة الخارجية لقوات التحرير الشعبية لجبهة التحرير الاريترية حتى يكتب



التاريخ الاريتري باقلام اريترية متخصصة .

وقد اعتمدت على قراءاتي المتنوعة لكتب التاريخ التي تتناول عموم منطقة شمال شرقي افريقيا وحوض البحر الاحمر ، وخاصة تاريخ الحبشة والسودان واليمن ومصر لاقتباس معظم المعلومات التي سجلتها هنا ، علاوة على ما وعته ذاكرتي منذ الصغر من معلومات تاريخية عامة مصدرها القصص التي كان يرويها لنا والدي —رحمه الله—، وكانت له اهتمامات بالتاريخ العربي والاسلامي وتاريخ بلاده . وقد استقى منه استاذنا السوداني — طيفور بابكر الدقوني في الاربعينات — المعلومات الاولية عن تاريخ اريتريا لتدريسها في المدرسة الوسطى، وكان يملي عليه تواريخ بعض الاحداث الاريترية عن ظهر قلب، وحفظت ذاكرتي بعضاً منها كعام (١٥٥٧ م) الذي احتل فيه الاتراك العثمانيون مصوع ، وعام ١٨٦٩ الذي اشترى فيه المبشر الايطالي سابيتو قطعة ارض من سلطان عصب « لتكون محطة تموين السفن لشركة روباتينو الايطالية » ليصبح عقد الشراء هذا بداية الاستعمار الايطالي لاريتريا . ولعل العامين (١٥٥٧) و (١٨٦٩) بقيا في ذاكرتي منذ الصبا لانهما شكلا نقطة انعطاف في تاريخ اريتريا . فالاول كان بداية لهيمنة النفوذ العثماني على سواحل البحر الاحمر كلها على امتداد القرون الثلاثة التالية ، والثاني شكل بداية لتاريخ اريتريا المعاصر وما تضمنه من احداث هامة برحيل الطليان بعد هزيمتهم في الحرب العالمية الثانية ووقوع اريتريا تحت الاحتلال الاثيوبي وفق مخطط أميركي — بريطاني .

ونقص آخر عانيته عند اعداد هذا الكتاب ، هو بعدي عن ارض الوطن لفترة امتدت الآن خمسة عشر عاماً ، لم اعد خلالها إلى ريف بلادي سوى مرات قلائل وفي ظل ظروف امنية لا تسمح كثيراً بالتفرغ للابحاث التاريخية والاطلاع على المعالم الاثرية كأطلال عدوليس ومطرا وقوحيتو، وكانت هذه مدناً عامرة قبل اكثر من الفي عام . ومع ذلك فاني لم اخرج من تلك العودات صفر اليدين ، ففي منطقة القدين غرب اريتريا مثلاً اطلعت على بعض الآثار التاريخية للحروب القديمة ، وكذلك في منطقة دنكاليا جنوب شرقي اريتريا اطلعت على القبور الصندوقية والقبور الهرمية التي لها دلالات تاريخية هامة بالنسبة إلى علاقة سلطنة الفونج في اريتريا وبالنسبة إلى الحروب مع اثيوبيا . واني لاتطلع أن أتفرغ — اذا عشت — للمساهمة في كتابة تاريخ بلادي بعد العودة المظفرة ان شاء الله بالاستناد إلى المعاينة والمعايشة للارض والشعب المعنيين ، وليس فقط بالاقتباس من بطون



مراجع كتبها باحثون اجانب ، تظل قدرتها على فهم المجتمع الاريتري مهما بذلوا من جهد دون قدرة الاريتري الذي هو ابن البيئة والعليم بخباياها .

والصعوبة الكبرى التي واجهتني هي « تعدد التاريخ الاريتري » . فلم تعش اريتريا بحدودها الراهنة — رغم وحدة الاصول والتكوين لشعبها — تحت امرة دولة واحدة ، الا بعد الاحتلال الايطالي في الربع الاخير من القرن التاسع عشر . وقد خضعت اريتريا بحكم موقعها الجغرافي وتعدد الهجرات البشرية التي استقرت في مختلف مناطقها، لدول مختلفة في وقت واحد ، وارتبطت بعض اجزائها بأجزاء اخرى من البلدان المجاورة، كما هو الحال بالنسبة إلى الهضبة الاريترية التي ارتبطت في فترة من الفترات بمملكة اكسوم ، او منطقة بركة في غرب اريتريا بممالك البجة ومملكة السنار في السودان ، او شاطئ البحر الاحمر الذي كان يخضع احياناً لسلطان اليمن او الحجاز . وقد رويت بأكثر قدر ممكن من الدقة والواقعية احداث هذه الارتباطات مستخلصاً من «التعدد التاريخي» « كلاً واحداً » اقرته التزاوجات التاريخية بين مختلف العناصر التي تشكل منها شعبنا : الكوشية الحامية ، السامية ، الزنجية ، كما فرضت « الوحدة مع التعدد » البيئة الجغرافية المتعددة واحتياج السكان في رحلاتهم الصيفية — الشتائية إلى هذا التعدد البناء .

حقيقة هامة اردت الوصول اليها من خلال بحثي المتواضع ، وهي ان الشعب الاريتري كان موجوداً في هذه الرقعة من أرضه الممتدة على طول شاطئ البحر الاحمر الغربي من الحدود السودانية إلى باب المندب قبل ان يطلق الطليان على هذه الرقعة اسم اريتريا في مستهل عام ١٨٩٠ م . كان موجوداً كغيره من شعوب المنطقة بصراعاته وحروبه ومنجزاته ولهجاته المتعددة يؤثر ويتأثر بمجريات الاحداث في المنطقة .

ومع ان تسمية اريتريا هي تسمية غير محلية — بل هي يونانية الاصل عنت « البحر الاحمر » الا انها تسمية قديمة يعود تاريخها إلى أكثر من الفي عام . وكون التسمية استحدثت في القرن التاسع عشر لا يعني مطلقاً أن وجود الشعب استحدث او اصطنع ايضاً كما تدعي اثيوبيا . فتسمية اثيوبيا ذاتها يونانية وتعني (الوجه المحروق) ، وقد اطلقها الامبراطور منيليك على مملكة الحبشة القديمة بعد ان وسعها على حساب جيرانه بالتعاون مع الدول الغربية الاستعمارية في نهاية القرن التاسع عشر . وما اكثر الاسماء المستحدثة للاقطار الجديدة في العالم ! ! ! ماذا كان اسم كينيا مثلاً قبل مائة عام ، او الباكستان ، او



الارجنتين ، او حتى الولايات المتحدة الاميركية ؟ فليست العبرة بالاسم وانما بالمسمى وحقيقة وجوده الفعلي .

وحقيقة اخرى اردت اثباتها من وقائع التاريخ ، وهي ان الصراع الاثيوبي — الاريترى لم يكن وليد اليوم . فقد تطلعت انظار المطامع الاثيوبية ، منذ ان اسس الامهرا مملكتهم الجبلية في القرن الثالث عشر بعد انهيار مملكة اكسوم، إلى السواحل الاريترية ليجعلوا دولتهم دولة بحرية ، وكانوا من أجل الوصول إلى هذه الغاية يبذلون قصارى جهودهم تارة باللجوء إلى العنف وتارة اخرى بالتحالف مع قوى اوروبية ، مما جلب إلى المنطقة صراعات دولية أظهرها الصراع البرتغالي — التركي في القرن السادس عشر . والواقع ان تحالف هيلاسلاسي مع الاميركان في عام ١٩٥٠ الذين مكنوه تحت ستار الاتحاد الفيديرالي من احتلال اريتريا في مقابل هيمنة نفوذهم العسكري والاقتصادي والسياسي في المنطقة ، لم يكن الا امتداداً للمحاولات التي قام بها أباطرة الحبشة منذ القرن الرابع عشر ، وأبرزها محاولات اسحاق وزرا يعقوب ولبنا دنقل للتحالف مع ملوك اراجون وفرنسا والبرتغال في القرون الثلاثة — الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر ، من اجل السيطرة على سواحل اريتريا ، وفشلت في النهاية بتدخل الاتراك العثمانيين كقوة اعظم حينذاك .

واوضحت ان مملكة الامهرا الجبلية التي اطلقت عليها (مملكة الحبشة) تمييزاً لها عن مملكة اكسوم القديمة وعن مملكة اثيوبيا الحالية، لم تكن امتداداً لاكسوم أو وريثة لها . فقد قامت هذه المملكة الامهرية بعد خمسة قرون من اندثار مملكة اكسوم، فكيف تكون امتداداً لها ؟ ووضعت صلة الهضبة الاريترية بمملكة اكسوم في حجمها التاريخي الحقيقي ، وبينت علاقة اكسوم باليمن ، وهي علاقة تجعل من حضارة اكسوم امتداداً لحضارة اليمن . وتطرقت إلى العلائق التاريخية الوثيقة بين اريتريا والعالم العربي في مختلف العهود منذ ايام حمير وسبأ في جنوب الجزيرة العربية ، حتى عصرنا الحاضر متجاوزاً في ذلك ما قد يثار من حساسيات محلية وخارجية .

ومع ذلك فلم تكن العلاقة بين اريتريا واثيوبيا في حالة تردّ وحروب دائمة ، بل كانت تتسم في بعض الاحيان بالوفاق والتفاهم . وعلى سبيل المثال اتفق الامبراطور فاسيلداس ومن تبعه من ملوك غندر مع نائب مصوع ضد المبشرين الجزويت والغزاة



الاجانب وتعاونوا في هذا السبيل لفترة امتدت نحو مائة وخمسين عاماً ، حتى مشارف القرن التاسع عشر . والواقع ان حركة التجارة والمرور لم تُعَق بين البلدين على مدى العصور ، ولم يلحق اذى بأثيوبيا من جراء سيطرة اريتريا على منافذها البحرية ، الا عندما كان يلحق الاذى بأريتريا نفسها من جانب قوي لا قبل لاريتريا او لاثيوبيا بمواجهتها والتصدي لها . واليوم فإن هذه العلاقة يمكن ان تعود إلى حالتها الطبيعية ، اذا ما الغى حكام الامهرا الاثيوبيون نزوعهم إلى التسلط والتوسع (وتمهير) الشعوب وتدمير كياناتها القومية . واعتقد صادقاً ان بناء جسور التعاون والصداقة بين شعبي اريتريا واثيوبيا – كل تحت ظل دولته الخاصة – لما يخدم مصالحهما المشتركة ومصالح السلام والامن في حوض البحر الاحمر وشرق افريقيا .

حقيقة اخرى الفت النظر اليها ، وهي ان كل جزء من اريتريا يقابله في الجانب الآخر من الحدود اخوة له تجمعهم به صلات التاريخ والثقافة والدين واللغة ، وهي ظاهرة لا تنفرد بها اريتريا وحدها ، بل هي شائعة في كل مناطق الحدود في العالم . وانا لنتطلع ان يكون هذا التجانس الحدودي حافزاً لخلق أفضل العلائق مع كل الجيران .

واذا كانت اريتريا قد تقاسمتها في العصور الوسطى سيطرة نفوذ عدد من الدول والممالك المجاورة وغير المجاورة، فإن هذه السيطرة لم تقم حواجز بين ابناء شعب اريتريا الذين كانوا يتنقلون في رحلاتهم التقليدية صيفاً وشتاء بين الهضبة والسهول الشرقية والغربية،وهي رحلات كانت ولا تزال توفر للرعاة والفلاحين على حد سواء مناخات متعددة للرعي والزراعة في مختلف الفصول ، وكان العامل الاقتصادي يلعب دوراً رئيسياً في ربط الشعب الاريتري بعضه ببعض . وتعزز المواصلات الحديثة والاقتصاد العصري اواصر الوحدة بين ابناء الشعب الاريتري . فموز بركة ينقل إلى مصوع للتصدير في ظرف سبع ساعات ، ومثلها نحاس الهضبة وعسلها وحبوبها المتنوعة . وما اكثر الدول التي خضعت اقاليمها المختلفة في الماضي لنفوذ امبراطوريات مختلفة ، لكنها تتمتع اليوم بوحدتها القومية . ويوغوسلافيا مثال مناسب ، فقد خضعت اقاليمها المختلفة لسيطرة الدولة العثمانية والنمسا والمجر في وقت واحد ، ولم تتوحد في دولة واحدة الا بعد الحرب العالمية الاولى .

اخيراً افردت ثلاثة فصول لتاريخ اريتريا المعاصر ونضالها الوطني التحرري ،



حتى يلم القارىء العربي بما يدور في منطقة هي امتداد طبيعي لمنطقة الشرق الاوسط جغرافياً واستراتجياً . ولا أدعي الحياد التام في ما كتبت ، فعقل الانسان لا ينفصم عن عاطفته ، لكنني حاولت جهد طاقتي عرض الحقائق التاريخية كما وعيتها . وآمل ان تفتح هذه المحاولة الباب امام اقلام اخرى متخصصة للكتابة عن التاريخ الاريتري . وارحب بأي نقد بناء .

١ / ٩ / ١٩٧٤ عثمان صالح سبي



الفصل الاول

الاقوام القديمة في اريتريا

يعتقد بعض المؤرخين أن العنصر المعروف باسم (كوش) — نسبة إلى كوش بن حام بن نوح — هم أول من سكن السواحل الأريترية . ويرجحون أن يكون هؤلاء هم الأصول الأولى لقدماء المصريين ، وأنهم اتخذوا سواحل البحر الأحمر التي انتقلوا إليها من جنوب الجزيرة العربية قبل أكثر من عشرة آلاف عام معبراً لهم ، حتى وصلوا في تجوالهم إلى وادي النيل واستقروا هناك وبنوا حضارة مصر الفرعونية الشهيرة .

على أن أجزاء منهم استقرت في المنطقة الساحلية وعرفت بسواد البشرة مع ملامح غير زنجية ، ربما لاختلاطهم بأقوام أخرى من أصول إفريقية ، خاصة أن المؤرخين يذكرون انتقال بعض المجموعات البشرية من أعالي النيل — وهي المجموعات التي عرفت بالشعوب النيلية — إلى وادي بركة والقاش ، وأقامت في غرب أريتريا حضارة زراعية ، واستقرت هناك حتى أجلتها نزوحات البجة الحاميين منذ نحو ألفي سنة من موطنها في السهول والأودية لتتوغل في هضبة بارنتو بحثاً عن مأمن . وتنسب قبيلتا الباريا والبازا إلى هذه الأصول القديمة للشعوب النيلية .

وقد ظلت معظم المجموعات الكوشية في سواحل أريتريا ومرتفعاتها



تعتمد على الرعي والصيد، حتى تمازجت بالنازحين الجدد من جنوب الجزيرة العربية الذين نقلوا منذ القرن الخامس قبل الميلاد حضارتهم الزراعية وأقاموا ممالك مستقرة في اكلي قوزاي وسراي اندمجت في ما بعد لتشكل مملكة اكسوم المعروفة .

ويستدل من مخطوطات الفراعنة على وجود قدر من الجاليات الزراعية والتجارية في السواحل الأريترية . فتشير مخطوطات تحتمس الثالث إلى أماكن في سواحل البحر الأحمر تطلق عليها أسماء أوتوليت (Outoulit) وحماسو (Hamasu) وتكارو (Tekaro) التي يحتمل أن تكون أصول التسميات الحالية لـ (عدوليس) و (حماسين)[1] و (تجري)[2]، كما يقول بذلك جين دورسي . ولعل عدوليس كان اسماً لقرية قبل أن يؤسس البطالسة ميناء عدوليس التاريخي الشهير في القرن الثالث قبل الميلاد .

وقد وصف المؤرخ اليوناني أغاتارشيدس (Agatharchides) في القرن الثالث قبل الميلاد سكان الشواطىء الأريترية كأقوام تسكن الكهوف في الصحراء الملاصقة للشاطىء ، ويعيشون في موسم المطر على أكلة مزيجة من اللبن والدم ويلبسون الجلود ويمارسون عادة الختان . والمرأة بينهم مشاعة لا تقيدها روابط الزواج إلاّ ما كان ملكاً لزعمائهم ، وينتظمون في عشائر صغيرة العدد ، وسلاحهم دروع جلدية وعصي غليظة ورماح ونشاب .

كما قدم مؤرخ يوناني آخر هو أرتميدورس (Artemidorus) وصفاً مفصلاً عن هيئة السواحل الأريترية وسكانها في القرون الخمسة التي سبقت ميلاد المسيح ، وسمى عدداً من المراسي اختفت في ما بعد من الوجود. كما أشار إلى بحيرات مرة في منطقة دنكاليا كان السكان يحصلون منها على

---

١ — حماسين اليوم هي إحدى المحافظات الاريترية ، وعاصمتها أسمرا . وهي عاصمة اريتريا أيضاً .

٢ — (تكارو) اطلقت من قبل المؤرخين اليونان كأسم للمنطقة، وكلمة تجري الآن تعني لغة التجري ، كما تعني المتكلمين بها ، وتطلق ايضاً على اقليم تجراي في شمال اثيوبيا .



الملح ، ولعلها ملاحات بردولي الشهيرة في شبه جزيرة بوري وبحيرة اسال التي لا تزال مصدر ثروة للسكان .

ونقل النازحون من جنوب الجزيرة العربية حضارتهم ودماءهم إلى المنطقة عبر هجرات متواصلة بدأت منذ ثلاثة آلاف سنة حتى مشارف القرن العشرين ، وتزاوجات تاريخية ، كما تلتهم في العصور الوسطى نزوحات قبائل البجة الحامية من جنوب مصر وشرق السودان . وهكذا ، فإن سكان أريتريا هم ورثة الدماء المختلطة للشعوب التي يطلق عليها اصطلاحاً (الشعوب الحامية — السامية) . ويظهر ذلك جلياً في عادات السكان ولهجاتهم المختلفة ، فالتجرينية والتجري تنتميان إلى أصول سامية ، كما تنتمي لهجات الدناكل والساهو البلين والحدارب إلى اللغات الكوشية — الحامية . بينما لهجتا الباريا والبازا تعدان من مجموعة اللغات الإفريقية — النيلية . وتعتبر لغة البلين من أقدم اللغات الكوشية في المنطقة حتى يرجح بعض المؤرخين أن التسمية اشتقت من المصطلح الذي ورد في رسوم الفراعنة واقتبسه اليونان والرومان بلفظة بليميز (Blemmys) . وكان يطلق على شعوب سواحل البحر الأحمر منذ آلاف السنين .

وعموماً فإن أريتريا تشكل بانتماءات أقوامها المتشعبة نموذجاً لشعوب المنطقة الممتدة من كينيا إلى أقصى بلاد المغرب الغربي .

وفي هذا الصدد يقول دنيس بولم في مؤلفه (الحضارات الإفريقية) : « إنه مهما كان العصر الذي ظهر فيه السود في إفريقيا ثم تكاثروا فيها ، فإنه لا شك قد حدثت بينهم اتصالات مع رجال من اللون الأبيض أصلهم من إفريقيا الشرقية أو من الشرق الأدنى الذين هم أجداد البربر في شمال إفريقيا في الوقت نفسه . ويمكننا أن نطلق على أولئك القوم اسم (الحامو — ساميون) — نسبة إلى حام بن نوح ، وذلك للدلالة على أصلهم القريب من الساميين . والفرق بينهم يظهر من الناحية اللغوية . أما من الناحية العرقية ، فهم في الأصل من سكان البحر الأبيض المتوسط . وفي أيامنا هذه ، فإن المجموعة الغربية أو الشمالية للحامي — ساميين ، تضم — عدا العرب الذين



جاؤوا مع الغزوات التاريخية ، مع العلم بأن أكثر عرب إفريقيا الشمالية هم في الواقع بربر أخذوا لغة النازحين — نقول تضم عدا هؤلاء ، سكان ليبيا وتونس والجزائر ومراكش وموريتانيا والسودان الغربي (الطوارق) وسكان الصحراء الوسطى . .

« ونرى الحاميين الشرقيين اليوم والذين امتزجوا بالساميين وبالسود يؤلفون الشعب المصري وشعب البجة والنوبيين والأريتريين والأحباش والغالا والصوماليين والدناكل . كما أن علماء اللغات يميزون في مجموعة اللغات الحامي — سامية ثلاثة فروع : ١) السامية ، ٢) البربرية ، ٣) الكوشية.

«والمنطقة التي تقع إلى أقصى الشرق من إفريقيا وهي هضبة الحبشة وأريتريا والصومال والسودان ، هذه المنطقة مأهولة بالسلالة الأثيوبية (١) ذات الجلود القريبة من اللون الأسود مع أجسام فارعة وشعر مجعد ووجوه مستقيمة . وهذا ناتج من اختلاط السود بالغزاة البيض الذين أتوا على الغالب من الجزيرة العربية ، أو أن ذلك ناتج عن وجود مجموعة قديمة من السكان تجمع صفات البيض والسود معاً » .

« وفي الجهة الجنوبية حصلت اختلاطات بين الأثيوبيين (٢) والنيليين كونت في ما بعد ما نطلق عليه أحياناً (النصف — حاميين) . وهم قبائل الماساي والناندي والسوك في كينيا وجنوب السودان » ، انتهى .

أوردنا ملاحظة المؤلف بولم للاستدلال على مدى سعة الرقعة التي تمت فيها تزاوجات عنصرية ، تجعل الحديث عن تحديد أصل للعنصر — مع التنويه بعدم أهمية ذلك — في هذه المنطقة أمراً غير ذي موضوع .

---

١ و ٢ — المقصود من كلمة اثيوبيا والاثيوبيين هنا هو المعنى العام للكلمة كما اطلقه اليونانيون على الشعوب التي تسكن جنوب اسوان، وتعني السود او (ذوي الوجوه المحروقة) .



الفصل الثاني

مدلول التسميات القديمة : كوش اكسوم الحبشة اثيوبيا

يعنينا كثيراً ونحن ندرس تاريخ أريتريا أن نتبين مدلول المسميات التاريخية التي أطلقت على المنطقة الممتدة من جنوب مصر إلى تخوم كينيا ، لأن أريتريا لم تكن لها ، بحدودها الحالية كما هو الحال بالنسبة إلى الأقطار المجاورة ، تسمية منفصلة أو تاريخ منفصل عن تاريخ الشعوب التي استوطنت هذه المنطقة الواسعة . وألفاظ اكسوم ، الحبشة ، أثيوبيا ، كوش ، على وجه التخصيص هي بيت القصيد بالنسبة إلى دراستنا الراهنة ، بما ارتبط بها من خلط وادعاءات متضاربة لخدمة أغراض سياسية .

تسمية اثيوبيا

لفظ أثيوبيا اسم قديم ، جاء ذكره في كثير من الكتابات الإغريقية القديمة وغيرها من المراجع التاريخية والدينية الهامة ، ومعناها الإغريقي هو (الوجه المحروق) . ولقد أطلقتها بعض تلك المراجع القديمة وعلى رأسها : العهد القديم ، OLD TESTAMENT على الممالك النوبية التي تأثرت بالحضارة المصرية القديمة ، وامتد بعضهم في إطلاقها إلى جميع سكان القارة



الإفريقية ، جنوب الصحراء وأعالي النيل .

وعندما كتب سير بدج (Budge) كتابه عن تاريخ أثيوبيا ، بدأ الكلام عن تاريخ مملكة النوبة على أساس أنها جزء من أثيوبيا . ولقد اعتمد في هذا الاتجاه على جميع المراجع القديمة منذ كتاب الإغريق القدماء — هومير وهيرودوت وغيرهما الذين اعتبروا أن بلاد أثيوبيا تبدأ من حدود مصر الجنوبية . بينما ذهب العالم الجغرافي استرابو إلى أن بلاد أثيوبيا كانت جزءاً من مصر وامتداداً لها ، وتقع إلى الجنوب منها .

ولقد تعددت الكتابات القديمة وتنوعت ، بحيث رسخ في ذهن بعضهم أن اسم أثيوبيا يشمل مصر والسودان وبلاد العرب وفلسطين وبلاد الهند ، وعلى الأخص تلك الشعوب التي تسكن وادي النيل ، شماله وجنوبه .

ولما كان الاسم في أصله اليوناني معناه (الوجه المحروق) ، فإنّ المؤرخين أطلقوه على جميع الشعوب التي يتدرج لونها من سمرة إلى السواد ، بما فيهم الزنوج ، وأن البلاد التي تسكنها جميع هذه الشعوب تدعى أثيوبيا . وعلى ذلك لم تتفق المصادر القديمة على حدود معلومة للبلاد التي يطلق عليها هذا الاسم ، بل ظل مشاعاً دون تحديد جغراني . وارتبط باسم آخر معاصر له وهو (كوش) الذي يعني الشعوب ذاتها والمناطق ذاتها .

ومن دلائل الاضطراب في تحديد المناطق التي كان يشملها هذا الاسم القديم (أثيوبيا) ، تلك الغزوة التي قام بها ملك النوبة على مصر ، وحكمت أسرته النوبية مصر من عام ٧١٢ إلى ٦٦٣ قبل الميلاد وهي الأسرة الخامسة والعشرون التي يسميها المؤرخون بالأسرة الأثيوبية ، مع أنها جاءت من بلاد النوبة ، مما يدل على أن المؤرخين القدامى كانوا يقصدون باسم أثيوبيا مملكة النوبة ومروى أكثر مما يقصدون غيرها ، وكانوا يحددون عاصمتها الأولى نباتا وعاصمتها الثانية مروى ، وكلتاهما في شمال السودان .

لماذا سمّت الحبشة نفسها اثيوبيا ؟

لقد وجد الكتاب في العصور الوسطى والحديثة أجزاء هامة من هذه



المنطقة المعنية اتخذت لها أسماء محددة مثل مصر والسودان ، واختصوا ما عداها – أي كل الشعوب السوداء باسم أثيوبيا ومن بينها الحبشة .

ومن هنا نشأت رغبة ملوك الحبشة بالانفراد بتسمية (أثيوبيا) في العصور الوسطى ، لرغبتهم في التخلي عن الاسم القديم الشائع عنها ، وهو الحبشة ، والذي يوحي بتعدد الأجناس واختلاطها وتفككها ، خاصة أن هؤلاء الملوك ، بدعم من الكنيسة ، كانوا يحاولون منذ عهد الملك (يكونو أملاك (١٢٧٠ م) أن يعززوا هيبة الملك وسلطانه بإحاطته بهالة من التقديس وبنسبه إلى الأنبياء والمرسلين . ومن هنا اخترعوا قصة للتسمية ، إذ قالوا إن (أتيوبيس) بن حام بن نوح هو جدهم ، وإن ذريته هي التي نزحت إلى هضبة الحبشة في أول الأمر وإن الاسم مكتسب منه وإن ابنه يكسوم هو الذي أسس مدينة اكسوم .

وفضل اسبنسر ترمنجهام أن يطلق اسم اثيوبيا كمصطلح جغرافي معاصر على منطقة شمال شرقي إفريقيا التي تضم الحبشة القديمة وملحقاتها وأريتريا والصومال ، ولكنه مصطلح يفتقر إلى الدقة العلمية ويساير رغبة ملوك أثيوبيا في التوسع على حساب البلاد المجاورة .

لفظة كوش ومدلولها

أما كوش فكان يطلقها قدماء المصريين على حدود مصر الجنوبية وهي ما يسمى الآن ببلاد النوبة . وقد ذكرها العبرانيون في التوراة تماماً مثل كلمة أثيوبيا على أن كوش من أولاد حام ، وذكرتها النقوش الأكسومية القديمة بصيغة (كاسو) .

ولما كان الحاميون الذين أطلق عليهم أيضاً اسم الكوشيون قد استوطنوا بلاد السودان وأريتريا والحبشة والصومال بعد أن نزحوا إليها في فترات تاريخية قديمة ، فقد أطلق على البلاد أيضاً اسم بلاد الكوش وشملت ضمن ما شملت بلاد الحبشة وأريتريا والسودان . وقد كان العنصر الكوشي سائداً في المنطقة قبل مجيء الساميين من جنوب الجزيرة العربية . وهم الآن يشكلون



في منطقة أريتريا والصومال والحبشة أحد العناصر التي تتكون منها شعوب تلك المنطقة . وتعد لغات الأجو والغالا والسداما في الحبشة والساهو الدناكل والبلين في أريتريا ولغة الصومال لغات كوشية الأصل .

مملكة اكسوم ليست هي مملكة الحبشة

اشتقت كلمة الحبشة من لفظة (حبشات) أو (حبشت) وهي قبيلة عربية نزحت من جنوب الجزيرة العربية إلى سواحل أريتريا ثم توغلت إلى المرتفعات الجبلية لتصبح في ما بعد إحدى القبائل التي ساهمت في تأسيس مملكة اكسوم . وقد ورد ذكرها في النقوش اليمنية والاكسومية القديمة بلفظ (حبشت) وملك (حبشتن) و (مصور احبشتن) أي قواد الحبشة .

وقد سكنت هذه القبيلة وغيرها من النازحين من اليمن في بداية الأمر في جزر دهلك (الأريترية) ، ثم أنشأوا طرق قوافل نحو الداخل للاتجار مع السكان لاصليين من الكوشيين . وتدل الاسماء السامية المنتشرة في الشواطىء والهضبة الأريترية على طرق الهجرة القديمة : مصوع من تسمية عائلة (مصاوا اليمنية) . سحرت (من شحر في اليمن) . هوزين من (ذي حسين) . عنبسة من (عين سبأ) . مرب من (مأرب) . وعا ، مطرا ، عصب الخ . . . ويذكر المؤرخون أن قبيلة حبشات أوجدت لنفسها موطىء قدم في الهضبة الأريترية في القرن الخامس قبل الميلاد .

ومادة (حبش) في العربية تدل على الجمع والتحالف ، ومن هذه المادة ألفاظ شائعة عند العرب ، فنجد (حباشة) سوقاً من أسواق العرب في الجاهلية . ومن أسماء الأعلام العربية حبش وحبيش . والأحابيش قوم من قريش تحالفوا فسموا كذلك . وفي اليمن جبل يسمى الحبيش ، ويقال إن قبيلة حبشات تنتمي إلى تلك المنطقة .

أما قبيلة أجعازيان فهي كما يقال أقدم من هاجر إلى الشواطىء الأريترية من القبائل اليمنية . وكان موطنهم الأصلي على الساحل بين صنعاء وعدن ، ولهم نقوش تذكرهم في اليمن واكسوم وإليهم تنسب لغة الجئز التي اشتقت منها لغتا التجرينية والتجري الحاليتان في أريتريا .



والذي يجب أن يلفت إليه الانتباه هو أن دولة اكسوم التي أنشأها المهاجرون الساميون من قبائل حبشات واجعازيان وغيرها في المرتفعات الأريترية وهضبة التجراي في شمال أثيوبيا الحالية لم تحمل اسم دولة الحبشة إلاّ في عهود متأخرة ــ نحو القرن العاشر الميلادي بعد نشوء مملكة الامهرا ــ كما سيأتي تفاصيل ذلك . فلم ترد كلمة الحبشة أو (احبشت) في النقوش الاكسومية القديمة إلاّ ضمن ولايات أو قبائل كانت تابعة لاكسوم ، وكانت التسمية الرسمية للدولة مملكة اكسوم . وقرىء نقش اكسومي يرجع إلى القرن الرابع بعد الميلاد ورد فيه اسمان من أسماء ملوك هذه البلاد ، وهما الاعميدة وابنه عيزانا ويتلقبان بألقاب (ملك اكسوم وحمير وذو ريدان وسبأ واحبشت وأصلح وتهامة والبجة وصامو) حيث يستفاد من ذلك أن احبشت لا تعني جميع البلاد أوجميع شعوبها في ظرف تدوين النقش . وقد قرىء نقش اكسومي آخر يرجع إلى القرن السادس بعد الميلاد فيه اسم رمحز أحد ملوك اكسوم ، ويلقب بملك الجعزيين . ولم ترد فيه كلمة احبشت ، بدليل أن الاسم لم يكن شمولياً للبلاد .

ويستنتج من ذلك أن الحبشة الحالية أو (أثيوبيا) كما سميها ملوكها ، لتشمل ملحقاتها من بلاد الغالا والصومال ، ليست استمراراً لمملكة اكسوم التي اندثرت في القرن الثامن الميلادي ، بل كانت اكسوم مملكة قائمة بذاتها تشكل في بداية الأمر امتداداً لممالك سبأ وحمير في اليمن حتى أن لقب حاكمها نجوس أو (نجاشي) لم يكن يعني في بداية الأمر إلاّ جابي الضرائب ، وهو الذي كان يبعثه ملوك سبأ وحمير إلى جالياتهم هناك لجمع الضرائب حتى تحول اللفظ بمرور الوقت إلى ملك .

وتمتلك أريتريا مع اكسوم التاريخية تراثاً مشتركاً يتمثل في التكوين البشري والثقافي واللغوي والحضاري لأجزاء كبيرة من أريتريا وخاصة هضبتها . ولهذا عنينا بتاريخ اكسوم وحضارتها وثقافتها مع إدراكنا للحساسيات التي قد تثار حول ذلك ، خاصة أن ملوك أثيوبيا يدعون التراث الاكسومي ــ وهم عنه من الاريتريين أبعد ــ وإن مدينة أكسوم نفسها



لا تزال قائمة في هضبة التجراي على مقربة من الحدود الأريترية . وإذا صح وجود انتماءات بعيدة لملوك الأمهرا وشعوبهم إلى حضارة اكسوم ، فإنما هو من قبيل التراث المشترك الذي لا غضاضة فيه ، فالشعوب اللاتينية في أوروبا مثلاً تنتمي إلى تراث حضاري مشترك ،ولكن ذلك لم يمنع وجود القوميات المنفصلة والمستقلة (إيطاليا ، إسبانيا ، فرنسا ، البرتغال ، رومانيا الى جانب دول أمريكا اللاتينية) .

تسمية أريتريا

أطلق اليونانيون في القرن الثالث قبل الميلاد كلمة (تريكون سينوس أريتريوم (Trichone - Sinus Erythraeum) على البحار الواقعة حول الجزيرة العربية . وكانت بهذا المعنى تشكل البحر الأحمر وخليج عدن وبحر العرب والخليج العربي . وفسروا التسمية وهي تعني (البحر الأحمر) بتكاثر الطحالب العائمة التي كان يشاهدها البحارة اليونانيون على سطح مياه هذه البحار ، والتي كانت تعكس على صفحة الماء لوناً أحمر .

وكانت في اليونان قديماً جزيرة تحمل اسم (أريتريا) ، وهي جزيرة (يوبويا) تجاه الشاطىء الشرقي لبلاد الإغريق ، خرج منها كثيرون ليؤسسوا مستعمرات الشطر الشمالي لبحر إيجه . وعاونت الثورة اليونانية ضد الفرس (٤٩٩ ق. م.) ، فدمرها دارا الأول (٤٩٠ ق. م.) في ما بعد . وأنشأت أثينا هناك مستعمرة ثارت عليها مرتين (٤١١ — ٣٤٩ ق. م) ولا يزال هناك موقع في جزيرة كريت يحمل اسم رأس أريتريا .

ولا ندري إن كان اليونانيون قد نقلوا أيام مجدهم هذه التسمية إلى بقعة من بقاع الأحمر التي كانوا يسيطرون عليها . وقد حصر الرومان ، أيام مجدهم ، التسمية (سينوس أريتريوم) على البحر الأحمر وشواطئه التي سيطروا عليها عندما خضعت عدوليس لسلطانهم . وعندما احتل الطليان سواحل البحر الأحمر الممتدة من رحيتا جنوباً ، إلى رأس قصار شمالاً أطلقوا عليها اسم أريتريا تجديداً للتسمية الرومانية القديمة لساحل عدوليس، وذلك بالمرسوم الذي أصدره الملك همبرت الاول ، ملك إيطاليا في الأول من يناير (كانون الثاني) ١٨٩٠ م .



الفصل الثالث

صلة الهضبة الاريترية بمملكة اكسوم وبجنوب الجزيرة العربية

تدخل اكسوم في شؤون جنوب الجزيرة العربية

توقف سيل الهجرات العربية بشكل موقت حين تدخل الإغريق البطالمة من مصر في البحر الأحمر ، وصار لهم نفوذ سياسي وعسكري على جانبي هذا البحر ، وأسسوا مرفأ عدوليس الشهير في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد . وتشير مخطوطة باللغة اليونانية عثر عليها بالقرب من دقي محاري على بعد ٤٠ كيلومتراً جنوبي أسمرا إلى ملك يحمل اسماً يونانياً سبمروتيز (Sembruthes) مما يدل على تأثر المنطقة بالثقافة اليونانية بحكم التواجد اليوناني البطليموسي في عدوليس ، بالسواحل الأريترية .

غير ان الهجرات العربية لم تنقطع انقطاعاً تاماً حتى في تلك الفترة ، إذ يرى بعض الباحثين ان العرب كانوا دخلوا السواحل الإفريقية المقابلة في ما بعد الميلاد أيضاً ، فنزحوا إليها في ما بين السنة ٢٣٢ م و ٢٥٠ م مثلاً ، حيث ركبوا البحر ونزلوا هناك .

كما ان السبئيين الذين استوطنوا المرتفعات الأريترية وهضبة التجراي



لم يقطعوا صلاتهم بوطنهم القديم ، بل ظلت أنظارهم متجهة في تدخلهم بشؤونه وإرسالهم حملات عليه واحتلالهم له في فترات من الزمن .

ويظهر من الكتابات الاكسومية أن ملوك اكسوم كانوا في العربية الجنوبية في القرن الأول الميلادي ، وقد كانوا فيها في القرن الثاني أيضاً . ويظهر أنهم كانوا قد استولوا على السواحل الغربية وهي سواحل قريبة من الساحل الأريتري ومن الممكن الوصول إليها بقوارب صغيرة عبر باب المندب . وورد في نص من النصوص الاكسومية أن ملك اكسوم كان أخضع السواحل المقابلة لساحل مملكته ، وذلك بإرساله قوات برية تغلبت على ملوك تلك السواحل من (الأرحب) وأجبرتهم على دفع الجزية . ويتحدث نص منقوش عن حرب أعلنها (الشرح يحصب) الحميري على (احزب حبشت) — أي شعب الحبشة (وذي سهرتت) أي أصحاب سحرته .

وورد في كتابات تعود إلى أيام (علهان نهفان) أن هذا الملك اليمني قد تفاوض مع (جدرت) ملك اكسوم لعقد صلح معه . ويظهر من جملة (ذا قول وقدمن وأشعب ملك حبشت) أي (واقيال وسادات وقبائل ملك الحبشة) الواردة فيها أن ملك اكسوم كان يحكم جزءاً من العربية الجنوبية في ذلك الوقت . وورد في النقش اسم الملك الاكسومي (جدرت ملك حبشت واكسمن) . كما تدخل وذبة ملك اكسوم في شؤون العربية الجنوبية في ما بين سنة ٣٠٠ م و ٣٢٠ م .

ويظهر من اللقب الطويل الذي تلقب به ملك اكسوم — عيزانا — ان اليمن وما جاورها من أرضين كانت خاضعة لحكمه . ولكن أظهر تدخل لاكسوم في العربية الجنوبية ، هو الذي حدث في النصف الأول للقرن السادس عشر واحتلالهم اليمن ، إذ بقوا فيها نحو سبعين عاماً حتى ثار أهل اليمن عليهم بمساعدة الفرس فتركوا اليمن بعدها أبداً . وكان دخولهم إليها في عام ٥٢٨ م وبمساعدة الرومان الذين أمدوهم بالسفن التي نقلتهم من ميناء عدوليس كما سنبين ذلك في حديثنا عن الصراع في البحر الأحمر .

وقد ذكر المؤرخ الروماني بروكوبيوس ان القيصر جستنيان أرسل



رسولاً عنه إلى النجاشي (الـ أصبحه)واسمه جوليانوس ليرجو منه إعلان الحرب على الفرس ، وقطع العلاقات التجارية معهم ، لأنه والقيصر على دين واحد هي النصرانية ، وعليه مساعدة أبناء دينه الروم النصارى والاشتراك معهم في قضيتهم .

ووصل رسول جستنيان إلى ميناء عدوليس ، ثم ذهب إلى اكسوم حيث وجد النجاشي الـ (اصبحه) واقفاً على عربة ذات أربع عجلات وقد ربطت بها أربعة فيلة ، وكان عارياً إلاّ من مئزر كتان مربوط بذهب ، وقد ربط على بطنه وذراعيه حلياً من ذهب .

ولبى النجاشي الدعوة وأرسل حملة عسكرية إلى اليمن لإنقاذ نصارى نجران من تعذيب ملك حميَر اليهودي ذي نواس المدعوم من الفرس . ونقلت الحملة في نقلتين بسفن رومانية قدمت من مصر . وتحركت القافلة الأولى بقيادة النجاشي الذي كان احتجز سفينة خاصة به ، فعبرت به باب المندب ورست عند ساحل اليمن . وكانت سفينة النجاشي أول سفينة بلغته ثم تلتها بقية السفن . ووقعت معارك بين جيش اكسوم والحميَريين انتهت بانتصار اكسوم وبتنصيب ابرهه الأشرم حاكماً لليمن ، وكان أحد قواد الحملة ، ثم استقل بالملك وتوارث العرش أبناؤه لمدة سبعين عاماً . (راجع الفصل الخاص بالصراع في البحر الأحمر) .

نظام الحكم في اكسوم

ولايات الهضبة الاريترية

تكونت مملكة اكسوم من عدة ممالك صغيرة أنشأها نازحون ساميون من اليمن في عهد سبأ وحميَر بين بلاد (تكزي) ومحافظة (اكلي قوزاي) الأريترية . ومن المرجح أن يعود ذلك إلى القرن الأول الميلادي .

وتدلّ نقوش اكسوم وخاصة تلك التي سجلتها لوحة حجرية أشهر ملوكها— عيزانا— الذي كان أول ملك اعتنق المسيحية في حوالي عام ٣٥٠ م، ان اكسوم كانت تقوم بغزوات تستهدف إخضاع القبائل المجاورة لسيطرتها



وإجبارها على دفع ضريبة سنوية . ولم تكن هناك مركزية في الحكم بقدر ما كانت « ممالك » أو « قبائل » تؤدي جزيتها السنوية . ويذكر عيزانا في لوحته عدداً من الشعوب التي أخضعها ، ويسمي نفسه صاحب اكسوم وحميَر وريدان وسبأ ، في اليمن ، كما يذكر سلحين وصيامو والبجة وكاسو . ولعلها كانت في مملكة مروى في وادي النيل وشرق السودان ، إذ يشير إلى عبوره نهر تكازى كما يشير إلى شعوب منقرتو وهاسا وباريا وسراوي وحماسين في وادي القاش في غرب أريتريا والمرتفعات الأريترية .

ومما يدل على استقلال الأقاليم التي خضعت لاكسوم ما تشير إليه لوحة عيزانا بأنه أخضع ملك أجوزات (ويفسرها المؤرخون بأكلي قوزاي الأريترية) المتاخمة لاكسوم ، وكذلك ملك حماسين . ويذكر ملك سراتي (وهذا الاسم ورد بعدة ألفاظ منها سراوي والمقصود إقليم سراي الأريتري) ويقول إنه اتفق معه على مرور قوافل التجارة إلى عدوليس عبر بلاده بسلام .

على ان أسماء هذه الممالك اختفت بعد القرن الرابع الميلادي ، ولم يعثر على سجلات إلاّ تلك التي تذكر أسماء ملوك اكسوم وتواريخ ملكهم بغير دقة .

وبعد اندثار أكسوم كمملكة موحدة إثر اجتياح موجات قبائل البجة الحامية للمرتفعات الأريترية منذ القرن الثامن الميلادي شكلت (مقاطعة سراي) ولاية مستقلة تحت إدارة حاكمها الذي أطلق عليه لقب (كنتيبا) ، كما ظلت حماسين مستقلة يحكمها أمير يلقب بـ (اقسان) . وعندما فرض رؤوس التجراي ظلاً من نفوذهم ، بعد اعتلاء يكونو أملاك عرش الحبشة في عام ١٢٧٠ م ، تولى حكم أقاليم الهضبة الأريترية الثلاثة (حماسين ، سراي ، اكلي قوزاي) أمير أطلق عليه (بحر نجاش) أي ملك البحر ، ولو ان نفوذه لم يمتد إلى البحر ، إذ كانت قبائل البجة الشرسة تسيطر على الشريط الساحلي.

ولم يكن نظام الحكم بين الأقاليم الثلاثة مركزياً ، بل كان أشبه بالتحالف الكونفيديرالي الذي تفرضه ظروف الأمن في بلاد تعرضت للغزو والنهب المستمر من شعوب نازحة من الشمال (البجة) أو من الجنوب (التجراي). وكان لكل إقليم حكامه المحليون .



الفصل الرابع

جذور الثقافة في الهضبة الاريترية وصلتها بالعرب قبل وبعد دخول المسيحيه

لا توجد بقعة في الأرض خارج اقطار الجامعة العربية تحمل ثقافتها المحلية الطابع السامي أو العربي الصريح كالهضبة الأريترية التي تأثرت في مختلف أوجه الحضارة والثقافة واللغة وأسس الحياة الاجتماعية بجنوب الجزيرة العربية ، قبل دخول المسيحية إليها في منتصف القرن الرابع الميلادي، ثم بالثقافة العربية بعد أن ارتبطت كنيستها بالكنيسة المصرية طوال عهود التاريخ واقتضت الحاجة ترجمة الكتب الدينية والقانونية والثقافية من العربية، مما سنلمسه في سطور هذا الفصل .

الحاجة إلى الحفريات الاثرية

يفتقد تاريخ أريتريا إلى الأبحاث والحفريات الأثرية . فباستثناء الأبحاث الإيطالية المحدودة في عدوليس لم يتم في أريتريا تنقيب كامل عن الآثار القديمة . ومع ذلك فإن الآثار التي عثر عليها حتى الآن تدل على التأثير الواضح لجنوب الجزيرة العربية في هذه المنطقة وخاصة تلك التي وجدت في (قوحيتو) و (تخونوا) ، و (كسسكي) في محافظة اكلي قوزاي . وقد رجح



العالم الاثري دونكانسون وجود آثار أخرى كثيرة لا تزال مطمورة في باطن الأرض في الهضبة الأريترية .

وعثر لتمان على عدد من القطع الأثرية يعود تاريخها إلى ما بين القرن الخامس والأول قبل الميلاد . كما عثر بعض القرويين الأريتريين في (عدي كارنشم) في حماسين عام ١٩٤٥ على تمثال من حجر يشبه أبو الهول المصري ومحراب يحمل كتابة بالحروف السبئية . ويعتقد كونت روسيني أنها كتبت في الفترة الواقعة بين القرن السابع والخامس قبل الميلاد ، وهي أقدم آثار تاريخية وجدت في شمال شرقي إفريقيا .

اجعازيان وجئز — شعباً ولغة

تعتبر جعز (والأصح جئز) اقدم لغة سامية في شمال شرقي إفريقيا . وقد كانت لغة القبائل السبئية التي نزحت إلى هضبة أريتريا وهضبة التجراي من جنوب الجزيرة العربية منذ عهود قديمة . وكان القوم الذين تحدثوا بالجئز يطلق عليهم (أجعازيان) ومعناها الحرفي عند بعض الباحثين (الرحالون)(١) وعند البعض الآخر (الأحرار) . وإذا كانت بالمعنى الثاني ، فمن المحتمل أن تكون القبائل السامية النازحة التي أطلقتها على نفسها بعد استقرارها في الهضبة الأريترية قد قصدت في بدء الأمر أن تميز نفسها عن العناصر الزنجية والكوشية الموجودة أصلاً في تلك البلاد والتي كانت موسومة عندها بالرق . ويؤيد ذلك أن الساميين فرضوا ثقافتهم ولغتهم على الشعوب الكوشية التي سبقتهم استناداً إلى تقدمهم الحضاري . وقد كانوا هم الذين استقدموا وسائل الزرع على التلال بالتروس ونعني بها الزراعة السفحية على المدرجات ، وكذلك البناء بالحجر الخالص الذي لا تربطه قطعة الملاط وبناء المعابد والقصور البيضاوية والكتابة وغيرها من أسباب الحضارة والتقدم . ويكفي انهم أعطوا البلاد لغتها .

---

١ — جعزا وجعازي بلهجة التجري (وهي احدى اللهجات المشتقة من جئز) تعني الرحل . وبما ان الـ (اجعازيان) رحلوا من بلادهم الاصلية في جنوب الجزيرة العربية ليستقروا في الهضبة الاريترية فالمعنى الاول للكلمة (الرحالون) قد يرجح صحته .



وحلت دياناتهم محل الديانات القديمة للأقوام الكوشية التي كانت تقدس أنواعاً معينة من الأشجار والمياه والثعابين . وكان سكان جنوب الجزيرة العربية يعبدون الشمس والقمر وكوكب الزهرة . والآثار القديمة في مطره وقوحيتو في محافظة اكلي قوزاي تشير إلى عبادة (الإله عشتر) أي إله الزهرة . وقد اشتقت كلمة (عستر) بلغة التجري من هذه الكلمة وتعني السماء . كما عبدوا (إله بحر) و (إله مدر) أي إله البحر وإله الأرض و (إله محرم) أي إله الحرب . وكلها آلهة وثنية كانت تصنع لها التماثيل في جنوب الجزيرة العربية وانتقلت إلى الهضبة الأريترية مع النازحين الساميين . .

ولقد كشفت في الهضبة الأريترية نقوش جئزية عديدة أمكن تقسيم خطوطها إلى ثلاثة أقسام أو عهود : أولها يمثل أقدم النماذج للكتابة الجئزية ، وقلمها هو االسبئي القديم الذي كان في عهد ملوك سبأ الذين عرفوا باسم (مكرب) . وكان عهدهم يمتد تقريباً من الألف قبل الميلاد إلى الستمائة سنة . وكانت هذه الكتابة تمثل النازحين قبل اختلاطهم بالعناصر المحلية . وثانيها يشبه القلم السبئي المتأخر ، وهذا القسم متأخر عن الأول بنحو ستة قرون . وثالثها كتابات جئزية متميزة خطاً ولغة .

ومهما يكن من أمر ،فإن الإمعان في القلم الجئزي يظهر أنه مشتق من السبئي ومتأثر بالصورة السبئية . والظاهر ان الخط السبئي لم يتسق اتساقاً تاماً مع النطق الجئزي ، فاضطر الاكسوميون في أول عهدهم بالمسيحية إلى اختراع هذا الخط الذي أضاف إلى حروفه شيئاً يشبه الحركات ،وبأسلوب مستقل يجعله وسطاً بين الخطوط السامية واليونانية .

ولقد كانت لغة جئز في بادىء أمرها لغة لقبائل سامية كانت تعيش وسط قبائل إفريقية في الهضبة الأريترية وفي اكسوم . ولما أخذ العنصران يندمجان ويكونان أمة واحدة ليست بسامية خالصة ولا حامية خالصة ، ظلت هذه اللغة لغة الأمة المزيجة في جميع أنحاء البلاد دون أن تفقد صبغتها وأصالتها السامية ، لأن أصول اشتقاقها موجودة في اللغة العربية وغيرها



من اللغات السامية . وكل ما كان من أمر أن نطقها تحور بعض الشيء بالنسبة إلى ما هو معروف عند الساميين ، ودخل عليها بعض المفردات الإفريقية الحامية .

وقد لاحظ المستشرقون ان لغة جئز حافظت على عناصر سامية قديمة لم يبق لها أثر في جميع اللغات السامية الأخرى ،وخصوصاً في الأساليب ، فإنها في أريتريا قديمة في تراكيبها ونظامها . كذلك هناك أشياء أخرى تدل على أن جئز حافظت على أقدم الصور السامية مثل عدم وجود تمييز بين المذكر والمؤنث في الأسماء .

ولا يعلم الزمن الذي أصبحت فيه جئز لغة منفصلة نهائياً عن اللغة السبئية الأم ، إذ أن عملية التطور لا بدّ أن تكون أخذت قروناً عديدة كما أشرنا أعلاه . ومن المحتمل أن تكون جئز أصبحت لغة غير مفهومة لدى سكان جنوب الجزيرة العربية في حوالي القرن الأول الميلادي .

وتوضح مسلة (مطرا) في اكلي قوزاي التي يعود تاريخها إلى القرن الرابع الميلادي بروز لغة جئز كلغة مميزة عن لغة جنوب الجزيرة العربية .

على أن اللغة تتأثر بالحالة السياسية كثيراً ، فقد اضمحل مجد اكسوم الذي ازدهر منذ القرن الرابع الميلادي إلى القرن السابع الميلادي . وتلا ذلك اضمحلال جئز كلغة تخاطب لتنطوي في صفحات الكتب داخل جدران الكنيسة ولأغراض التعاليم الدينية . ومن الملاحظ أن انتعاش جئز الثقافي كان في الفترة الواقعة بين القرن الثالث عشر والقرن السابع عشر ، وهي الفترة التي نشطت فيها الكنيسة ، أي بعد عدة قرون من الانزواء . وظهرت التجرينية والتجري كلغتين للتخاطب عوضاً عنها في المناطق التي سادت فيها جئز تاريخياً . وهما حتى الآن أقرب اللهجات السامية إلى جئز . أما الأمهرية فعلى رغم جذورها السامية ، فإنها تأثرت بشكل أقوى باللغات الكوشية .

وللتدليل على وحدة الأرومة والأصل بين لغة جئز واللغات السامية الأخرى نورد هنا جدولاً يتضمن جملة من الكلمات المتشابهة :



عربي	آشوري	عبري	آرامي	سبئي	جئزي
أب	أبو	أب	أبا	أب	أب
ابن	بنو	بني	برا	بن	بن
أخ	أخو	أخ	أخا	أخو	أخو
أذن	أزنو	أزن	أودنا	أزن	أزن
أم	أمو	أم	أما	أم	أم
برق	برقو	بارق	باراق	مبرق	مبرق
بعل	بلو	بعل	بعلا	بعل	بعل
بيت	بتو	بيت	بيتا	بيت	بيت
تسع	تشو	تشع	تشع	تشع	تشع
ثلاث	شلاشو	شاوش	ثلاث	شلاسي	شلاسي
دم	دمو	دم	دم	دما	دما
سماء	شمو	شمايم	شمايا	سماي	سماي
نمر	نمرو	نمر	نمرا	نمر	نمر

وهناك كلمات كثيرة في اللغة العربية أصلها جئزية أو جاءت من لغات أخرى كاليونانية والآرامية والعبرية عن طريق جئز أمثال : حواريين ، منافق ، فطر ، محراب ، برهان ، مشكاة ، بغل ، مائدة ، انجيل ، جهنم ، تابوت ، صرح ، جلباب ، زريبة ، الخ . . . بل إن كلمة مصحف هي جئزية الأصل وتقرأ بالصاد المعجمة .

ويروي صاحب كتاب (الجواري الحسان في تاريخ الحبشان) ان سالما مولى ابن أبي حذيفة جمع القرآن بين دفتين . ثم ائتمروا على أن يسموه باسم فقال البعض منهم سموه (السفر) فقال لهم إن ذلك تسمية اليهود لكتبهم فكرهوا ذلك . فقال إني رأيت مثله في اكسوم يسمى (المصحف) فأجمع رأيهم على أن يسموه (المصحف) فسمي به .

ويلاحظ التأثير الحميري على أسماء الملوك الأوائل لمملكة اكسوم . فأسماء الملوك الذين حكموا في الفترة الواقعة بين القرن الأول والقرن الثالث



الميلادي مصدرة بالمقطع (زا) كما ترى في زابازين ، زازانتو ، زاهكاليه . وهذا المقطع (ذا بالعربية) معناه سيد أو صاحب ويقال لأمثالهم في حمير (الأذواء) مثل ذو يزن ، وذو قفان وذو جدن . والمعروف أن ما يلي هذا المقطع يدل على اسم القبيلة أو الشعب أو المكان الذي ينتمي اليه هذا الملك . فبازين وزناتو وهكاليه كلها أسماء قبائل أو أماكن لهؤلاء الملوك . ولا يزال البعض منها مثل بازين باقيا في منقطة القاش كاسم لقبيلة . كما أن يزن وقفان وجدن كذلك على الأرجح . وفي اليمن اليوم تصدر كلمة (ذو) عدداً من الأسماء البارزة مثل قبيلة (ذو حسين) و (ذو محمد) .

ثم طائفة أخرى من الملوك تبدأ أسماؤهم بمقطع (ال) مع نطق اللام مفتوحة مشددة أو مفتوحة من غير تشديد كما يقال في (ال) أسفح وال سمره و ال اسكندي و ال ابرهة وال أصبحه . ونجد هذا التركيب مطرداً في أسماء الملوك من عام ٢٧٥ قبل الميلاد حتى ٤٧٨ ميلادية . ثم لا نجد هذا الاطراد منذ هذا التاريخ حتى نهاية الدولة الاكسومية في القرن السابع الميلادي دلالة على انفصام صلاتها الثقافية والروحية بجنوب الجزيرة العربية .

وربما كان معنى (ال) الإله فيكون معنى التركيب ال أسفح (إله أسفح) . فقد جرت عادة اللغة الجئزية القديمة أن تجعل المضاف مبنياً على الفتح ، فيقال ال أسفح أي إله أسفح . وربما كانت تقاليد الملوك لذلك العهد تنعتهم بصفات القداسة والتأليه إذ كانت اكسوم وثنية في البداية .

وبعد دخول المسيحية إلى البلاد طمست معالم الثقافة الجئزية الوثنية أو حرفت بحيث تتناسب مع تعاليم الديانة الجديدة ، مما أضفى ظلالاً من الغموض حول الأعمال الثقافية للفترة التي سبقت دخول المسيحية .

وظلت لغة جئز لغة سامية — بل أقرب اللغات السامية من حيث المفردات إلى اللغة العربية . والنص الديني وهو ترجمة الآية الانجيلية المشهورة (أبانا الذي في السماوات ، ليتقدس اسمك كما هو بالسماء كذلك على الأرض . أغفر لنا سيئاتنا كما نحن نغفر لمن أساء إلينا) خير دليل على ذلك . وهذا هو النص (أبونا ذا بسميات يتقدس سمك بكما بسماي كما بمدر . هيدج لنا إيسانا كما نحن نهدج لذا ابس لنا) .



التأثير السبئي على ملكية الارض في الهضبة الاريترية

بعد أن انتزع النازحون الجدد من جنوب الجزيرة العربية الأرض من السكان الكوشيين القدامى وحولوهم إلى رقيق الأرض ، ورثوا الأرض لأبنائهم وسلالاتهم فصار نظام التملك وراثياً أو ما يطلق عليه محلياً (رستي) . والقرية تمتلك الأرض بصفة جماعية وتعيد توزيعها على مواطنيها مرة كل سبع سنوات توخياً لتحقيق العدالة في التوزيع .

والانتماء إلى القرية بالأصل يحمل طابع صلة الرحم وقرابة الدم والنسب. ويلاحظ أن معظم القرى في الهضبة الأريترية تحمل لفظة (دقي) بمعنى (أولاد) ، أو (عدي) بمعنى بلدة ، ومثال ذلك (دقي مدعبي) (دقي عد شوم) (دقي محاري) أي أولاد مدعبي ، أولاد عد شوم ، أولاد محاري . وكذلك (عدي قيح) ، (عدي نبرا) ، (عدي خالة) ، أي بلدة قيح ، بلدة نبرا ، بلدة خالة . وهذه بالأصل أسماء لأسر كبيرة أو شخصيات هامة ورثت المكان لأبنائها . وأحياناً أعطت العائلات الكبيرة اسمها للإقليم كله كما هو الحال بالنسبة إلى تسمية محافظة اكلي قوزاي (وتعني أبناء الأخوين : اكلي ، وقوزاي) .

وتؤول ملكية الأرض المحيطة بالقرية إليها بشكل وراثي . وقد نقل السبئيون هذا النظام من هضبتهم في اليمن .

ويلاحظ أيضاً أن محافظة سراي تشذ عن قاعدة التملك الجماعي وتوزيع الأرض ، فملكية الأرض فردية ولا يسري هناك نظام توزيع الأرض في مدة زمنية محددة .ويمكن أن يصبح المرء مواطناً من أبناء القرية إذا أقام فيها أربعين عاماً .

دخول المسيحية إلى الهضبة الاريترية واكسوم

دخلت المسيحية إلى أريتريا واكسوم في عهد مبكر .وأقرب الروايات إلى الفهم عن دخول المسيحية تلك التي كتبها الكاهن روفينوس (Rufinus) الذي توفي سنة ٤١٠ م . وذكر أنه سمعها من أوديسيوس شخصياً .



وتتلخص تلك الرواية في أن مجموعة من تجار مدينة (صور) قاموا برحلة تجارية في طريقهم إلى الهند وفي صحبتهم شابان صغيران بينهما قرابة، وأكبرهما فرومنتيوس (Frumentius) وأصغرهما أوديسيوس (Edesius). وفي أثناء الرحلة وقفت السفينة في ميناء عدوليس في الشاطىء الأريتري. وكان أهل الميناء قد لحقتهم أضرار من تلك السفينة وصاحبها في رحلة سابقة، فاعتدوا على السفينة وأغرقوا من فيها ولم ينج إلا هذان الشابان. فباعهما الأهالي إلى ملك اكسوم الذي سر بهما ومنحهما ثقته وجعل أكبرهما أميناً على حساباته ورسائله، وجعل الثاني ساقيه الخاص. وعندما وافته المنية بقيا في جانب الملكة لرعاية أمور الدولة إلى أن بلغ الملك الصغير عيزانا أشده واستمرا في خدمته.

عن هذا الطريق تمكن فرومنتيوس من التأثير على الملك عيزانا حتى جعله يعتنق الدين المسيحي.

عاد أوديسيوس إلى صور وأصبح راعياً لكنيستها حيث أتيح له أن يقص قصته على روفينوس. أما فرومنتيوس فقد ذهب إلى الاسكندرية حيث اجتمع بالبطريرك أتيناسيوس وحثه على إرسال مطران إلى اكسوم لرعاية شؤون المسيحية والمسيحيين في تلك البلاد. فوجد فيه البطريرك خير من يقوم بهذه المهمة فعينه مطراناً على اكسوم.

وأثناء حياة فرومنتيوس والملك عيزانا أصبحت المسيحية الدين الرسمي للدولة تمثلها الكنيسة التي تتبع الكنيسة المصرية على المذهب الأرثوذكسي (القبطي اليعقوبي). وظل بطاركة الاسكندرية يرسمون المطارنة المصريين الذين يرئسون الكنيسة في اكسوم ومن بعدها في الحبشة واحداً بعد الآخر، كما ظلت الكنيسة الأريترية تابعة لها حتى انفصلت الكنيسة الحبشية ورسمت مطرانها في عام ١٩٤٨.

لم يكن اعتناق الشعب للدين المسيحي في عهد الملك عيزانا إلاّ بين فئة قليلة من الناس، إذ أن القبائل الوثنية ظلت مستعصية تتسرب إليها المسيحية ببطء شديد خلال قرنين من الزمان.



وهكذا فإن المسيحية في أريتريا عريقة عرق انتشارها الأول في الشرق الأوسط . ويعتنق المذهب الأورثوذكسي اليوم أكثر من ٨٠ ٪ من مجموع السكان المسيحيين الأريتريين ، بينما يتوزع الباقون بين الطوائف الأخرى وخاصة طائفتي الكاثوليك والبروتستانت اللتين وفدتا في القرن التاسع عشر مع طروء الاستعمار الأوروبي وأقامتا لهما مدارس تبشيرية في مختلف مناطق الهضبة الأريترية . ولوحظ نشاط المدارس التبشيرية الكاثوليكية في محافظة اكلي قوزاي بصفة خاصة ، بينما نشطت الهيئات البروتستانتية وفي مقدمتها البعثة التبشيرية السويدية (Swidish Mission) التي جاءت في عهد الحكم المصري وأقامت لها كنيسة في (أم كلو) في إحدى ضواحي مصوع ، في أسمرا وكرن ومنطقة المنسع والكونامة ، والاخيرة منطقة وثنية . وكان لها دور يذكر في نشر التعليم العصري في عهد الاحتلال الإيطالي وتعرضت إلى اضطهاد السلطات الإيطالية التي أغلقت مدارسها .

المبشرون السوريون يدخلون اصلاحات
في لغة جئز وكتابتها

أدخلت المسيحية في أريتريا بضعة تحسينات على لغة جئز القديمة التي أصبحت صالحة لنقل الكتب المقدسة إليها . وكان الفضل في ذلك راجعاً إلى أولئك المبشرين الذين رحلوا إلى هذه البلاد من سوريا .

كانت لغة سبأ القديمة كما ظهرت في أقدم النقوش الأريترية خالية من الحركات ، فإذا أريد كتابة (صحافي) بمعنى كاتب كتبوها (صحف) . فاستطاع المبشرون السوريون أن يدخلوا إصلاحات على هذه اللغة . فاخترعوا حركات وصلوها بالحروف وجعلوا الكتابة تبدأ من الشمال إلى اليمين وأضافوا ثلاثة أحرف جديدة إلى أحرفها الستة والعشرين .

وكان للمبشرين السوريين (السريان) ثقافة يونانية فأضافوا عبارات دينية جديدة بعضها سرياني والآخر يوناني . وقد قدمت طائفة من هؤلاء المبشرين وعددهم تسعة رهبان هاربة إلى اكسوم بعد أن رفضت قرارات



مجمع (افزوس) سنة ٤٣١ م ، ومجمع خلقدونية سنة ٤٥١ م ، فدعموا المسيحية في هضبة أريتريا واكسوم وترجموا الانجيل إلى جئز . وقد تجلى تأثير هؤلاء المبشرين في الألفاظ الدينية التي استعملوها ، وهي ألفاظ سامية أقرب إلى اللغة العربية مثل (قربان) وصلوت (صلاة) ومقدس ، وصوم وقيس أو قشي (قسيس) ، كاهن الخ ...

وبعد نحو مائة عام لجأ إليها طائفة أخرى من المسلمين هرباً بدينهم من أذى كفار قريش ، مما يدل على وجود التسامح الديني في هضبة أريتريا واكسوم .

اثر اللغة العربية في ادب الكنيسة

تأثر أدب الكنيسة في أريتريا وفي اكسوم المجاورة في العصور الوسطى باللغة العربية ، بحكم العلاقة مع الكنيسة القبطية في الاسكندرية ، التي اتخذت العربية لغتها . وفي هذا يقول مبعوث امام اليمن – الحسن بن أحمد الحيمي– في كتابه (سيرة الحبشة) (١٦٦٥ م) : (إن الأبون كان رجلاً من القبط من أهل مصر ولسانه عربي ويخرج من مصر وكتاب الإنجيل معه مكتوب بالعربي وجميع ما يستصحبه من كتب شريعتهم وأحكام دينهم كذلك مكتوب بالعربي أيضاً) .

وعلى ذلك فمعظم ما كتب بلغة جئز لأغراض الوعظ الديني أو الأحكام القضائية إنما ترجم من العربية . وأشهر هذه الكتب (فتحا نجست) أي (قانون الملك) وقد كتبه مهاجر قبطي مصري اسمه ابن عسال ومعظمه مقتبس من الفقه الإسلامي ومن القوانين اليونانية . كما عزي تأليف كتاب (فوسي منفسائي) – أي دواء الروح – إلى قسيس مصري اسمه ميخائيل . ومثلها كتب (سوانا نفسي) – ملجأ الروح – و (فكاري ملكوت) – التأمل في الملكوت – و (هيمانوت أبو) – عقيدة الآباء – ، فإنها اقتبست من كتب ألفت بالعربية أولا .



دبر دبر بيزن

ظلت الكنيسة في أريتريا كما في الحبشة طوال العصور الوسطى ، بما امتصته من الكثير من الطقوس اليهودية والوثنية المحلية ، مركز إشعاع ثقافي للسكان المسيحيين ، وأصبحت تعاليمها وتقاليدها ذات طابع فريد جعلها تتدخل في مختلف الشؤون اليومية لاتباعها .

وكانت الاديرة هي مراكز العلم ، كما هي مراكز التعبد والتبشير وملاجيء في الجبال الحصينة عند الغارات التي كانت تهز المنطقة . وكان دبر بيزن ، في قمم جبل بيزن في اكلي قوزاي ، الذي أسسه الأب فلبوس بين عام ١٣٥٠ — ١٣٦٠ م أشهر الأديرة الأريترية وأعظمها شأناً وأهمية .

وقد شاهد رئيس البعثة البرتغالية الأب الفاريز عند مروره بدير دبربيزن في حوالى عام ١٥٢٠ م ان الأرض التي يملكها الدير تصل إلى ٣٠ ميلاً وتمتد القرى التابعة للدير إلى مسيرة يوم أو يومين . وتدفع كل قرية حصاناً كل ثلاث سنوات للدير كضريبة ، مما يدل على ممارسة الكنيسة السلطة الزمنية في جانب السلطة الروحية . ويقول الفاريز : سألت أحدهم لماذا الخيول وأهل الدير لا يركبونها ؟فرد علي أنهم مجبرون على أن تكون كذلك ، ولكن الدفع يتم عملياً بالبقر ، بواقع ٥٠ رأساً من البقر عن كل رأس خيل . وهي نسبة كما يبدو غير متطابقة ، إلا أن يكون الفاريز قد أخطأ في الرقم ، خاصة إن المنطقة كما هي عليه الآن لا تتمتع بثروة حيوانية كبيرة .

وقد قويت سلطة الكنيسة بعد ضعف مملكة أكسوم وزوالها ، ولم يكن من يحافظ على تراث البلاد وديانتها وكيانها سوى الكنيسة وأديرتها الغنية في وقت تعرضت فيه هضبة أريتريا والتجراي إلى اكتساح البجة الذين استقروا في البلاد وحكموها أكثر من أربعة قرون حتى أن كثيراً من سكان حماسين على وجه الخصوص يدعون انتسابهم إلى قبائل البجة والبلو كقرى سعد زقا وهزوقا وبيت مخا . ثم امتصت هذه القبائل البجاوية في إطار الثقافة



السامية المسيحية ، وفقدت صلتها بمميزاتها القديمة قبل أن تحل في الحكم والسيطرة محلها في نهاية القرن الثالث عشر قبائل أقو والبلين أحد فروعها ، التي نزحت من إقليم لاستا في قلب الحبشة بعد أن انتزعت من اسرتها الحاكمة (زا قوى) أسرة أخرى أطلقت على نفسها الأسرة السليمانية التي لا تزال تحكم الحبشة ويدّعي الأمبراطور الحالي هيلاسيلاسي الانتساب إليها.

اثر الدين في تطور الفنون في الهضبة الاريترية

منذ دخول المسيحية إلى الهضبة الأريترية ارتبطت حياة السكان بمختلف صورها بالحياة الدينية ، ولم تكن الفنون لتشذ عن هذه القاعدة ، فقد ارتبطت بصفة أساسية بالكنيسة ومتطلباتها من المباني والرسوم والصلبان والأجراس ، وتأثرت بالأشكال البيزنطية .

وأعظم ما تجلى فيه الفن الكنسي نسخ المخطوطات وزخرفتها ، وهذه ظاهرة شاعت في العالم الإسلامي بالنظر إلى عدم تشجيع الدين الإسلامي رسم الصور للأشياء الحية . وكانت مسابك الحديد والنحاس تقام على مقربة من دير أو كنيسة في قمم الجبال ، وأهم ما كانت تصنعه إلى جانب الصلبان والأجراس ، مطالب الناس اليومية من محاريث وأواني منزلية وأدوات الحرب من رماح وسيوف قصيرة معقوفة .

وفي ما عدا بناء الكنائس والأديرة وزخرفتها لم يحدث في الهضبة الأريترية بين السكان المزارعين المستقرين تطور في العمران بعد زوال مجد اكسوم وحضارة سبأ وحميَر التي شيدت المباني والمسلات العظيمة . ومع ذلك فإن حركة العمران والبناء لم تنقرض ، وربما استعان الأهلون ببعض البنائين من أقباط مصر الذين نزح عدد منهم فراراً من اضطهاد الخلفاء الفاطميين . وتعد كنيسة دبرا لبانوس في محافظة سراي تحفة هندسية في انسجام أجزائها ودقة صنعها وخاصة مدخلها المحفور على الصخر .

أما بناء القلاع فلم يكن مألوفاً ولعل ذرى الجبال ومسالكها الوعرة كانت تشكل عند الملمات ملجأ للأهالي لم تحوجهم إلى بناء القلاع والأسوار .



وقد بنى الأتراك قلعة في دباروا في هضبة الحماسين عندما احتلت قواتهم المنطقة .

ومن الميزات البارزة للمباني في الهضبة الأريترية استعمال الأحجار والأخشاب على شكل طبقات متتالية ، وهو نمط من البناء يعود إلى العهد الاكسومي ، واستعمل في بناء الكنائس في بداية العصر الوسيط ، كما هو الحال في إحدى كنائس أسمرا القديمة . ولا يزال هذا الطراز من المباني شائعاً في الهضبة . والدعامات البارزة أفقياً والتي تشذب وتلوى في انحناءة واسعة تمثل نموذجاً للمباني الاكسومية . أما المباني الشعبية الواسعة الانتشار — هدمو ، أقدو ، تكول ، فقد تحدثنا عنها في موضع آخر .

ويعود استعمال الآلات الموسيقية إلى عهود،قديمة وكلها تصنع محلياً . ويميل سكان الهضبة إلى الطرب والرقص والمرح ويختلقون المناسبات لذلك وخاصة الدينية منها وما أكثرها ، كما أن مواسم الحصاد وانتعاش الزراع تشكل فرصاً للتجمع والغناء . ويتم الحصاد في القرى الأريترية بعمل جماعي وبصفة دورية ، إذ القرية تملك المزارع جماعياً كما سنتحدث عن ذلك في موضع آخر .

وقد تأثر الرقص والغناء بالحياة الدينية وخاصة بعهد التوراة القديم . ومن الأدوات الموسيقية البارزة (كرار) ، وتشكل قيثارته من ستة إلى عشرة أوتار ، وتقابله في العهد التوراتي قيثارة داود التي كانت تسمى (كنور) . وأما (مسانقو) ، وهي آلة ذات قيثارة واحدة ، فتعد محلية صرفة وذات أنغام حزينة جميلة . ولا يخلو حفل من (كبرو) — الطبل — سواء أكانت المناسبة أفراحاً أو أتراحاً .

وتستعمل هذه الأدوات الموسيقية في الأعياد والمناسبات الدينية ، وما أكثر ما يرقص الكهنة بعصيهم الطويلة [1] رقصات ذات إيقاع ثابت ومنظم على دقات الطبول . كما تستعمل كلها في المناسبات العادية لحياة الناس

---

١ — شاهد المؤلف في دمشق جماعة من اهل حوران يشبهون في زيهم ورقصاتهم وادوات طربهم اهل الهضبة الاريترية . ولعل ذلك يعود إلى تأثير المبشرين السوريين الذين أشرنا اليهم في هذا الفصل .

كالزواج . ويحترف في الهضبة عدد من الناس الغناء ، ويسمى (واطاي) ، لكنها مهنة لا تعد عندهم محترمة .

تأثير الفن الاريتري على العرب

عرف أهل اكسوم عند العرب وتردد تجار العرب كثيراً على شواطىء أريتريا وهضبتها ، سعياً وراء تجارة أو فراراً من اضطهاد أو بحثاً عن مرعى . وكان العرب يطلقون على جميع من يأتون من البر الإفريقي المواجه للجزيرة العربية ، أهل الحبشة ، إذ كانت الحبشة أبرز الأمم التي سكنت تلك المنطقة مع تعددها واختلافها ، وقد عرفت عندهم أيضاً بحب الرقص والغناء . ويروي أنه لما قدم جعفر بن ابي طالب من الهجرة في الحبشة ، اختلى به النبي فصار يحجل (بمعنى يرقص) حوالى النبي متأثراً بطباع أهل اكسوم، وقد أقره النبي ولم ينكره عليه .

وكان من أهل اكسوم في مكة من يقوم بصناعة الرقص واللعب بالحراب في الحفلات والأعياد . وروي أن بعضهم لعبوا بحرابهم في المسجد في يوم عيد ، فكان النبي يستعرضهم مع عائشة زوجته وهي متكئة على منكبيه ، وقد (زفنو) — أي رقصوا — بين يديه وكانوا يقولون : محمد عبد صالح بلغتهم الجئزية . فقال الرسول ما يقولون قالوا : يقولون محمد عبد صالح ، فأقرهم عليه وقال بلغتهم (سناه . . . سناه (أي حسن . . . حسن . والكلمة لا تزال تستعمل في الجئز والتجري . وأخذ العرب من اكسوم ومن هضبة أريتريا بعض أنواع الرقص ، كما أفاد الشعر العربي من توقيعات الرقص والغناء الاكسومي القديم . والقنين وهي أداة من أدوات الطرب في العرب مأخوذة من طنبور اكسوم .

ويقول كرسول (Creswell - Enyclopaedia of islam) إن الذي تولى إعادة بناء الكعبة عام ٦٠٨م هو من أكسوم واسمه باكوم أو حباكوك، وأنه استعمل أخشاباً انتزعها من سفينة غارقة . وأقام البناء على طبقة من حجر تليها طبقة من خشب حتى السقف ، وكانت ست عشرة طبقة حجرية وخمس عشرة طبقة خشبية . وكانت نموذجاً للبناء الاكسومي .



الفصل الخامس

تصارع الاقوياء للسيطرة على عدوليس

وصف صاحب البربلوس للشواطئ الاريترية وعدوليس

اشتهرت عدوليس كميناء أسسه بطليموس فيلادلفيوس الثالث ، أحد ملوك البطالمة اليونانيين الذين حكموا مصر بعد أن انقسمت امبراطورية الإسكندر الأكبر اليوناني إلى ثلاثة أقسام ، وذلك في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد . واطلال هذه الميناء قائمة بالقرب من قرية (زولا) على بعد ٦٠ كيلومتراً شمالي مصوع . ولعل القرية أخذت اسمها من الميناء التاريخي الذي يطلق عليه الأهالي (عزولي) . وقد عرفت عند العرب في عصر ما قبل الإسلام باسم (عدولي) كما كانت تطلق لفظة (عدولية) على السفن التي كانت تصنع هناك .

ويبدو ان العرب استعملوا هذا المرسى الطبيعي على خليج زولا بقصد الاتجار مع الشواطىء الإفريقية ، ومرت به موجات المهاجرين إلى هضبة أريتريا والتجراي لتؤسس مملكة اكسوم التي سبق ذكرها . ولهذا لا يستبعد الباحثون أن يكون العرب سبقوا بطليموس في اختيار الميناء . ومهما يكن فإن الميناء اشتهر كميناء بطليموس . كما أن الآثار القديمة تدل على وجود لوحات إغريقية وثقافة يونانية .



وأول ما وصلنا من معلومات مكتوبة عن هذا الثغر التاريخي ، ما كتبه صاحب كتاب خلجان البحر الأريتري (Pryblus Aerithreus) ، وهو البحار اليوناني ساكن الإسكندرية في مصر الذي قام برحلة طويلة حول البحر الأحمر والمحيط الهندي وجمع وثائق ونشرها سنة ٦٠ ميلادية في ٧٥٠٠ كلمة تصف كل مرافىء السواحل الإفريقية إلى ميناء (رابطا) التي يعتقد أنها كانت بالقرب من دار السلام الحالية في تنزانيا .

ويذكر صاحب بربلوس ان عدوليس كانت ذات أهمية تجارية عظيمة ، فكانت ميناء لتصدير أنواع العاج وقرون الكركدن والجلود. وكانت تتوسط المسافة بين تجارة الشرق والغرب ، فكانت السفن الكبيرة القادمة من الهند وخليج فارس وشرق إفريقيا والجزيرة العربية تتبادل سلعاً متنوعة كالقمح والرز والسمسم ونسيج القطن والعسل ، مع السفن القادمة من مصر والجزيرة العربية . وكان التجار يستوردون إليها مختلف آلات الحديد التي كانت تصنع في ميناء (موزا) في البحر الأحمر .

ويمضي المؤلف فيقول إن المدينة كانت ذات حجم متوسط ، وكانت تبعد عن (كولو) وهي مركز داخلي لتجارة العاج مسيرة ثلاثة أيام ، على مقربة من موقع عدي قيح الحالية في اكلي قوزاي . وتوجد على مسيرة خمسة أيام أخرى منها مدينة اكسوم التي تجلب العاج من بلاد تقع خلف النيل . ويضيف أن في عدوليس جالية يونانية كبيرة ، كما فيها جاليات فارسية وعربية وإفريقية ، وإن اللغة اليونانية هي اللغة المكتوبة السائدة .

اكسوم لم تدخل حلبة الصراع حول عدوليس

يقول صاحب البربلوس ان ليس لهذه البلاد — يعني سواحل البحر الأحمر — ملك واحد يخضع له الجميع ، إذ لكل سوق ومدينة على الساحل زعيم . وبعض زعماء هذه السواحل مستقلون ، وبعضهم الآخر يدين بالولاء لدولة حمير في اليمن .

وهذا ما يؤكد عدم صحة الادعاءات الأثيوبية الحالية التي تزعم سيطرة اكسوم على عدوليس — ولو اننا كما بينا سلفاً ان دولة أثيوبيا الحالية ليست



امتداداً لمملكة اكسوم التاريخية التي اندثرت في القرن السابع الميلادي .

ومن الثابت تاريخياً ان الساحل الأريتري كان صلة اتصال بين اكسوم وكثير من الأمم الأخرى ، ولكنه لم يكن تابعاً لأكسوم . فتاريخ هذا الساحل أقدم في الوجود من الدولة الأكسومية ، إذ يرجع تاريخ عدوليس إلى القرن الثالث قبل الميلاد ، بينما لم تبرز اكسوم كدولة إلاّ في القرن الأول الميلادي . وقد كشفت أعمال الحفر التي قامت بها بعثة إيطالية سنة ١٩٠٦ برئاسة باربيني (Paribeni) عن اطلال معبد يوناني في نظامه وفنه . وهذا المعبد يرجع إلى عصر استيطان الجاليات الإغريقية في عدوليس قبل العصر الروماني .

ولا يمنع ذلك سيطرة بعض ملوك اكسوم على عدوليس وتكرار غاراتهم عليها من حين لآخر . فذلك كان يحدث بين كل الأمم المتجاورة . ويذكر ان زوكاليس ملك اكسوم ، غزا عدوليس وهزم ملكها ، وأقام معبداً للإله عشتر وهو أحد آلهة الجنوب العربي أيام حميَر .

واكسوم بطبيعة تكوين شعبها لم تصبح في فترة من فترات تاريخها الذي امتد من القرن الأول إلى القرن السابع الميلادي دولة بحرية . فقد فضلت الأقوام المهاجرة من هضبة جنوب الجزيرة العربية التي أسست مملكة اكسوم، العيش في الهضبة الأريترية وهضبة التجراي المشابهة في اعتدال مناخها وخصوبة تربتها موطنها الأصلي ، وبالتالي لم تستقر تلك الهجرات في الشواطىء الأريترية الحارة الرطبة .

وبهذا لم تدخل اكسوم في حلبة الصراع (الدولي) الذي كان قائماً بين الدول البحرية حينذاك للسيطرة على مداخل البحر الأحمر ، بل انحسر الصراع بين اليونان منذ عهد الإسكندر الأكبر من جهة ، ، وبين الفرس من جهة أخرى ، ثم تحول الصراع بين الرومان والفرس عندما ورث الرومان الأمبراطورية اليونانية في الشرق الأوسط .

وعندما استعان الأمبراطور الروماني جستنيان بجيش اكسوم للانتقام من ذي نواس اليهودي ملك حميَر لتعذيبه نصارى نجران وتعرضه للقوافل



الرومانية في اليمن ، أنجدهم بأسطول روماني من مصر نقل الجيش الأكسومي إلى اليمن . وكانت عدوليس في تلك الأزمنة تخضع لمن كان يسيطر على مصر ، البطالسة اليونانيين أولاً ، ثم الرومان ثانياً .

وكان المؤرخ الروماني المعروف كوزماس اندكويلستوس في عدوليس عندما نقلت الحملة الأكسومية في ١٨ مايو (أيار) ٥٢٤ م إلى اليمن ، وكتب عنها في مؤلفه : التوبوغرافيا المسيحية (Christian Topography) . وأكد إن السفن كانت رومانية قدمت من خليج العقبة وأن ميناء عدوليس كان مزدهراً يزدحم بالسفن القادمة من مصر واليمن وفارس والهند وجزيرة سيلان . وكانت أحجار الزمرد تنقل إليها من الهند . ويسمى ملك اكسوم الذي تزعم الحملة باسم الـ (أصبحة) ويكتبها (Elesbaan) وكذلك (Ella Asbeha) .

وتذكر الإفتراءات الأثيوبية المعاصرة — خلافاً للحقائق التاريخية — ان اسم الملك الذي تزعم غزو اليمن هو (كالب (— غالب — وان أسطوله كان يجوب بحار الدنيا ، وهي فرية نفاها مؤرخ معاصر . ولو كانت سيطرة اكسوم على عدوليس حقيقة تاريخية ، فإن الأريتريين هم أولى من يوضح هذه الحقيقة نظراً لكونها تشكل جزءاً من تراثهم التاريخي .

وكان صراع اكسوم يتركز مع جاراتها من الممالك الصغيرة ، وفي مقدمتها مملكة مروى في السودان التي انتهى أمرها في منتصف القرن الرابع الميلادي على يد عيزانا ملك اكسوم . وكانت أسباب الصراع الرئيسية على ما يذكر المؤرخ البريطاني الكبير ، آرنولد توينبي ، السيطرة على طرق القوافل البرية التي كانت تتوجه صوب عدوليس بإشراف قبائل البجة من مناطق النيل الأوسط حاملة منتجات إفريقيا من عاج وقرون الكركدن وغيرها .

وقد انتهى دور عدوليس التاريخي عندما تمكن الفرس من مد نفوذهم مرة أخرى إلى اليمن بعد أن استرد بني حمير الملك على أيدي ذي يزن وطردوا الأكسوميين ، والأمر الذي مكن الفرس من بسط سيطرتهم على



سواحل عدوليس وجزر دهلك فعوقوا سير التجارة الرومانية وتقلصت اعداد السفن المترددة إلى عدوليس حتى أمست مدينة مهجورة . وانتهى أمرها خراباً يباباً بعد اجتياح قبائل البجة الرعوية التي قدمت من شرق السودان بعد الفتح الإسلامي لمصر في القرن الثامن الميلادي . وتحولت إلى أوكار للقراصنة ، الأمر الذي حمل الدولة الأموية إلى احتلالها مع بقية المناطق الساحلية المجاورة ، كما سنبين ذلك في الفصل الخاص بالصراع في البحر الأحمر .

على ان الموقع الجغرافي الممتاز لهذا الميناء ظل يجعل منه معبراً للغزاة . فقد مرت الحملة البرتغالية التي توغلت إلى هضبة الحبشة لنجدة نجاشييها ضد فتوحات أمير هرر ، الإمام أحمد بن إبراهيم في عام ١٥٤١ ، كما مرت بها حملة اللورد نابير البريطانية التي توغلت أيضاً إلى هضبة الحبشة لنجدة حفنة من الأسرى الأوروبيين على رأسهم القنصل البريطاني كمرون ، وكان أسرهم الأمبراطور تيودروس .

ولا تزال أطلال عدوليس موضع صراع بين أصحابها الشرعيين والأدعياء الأثيوبيين .



الفصل السادس

الصراع فى البحر الاحمر عبر التاريخ

الصراع في البحر الاحمر في العصور القديمة

كان المصريون القدماء هم أول من سافر على البحر الأحمر لحاجتهم إلى شواطىء أريتريا والصومال وجنوب الجزيرة العربية ، وخصوصاً للحصول على البخور والعطور وبعض الأخشاب اللازمة للمعابد وللحياة الدينية . فاتخذوا البحر الأحمر طريقاً لمواصلاتهم مع تلك البلاد . ويذكر التاريخ ان ساحورع – من ملوك الأسرة الخامسة – قد أنشأ مواصلات بحرية مع بلاد « البنت » وجلب منها المر والذهب والفضة . وهذه البلاد كانت على امتداد الشواطىء الأريترية حتى القرن الإفريقي تعرف ببلاد الصومال .

ولقد قامت الملكة حتشبسوت (١٥٢٠ – ١٤٨٤ ق.م) برحلة إلى بلاد البنت كما تبين آثارها في معبد الدير البحري في طيبة .

على ان المصريين القدماء لم يحتكروا طرق التجارة في البحر الأحمر . فقد دخلت حلبة التنافس في عهود متأخرة من الحكم الفرعوني أقوام أخرى . وكان الفينيقيون في مقدمة هؤلاء . فقد أرسل حيرام ملك صور سفنه إلى



البحر الأحمر لتأتي له بالذهب الذي اشتهر في تلك المنطقة . وكان هذا قبل ٢٥٠٠ سنة من رحلة باربورسا البرتغالي في سنة ١٥٠٠ م الذي جاء للغاية نفسها .

ولم يكن جنوب الجزيرة العربية بمنأى عن هذا التنافس بعد أن اقامت حضارته الراقية معاقل لا يصل إليها عدو على جبال اليمن وحضرموت ، وسادت من مكانها ذلك الحصين مخارج ومداخل البحر الأحمر سيادة تامة . ولم يكن لأحد أن يعبر ذلك البحر قبل أن يدفع الجزية كاملة ، كما يشاء السادة المالكون لناحيتي البحر . وقد أشار المؤرخ الإسكندري أقاذسيدس إلى ثراء هذا الشطر من الجزيرة العربية وإلى قوته سنة ١٥٠ ق. م .

وأصدق الشواهد على ثراء بلاد البنت والجنوب العربي وتجارته الواسعة ما جاءنا من سجلات سليمان الحكيم ، وكان يملك أسطولاً من ترشيش مع أسطول حيرام . وكان أسطول ترشيش هذا يأتي مرة كل ثلاثة أعوام ، ويجلب الذهب والفضة والعاج والطواسيس من أوفير ، الأمر الذي جعل الملك سليمان أوسع ملوك الأرض ثراء وشاعت حكمته . وظهرت أصول الثراء الواسع هذا أول ما ظهرت في سبأ التي قامت على شؤونها بلقيس : « أعطت سليمان مائة وعشرين صرة من الذهب ، ومقادير ضخمة عظيمة من البهارات وأخرى من الأحجار النفيسة . ولم يعرف الناس قبلها مقداراً من البهارات كهذا الذي جلبته بلقيس لسليمان » . كان ذلك قبل ثلاثة آلاف سنة .

الصراع بين اليونان والفرس

وأتت بعد ذلك فترة نمت فيها قوة اليونان بعد فتوحات الإسكندر الأكبر . وقد أراد الإسكندر الذهب والفضة ، وان يخضع البحر الأحمر وشواطئه لنفوذه طمعاً في البخور والطيب والحاصلات الأخرى الثمينة . فأرسل بعثات استطلاعية تتسقط المعلومات اللازمة استعداداً لإرسال أسطول كبير يستولي على شواطىء البحر الأحمر بعد أن يتجه من خليج العقبة . وقد هيأ الأسطول وجاء بأجزاء السفن وبالأخشاب اللازمة لبنائها من فينيقيا



وقبرص . غير أن موته المفاجىء ثم تنازع قواده وانقسامهم صرف قواده عن المشروع فأهمل ومات بموته .

على أن خلفاء الإسكندر في مصر لم يهملوا أمر البحر الأحمر ، فأرسلوا بعثات استكشافية عدة لدراسة أحوال البحار والسواحل والشعوب ، لتطبيق ما تتوصل إليه من معارف في مقاصدها العملية التي أرادت تنفيذها في البحر الأحمر والمحيط الهندي . ولعلّ اوضع مصر الجغرافي الممتاز الذي يكون قنطرة بين البحرين – الأحمر والأبيض – وسوقاً تلتقي فيه التجارات الآتية من الشمال ومن الجنوب ، من أوروبا وحوض البحر المتوسط ، ومن السودان وأريتريا والحبشة والصومال وبقية أنحاء إفريقيا ، ثم من جزيرة العرب والهند ، لعلّ لهذا الوضع دخلاً في هذا الاهتمام بالبحر الأحمر وبالمحيط الهندي الذي أظهرته حكومة البطالمة . فقد سبقهم إليه قدماء المصريين ثم الفرس ثم الإسكندر ، فاهتمامهم هذا هو في الواقع استمرار لتنفيذ تلك المقاصد القديمة المذكورة وهي السيطرة على ثروات المنطقة .

وأمر بطليموس الثاني فيلادلفوس (٢٨٥ – ٢٤٦ ق. م) بإعادة حفر القناة القديمة بين النيل والبحر الأحمر ، المشروع الذي بدأ به المصريون في عهد الفراعنة لربط البحرين ، وبتوسيع التجارة مع سواحل إفريقيا وسواحل جزيرة العرب والهند ، وبتكثير الأصناف التي كانت تستورد من المناطق الحارة . وبذلك اتخذت تجارة البلاد العربية وإفريقيا شكلاً لم تعهده من قبل .

ويذكر (ديودورس (أن آخر محاولة جرت لوصل البحر الإحمر بالنيل كانت في أيام بطليموس الثاني فيلادلفوس ، وقد أطلق على القناة التي أمر بشقها اسم قناة بطليموس . وقد شقت في حوالي سنة ٢٦٩ ق. م. وأرسل أرسطون للكشف عن سواحل البحر الأحمر من السويس إلى المحيط الهندي . ثم أسس مستعمرات عدة على سواحل البحر الأحمر لحماية سفنهم وتجارتهم .

وتابع البطالسة الذين خلفوا بطليموس الثاني خطته في التوسع في السواحل الإفريقية ، وفي المحيط الهندي ، وأخذوا يرسلون الرجال المغامرين إلى حلك



المناطق للكشف عنها ، بغية الوقوف على أحوالها والاستفادة بما يحصلون عليه في سياسة التوسع التجاري والسياسي التي وضعوها للبلاد التي تقع في المناطق الحارة .

وقد تصارع البطالمة مع التجار العرب للسيطرة على تجارة شرق إفريقيا والهند ثم انحصرت محاولة التجار اليونانيين البطالمة في توجيه التجارة من الموانىء العربية في اليمن والحجاز إلى سواحل أريتريا ثم مصر . وكان بطليموس الثالث – أورغاطس (٢٤٧ – ٢٢١ ق. م) قد أنشأ عدوليس (٦٠ كيلومتر جنوبي مصوع في أريتريا) كإحدى هذه المحطات التجارية الهامة ، كما كون بطليموس الثاني من قبل اسطولاً قوياً في البحر الأحمر ، قام برحلة منتظمة إلى قبلة انظار البحار (الهند) ، وأناط بموظفين متخصصين حماية السفن التجارية وحراستها حتى لا يتحرش بها لصوص البحار ، فكانوا بمثابة شرطة بحرية .

وقد تأثرت مصالح القوافل العربية في جنوب الجزيرة العربية والحجاز من جراء تدخل البطالمة في أمور البحر ، وبوضعهم اليونان في أماكن متعددة من الساحل لحماية سفنهم ولاتجارهم مباشرة مع موانىء جزيرة العرب وإفريقيا وأشهرها عندئذ عدوليس ومخا وعدن . وقد اضطر التجار العرب إلى ترك البحر للمنافسين الأقوياء،وبالاختصار إلى إرسال تجارتهم في طرق البر نحو بلاد الشام .

على ان ذلك أدى إلى انتعاش عدوليس التي أصبحت في مستهل القرن الأول الميلادي أعظم ميناء تجاري في البحر الأحمر . ويصفها صاحب كتاب « بربلوس أرتريان»بقوله : « اكتظت بمجتمع منظم مزدهر يعيش في مدينة كبيرة ذات مباني جميلة ومعابد وحمامات وشوارع واسعة ، تأتيها السفن من الجزيرة العربية ومن كل صوب في المحيط الهندي ، بالخناجر والرماح والزجاج، وتقلع تحمل العاج وقرون الخرتيت وجلود السلحفاة » .

وقد أحدث دخول اليونان إلى البحر الأحمر احتكاكاً مباشراً بين الثقافة اليونانية والثقافات الشرقية . وقد عثر على كتابات يونانية في مواضع



متعددة من سواحل البحر الأحمر وشرق إفريقيا وخاصة في عدوليس . كما عثر على نقود في مواضع متعددة من هذه السواحل . وانتقلت مؤثرات اليونان الثقافية من عدوليس إلى المملكة أكسوم حتى أصبحت اليونانية لغة الثقافة عندهم لفترة من الوقت ، الأمر الذي جعل ملوك أثيوبيا حالياً يتخذونه ضمن حججهم التاريخية في تملك عدوليس .

دخول الرومان في حابة الصراع

وفي القرن الأول قبل الميلاد قضى الرومان على حكم البطالمة وانتزعوا الحكم منهم . وورث الرومان — وكانوا أقوى أمبراطورية في ذلك العهد — اليونان في البحر الأحمر ، وولوا أنظارهم نحو سواحله ونحو المحيط الهندي، إلى حين انتزاع الخليج من اليونان السلوقيين ، الفرس .

ولما استولى أغسطس على مصر وجعلها تابعة لحكم قياصرة روما أمر بإصلاح ما كان قد فسد بسبب الأوضاع السياسية والاقتصادية السيئة التي حدثت في آخر أيام البطالمة. فعني بالتجارة البحرية وبمياه البحر الأحمر التي غصت بلصوص البحر . وأوعز إلى حاكم مصر أوليوس غالوس بغزو جزيرة العرب وسواحل إفريقيا في البحر الأحمر للاستيلاء عليها وعلى ثروتها العظيمة ،وللقضاء على اللصوص والقرصان وجعل البحر الأحمر — على حد تعبيره — بحراً رومانياً .

وأعدت الحملة ، وعدتها عشرة آلاف جندي جمعوا من مصر ، من المصريين والرومانيين ومن لفيف غيرهم ، وأركبوها السفن من ميناء على الساحل المصري للبحر الأحمر لتتجه بهم إلى ميناء (اويكة كومة) في ساحل الجزيرة العربية ثم تتجه براً إلى اليمن . إلا أن الحملة لم تكن منظمة مدروسة دراسة دقيقة إذ تحطم عدد كبير من سفنها في أثناء محاولة قطعها البحر . ومات الكثير من جنودها في صحراء الجزيرة العربية . وعاد الباقون يجرّون أذيال الخيبة .

على ان الرومان استمروا في سيطرتهم على ميناء عدوليس والموانىء الأخرى الواقعة في الشواطىء الغربية للبحر الأحمر، والتي كانت حمايتها



من هجمات قبائل البجة تكلفهم غالياً .

ويشير المؤرخ الروماني استرابون ان الرومان ظلوا يرسلون السفن إلى الهند عبر البحر الأحمر ، كما عقدوا اتفاقات تجارية مع مملكة أكسوم ، بل كونوا معهم في بعض الأحيان حلفاً ضد جنوب الجزيرة العربية والفرس ، كما سيأتي تفاصيل ذلك في موضع آخر .

ويتحدث مؤلف كتاب (الطواف حول البحر الأريتري) ان الرومان استولوا على ميناء عدن . ويرى بعض الباحثين إن استيلاء الرومان على عدن ، كان عن طريق البحر ، بعض فشل حملة أوليوس غالوس على اليمن في حوالى سنة ٢٤ م .

وقد صار في إمكان السفن الرومانية بعد الاستيلاء على عدن الاستراحة فيها والإقلاع منها إلى الهند وإلى السواحل الإفريقية والعودة إليها قبل أن تتوجه إلى محطتها الثانية أو تأتي منها ، وهي عدوليس في الساحل المقابل في البحر الأحمر . وقد وضع الرومان في عدن كما في عدوليس حامية رومانية لضمان سلامة الرومان في هذه المنطقة ، كما وضعوا سفناً تحمل رماة من الرومان لمقاومة لصوص البحر من التحرش بالسفن . وقد كان أولئك اللصوص يملأون البحار .

وفي كريتر في عدن صهريج كبير لخزن الماء من عهد الميلاد ، ويتسع لزهاء عشرين مليون غالون من الماء ، تأتي إليه من الأمطار ، ويظهر أنه استعمل في ذلك العهد لتموين هذا الميناء المهم بماء الشرب .

الملك اليهودي الحميري ذي نواس
يتحالف مع الفرس ضد اكسوم والرومان

وبدخول المسيحية مملكة أكسوم الحبشية على يد ملكها عيزانا في عام ٣٥٠ م وتحالف هذه المملكة مع الرومان دخلت في البحر الأحمر عناصر جديدة في الصراع .

وقد حدث ان استقرت في اليمن طائفة من اليهود ، بعد أن لجأت إلى



بلاد العرب هرباً من اضطهاد أباطرة الرومان ولا سيماعقب تخريب بيت المقدس عام ٧٠ م ، حيث ذبح منهم مئات وفر عدد كبير منهم إلى حدود العالم القديم . ووجدوا أنفسهم في حماية الفرس — المنافسين الأقوياء للرومان — والذين استنجد بهم بني حميَر ضد الرومان وحلفائهم ملوك أكسوم .

وكانت أكسوم قد عبرت البحر الأحمر ، وهي التي تشكلت بالأساس من النازحين من بني سبأ وحميَر في اليمن ، وغزت اليمن . فيما يذكر بعض المؤرخين غزوها الأولى في عهد الملك عيزانا وبمساعدة السفن الرومانية ، إذ لم تكن أكسوم دولة بحرية ، ولكن الرومان الذين كانوا يسيطرون على ميناء عدوليس ساعدوها في ذلك . وفي نقوش عيزانا ما يؤيد وقوع اليمن تحت حكم أكسوم ، إذ يلقب نفسه ملك أكسوم وحميَر وريدان وسبأ وسلمين وصيدامو وبجه وكاسو .

على ان القرن السادس الميلادي حافل بأخبار أكسوم الحبشية وعلاقتها باليمن وعثر على نقوش قيمة ترجع إلى هذا القرن . واعل أهم ما دونوه من تلك الكتب :

١) كتاب أعمال القديس الحارث (Actadi Aretae) وهو من أقدم النصوص اللاتينية التي قصت لنا الحوادث التي جرت في اليمن وأخبار ملك حميَر وقتله المسيحيين ، وعلى رأسهم الحارث زعيم نجران وتدخل أكسوم وقتلهم للملك اليهودي .

٢) كتاب الحميَريين (كتافاد حميَريا) وهو عبارة عن أوراق قديمة جداً باللغة السريانية كتبت في زمن معاصر تقريباً لشهداء نجران حوالى عام ٥٢٥ م .

٣) ما كتبه المؤرخون الرومان مثل بركيبوس وكوزماس ولامالاس وغيرهم . وهؤلاء عرفوا ما حدث في اليمن في ذلك الحين من قلاقل دينية وعرفوا المعارك الناشبة بين أكسوم واليمن ، وتحدثوا عن تدخل الأمبراطور البيزنطي (الروماني) . فيتحدث كوزماس عما شاهده بنفسه في عدوليس حوالى عام ٥٢٥ م من استعداد السفن الرومانية لنقل الحملة



الأكسومية الحبشية التي قام بها الملك أل أصبحة على بلاد حميَر .
ويرسل الأمبراطور البيزنطي رسوله نونوزوس إلى ملك أكسوم فيكتب تقريراً عن هذه الحملة .

والذي أدى إلى هذه الحملة الأكسومية المدعومة من الرومان — حسب الروايات المتواترة — هو اضطهاد ملك حميَر اليهودي . — ذو نواس — لنصارى نجران وحرقهم أحياء في أخدود حسب ما جاء في القرآن الكريم . على أن الدافع الحقيقي لهذه الحملة الكبيرة لم يكن دينياً إلاّ في ظاهره ، بل كان الصراع بين أقوى الأمبراطوريتين — الرومانية والفارسية — على طرق التجارة الدولية في البحر الأحمر .

فما كاد اليهود يملكون ناصية الحكم في أرض حميَر حتى ظهرت فيهم روح الانتقام من النصارى الرومان العابرين ببضائعهم أرض اليمن وباب المندب إلى عدوليس ومصر ، مما أثار حفيظة الرومان وغضبهم خوفاً على مصالحهم التجارية ، خاصة أنّ الفرس كانوا يدعمون بني حميَر .

وتذكر الكتب العربية قصة تهوّد بعض ملوك حميَر فتقول ، إن ثبان أسعد أبا كرب ،ملك حمير هو أول ملك متهود من ملوكهم . وكان له بطون ثلاثة ، حسن وعمرو وزرعة . ويقال إن زرعة هذا هو ذو نواس ، آخر ملوك حمير الذي حكم في رواية من ٥٢٠ م إلى ٥٣٠ م . وكانت عاصمته ظفار (ريدان) .

والمفهوم ان المسيحية كانت تربط الدول المتنصرة بالدول الرومانية ربطاً قوياً . وبعبارة أخرى كان اعتناق المسيحية سبيلاً إلى بسط النفوذ الروماني . فقد كسبت الدولة الرومانية صداقة أكسوم بعد نجاح المسيحية فيها ، وفشلت بعثة تيوفيلوس الروماني لتنصير اليمن ، لأن الحركات المناوئة كانت عنيفة لم يستطع مقاومتها . فقد كان للفرس فيها صولة وجولة .

ويروى إن دميانوس أو دمنوس ، ملك حميَر اليهودي كان أمر بقتل قافلة أو أكثر من قوافل التجار الرومان الذين كانوا يجتازون مملكته إلى



عدوليس وأكسوم عبر البحر الأحمر . فأوغر ذلك صدر ملك أكسوم « أبدوج » وأمبراطور الروم ، واتفقا على قتالهم وجرّدا على الملك اليهودي حملة انتهت بانهزام دميانوس وقتله ، وولى الرومان والأكسوميون أميراً نصرانياً على حميَر ، لكنه لم يعش طويلاً . فوجد اليهود الفرصة سانحة لإقامة يهودي آخر عليهم ، وكانوا قد استعادوا شيئاً من قوتهم ، فولوا ذا نواس اليهودي ملكاً على حميَر . وكان التجار قد انقطعوا عن طريق اليمن خوفاً على حياتهم ، مما ولد الكساد والركود في حركة التجارة في البحر الأحمر وميناء عدوليس وموانىء مصر .

أبرهة الحبشي يحكم اليمن

اتجه بنو حميَر إلى معاكسة المسيحيين الذين يقيمون بين ظهرانيهم . وكان من أهم معاقل المسيحيين مدينة نجران . فدخلها ذو نواس عنوة ونكل بأهلها ومثل بجثث القتلى . وفي رواية بلغ عدد القتلى عدد عشرين ألفاً ، وفي رواية أخرى ألفين . وهذا ما حفز ملك أكسوم واسمه هذه المرة أل أصبحة ، على القيام بحرب أخرى ضد بلاد اليمن للقضاء على هذا الملك اليهودي الثائر .

على ان بعض المؤرخين ينكرون حدوث حربين ويقولون بحدوث حرب واحدة ، هي التي قادها أل أصبحة .

وقد ذهب دوس ذو ثعلبان — وفي رواية حيان بن فيض — إلى ملك الروم في القسطنطينية واستنصره على ذي نواس . ولم تسمح طول الشقة بأن يتدخل ملك الروم تدخلاً مباشراً ، فبعث مع الرجل العربي توصية إلى ملك أكسوم ، فلبى النجاشي الدعوة ، وأرسل جيشاً بقيادة أرياط (تحريف لتسمية حواريات الحبشية) وأمده بالسفن من مصر ومن خليج إيلات . وكان في الجيش الذي بلغ عشرين ألفاً أبرهة الأشرم . وانتهت المعركة بهزيمة الحميَريين وإلقاء ذي نواس نفسه في البحر وهو راكب فرسه. وحكم أرياط ومن بعده أبرهة اليمن . ثم استقل بملك اليمن في عهد بيت إسرائيل



ملك أكسوم ، ثم عهد ابنه جبر مسقل منذ عام ٥٤٠ م . وكان أبرهة يكتب في بادىء الأمر في نقوشه انه تابع للملك الأكسومي نجيس زابيمن (أي الذي في اليمن) . ويروى أنه بنى كنيسة في صنعاء عرفت باسم (القليس) وهي مشتقة من اللفظة اليونانية (Ekklesia) ومفادها الاجتماع العام أو الكنيسة . وقد أرادها لتكون قبلة للعرب بدل الكعبة في مكة ، وكانت آية هندسية في روعتها وضخامة بنائها .

ويروي المؤرخون العرب ان أبرهة أراد بغزوته المعروفة لمكة في العام المعروف بعام الفيل ، غسل الإهانة التي تعرضت لها الكنيسة في صنعاء من جراء ما صنعه نفيل الجعثمي الوثني من أنه جاء بعذره ، فلطخ بها قبلة كنيسته وجمع جيفاً فألقاها فيها . ويصف الطبري الأمراض التي أهلكت جيش أبرهة على أبواب مكة بقوله « إن أول ما رئيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام » .

والعرب يضعون هذه الغزوة في عام ٥٧٠ م ويسمونه عام الفيل ، والراجح عندهم أنها السنة التي ولد فيها النبي محمد عليه السلام . لكن الباحثين يرجعون تاريخها إلى حوالي ٥٤٠ م .

ويروي بعض المؤرخين ان أبرهة كان آخر من رمم سد مأرب المشهور في اليمن ، وانه كتب نقوشاً على الأحجار باللغة الجعيزية بدأها بقوله : « بحول وقوة ورحمة الرحمن ومسيحه وروح القدس اسطروا هذه الكتابة (أنا أبرهة نائب ملك الجعيزيين رمحز زيمان ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت واعرابها في النجادة وفي تهامة . . . الخ) . والنص بالجعز هو (يخيل وردا ورحمت رحمنن رمحز زبيمن وروح قدس سطروا ذن مزندن . ان أبرة عزلي مللكن أجعزيين رمحز زبيمن ملك سبأ ذ ريدن وحضرموت ويمنن وأعربهم وطودم وتهمت) . وحضر احتفال الترميم وفود من الروم والفرس كما حضر المنذر ملك الحيرة والحارث بن جبلة وأبو كرب بن جبلة . ويشير الدكتور جواد علي في كتابه « المفصل في تاريخ العرب — الجزء الثالث »



إلى الأهمية السياسية لمجيء هذه الوفود ومقاصدها الاستراتيجية في البحر الأحمر فيقول :

« لقد أحدث مجيء مندوب النجاشي (رمحيز زبيمن) ومندوب ملك الروم ومبعوث ملك الفرس ورسل المنذر ملك الحيرة ، والحارث بن جبلة وأبي كرب بن جبلة ، أثراً كبيراً ولا شك في نفوس العرب الجنوبيين ، وفي نفوس الاقيال وقبائلهم . فمجيء هؤلاء إلى اليمن ، وقطعهم المسافات الشاسعة ليس بأمر يسير ، وفيه أهمية سياسية كبيرة . وفيه تقدير لأبرهة ولمكانته في هذه البقعة الخطيرة والمسيطرة على البحر الأحمر وباب المندب وعلى المحيط الهندي .

« ولم يكن مجيء هؤلاء المبعوثين إلى أبرهة لمجرد التهنئة أو التسلية أو المجاملة أو ما شاكل ذلك من كلمات مكتوبة في معجمات السياسة ، ولكن لأمور أخرى أبعد من هذه وأهم ، وهي جر أبرهة إلى هذا المعسكر أو ذلك ، وترجيح كفة على أخرى ، وخنق التجارة في البحر الأحمر أو توسيعها . ومن وراء ذلك إما نكبة تحل بمؤسسات الروم وتجاراتهم ، وإما ربح وافر يصيبهم بما لا يقدر . لقد كان العالم إذ ذاك كما هو الآن ، جبهتين ، جبهة غربية ، وجبهة أخرى شرقية : الروم والفرس . ولكل طبالون ومزمرون من الممالك الصغيرة ، وسادات القبائل يطلبون ويزمرون ويرضون أو يغضبون ويثيبون أو يعاقبون ارضاء للجهة التي هم فيها ، وزلفى إليها وتقرباً . لقد سخّر الروم كل قواهم السياسية للهيمنة على جزيرة العرب ، وإبعادها عن الفرس وعن الميالين إليهم على الأقل . وعمل الفرس من جهتهم على تحطيم كل جهة تميل إلى الروم وتؤيد وجهة نظرهم ، وعلى منع سفنهم من الدخول إلى البحر الهندي والإتجار مع بلاد العرب وإفريقيا . وعمل المعسكران بكل جد وحزم على نشر وسائل الدعاية واكتساب معركة الدعاية والفكر . ومن ذلك التأثير على العقول . فسعى الروم لنشر النصرانية في الجزيرة العربية ، فأرسلوا المبشرين وساعدوهم ، وحرضوا الحبشة على نصرها ونشرها . وسعى الفرس لنشر المذاهب النصرانية المعارضة لمذهب



الروم والحبشة ولتأييد اليهودية أيضاً ، وهي معارضة لسياسة الروم أيضاً . ولم يكن دين الفرس كما نعلم نصرانياً ولا يهودياً ، وإنما هو دين نقيض إلى أصحاب الديانتين . ولم يكن غرض الروم من بث النصرانية أيضاً خالصاً لوجه الله وبريئاً من كل شائبة » ، انتهى .

وانتهى حكم أبرهة حوالى ٥٤٤ م وتولى بعده ولده يكسوم وقد حكم اليمن تسعة عشر عاماً ثم خلفه أخوه مسروق وحكم اثني عشر عاماً . وأخيراً بلغ ضيق حمير بالأحباش مبلغه ووجد الفرس الفرصة سانحة لغزو اليمن في صراعهم مع الفرس من أجل السيطرة على البحر الأحمر وتجارته الرائجة .

ولعب سيف بن ذي يزن دوراً هاماً في دعوة الفرس الذين جاؤوا بثماني سفن ، فقابلهم الملك الأكسومي مسروق بمائة ألف مقاتل — حسب بعض الروايات — وتمكن القائد الفارسي وهرز من قتل مسروق بنشابة وهو على بغلته ، فلما سقط انهزم جيش أكسوم وهرب شريدهم في كل وجه .

واستمر الفرس بعد قتال اليمن في غزو سواحل البحر الأحمر حتى أخضعوا عدوليس وجزر دهلك لسيطرتهم وبنوا فيها الصهاريج التي لا تزال آثارها باقية .

على أن الحكم الفارسي لليمن والتحكم على ممرات البحر الأحمر لم يدم طويلاً ، إذ لم تمض خمسون عاماً حتى اكتسحت الفتوحات العربية بعد ظهور الإسلام في مكة منطقة الشرق الأوسط والأدنى ، واضعة بذلك نهاية الأمبراطورية الفارسية ومنتزعة من الرومان ممتلكاتها في الشرق الأوسط والأدنى امتداداً من فلسطين وسوريا ، مروراً بمصر حتى شمال إفريقيا . وأصبحت الجزيرة العربية كلها بما فيها اليمن تحت هيمنة الدولة العربية الجديدة .

وجاء دور العرب لبسط سلطانهم على البحر الأحمر ومضايقه . وانتهت عدوليس في ما بين ٦٣٠ م إلى ٦٤٠ م إلى خراب من جراء غارات قبائل البجة التي دفعتها الفتوحات العربية إلى النزوح نحو الجنوب من موطنها في أسوان في مصر . وانتهى دورها التجاري كحلقة وصل في البحر الأحمر



بين تجارة أكسوم وبلاد البنت وسواحل إفريقيا الشرقية واليمن والهند وفارس من جهة، ومملكة مروى ومصر والشام والروم من جهة أخرى، بعد أن ازدهرت لنحو تسعة قرون .

الصراع في البحر الاحمر في العصور الوسطى

العرب يسيطرون على البحر الاحمر

بانتشار الإسلام في ربوع الجزيرة العربية وبلاد الشام والرافدين وفارس ومصر وشمال إفريقيا ، سيطر العرب على المداخل الجنوبية والشمالية للبحر الأحمر ، وعلى أهم مواقع التجارة في العالم القديم . ولم يبق خارج السيطرة العربية في حوض البحر الأحمر إلاّ سواحله الإفريقية، وهي في معظمها قاحلة قليلة الموارد والسكان ، إلاّ ما كان يقابل منها سواحل اليمن وهو المعروف الآن بسواحل أريتريا، واشتهر فيه مرفأ عدوليس كمدخل إلى الحبشة وهمزة وصل بين تجارة الشرق والغرب ، وكان حينئذ قد أدركه الدمار بفعل صراعات الروم والفرس في جانب غارات البجة .

وتعود صلة العرب بعد الإسلام بهذا الشاطىء الإفريقي إلى بداية ظهور الإسلام ، وذلك عندما أشار الرسول إلى بعض أصحابه بالهجرة إلى الحبشة (لأن بها ملك لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق) (١) بعد أن تعرضوا لأذى قريش . فخرج في السنة الخامسة من البعثة النبوية من مكة المكرمة في أول الأمر، أحد عشر رجلاً وقيل إثنا عشر، أربعة منهم متزوجون ، معهم نساؤهم ، وعلى رأس هؤلاء الخليفة عثمان بن عفان وزوجته أم كلثوم بنت الرسول ، ووجدوا ساعة جاؤوا سفينتين للتجار حملتاهم لقاء نصف دينار ثم رستا بهم في بلدة (معدر) في الشاطىء الأريتري جنوب عدوليس . ومن ثم ساروا إلى أكسوم حيث أكرم النجاشي وفادتهم . ولم يكن هؤلاء الخمسة عشر إلاّ طليعة الموكب ، إذ تتابع المهاجرون المسلمون الفارون

١ – يختلف المؤرخون في تسمية هذا الملك فمنهم من يسميه اصحمة ومنهم «ال اصحمة» وآخرون « اريحة » ولو ان التسمية الاولى هي المتواترة .



بدينهم إلى الحبشة بعد ذلك ، حتى اكتمل منهم عدد يزيد عن المائة .

وبذلك بدأت صلة العرب بعد الإسلام بالساحل الإفريقي للبحر الأحمر. ولكن سرعان ما تبدلت الأحوال ، ولم يعد اتباع الدين الجديد طريدين يبغون الأمان في بلاد نائية ، وإنما حكاماً يسيطرون على مقاليد الأمور في مناطق شاسعة من العالم .

وكان لاضمحلال نفوذ الدولتين الرومانية والفارسية في البحر الأحمر قد أوجد فراغاً وأعطى فرصة للعابثين بالأمن أن يفسدوا في الأرض ويمارسوا القرصنة ، خاصة أن بقايا سفن وعدد لا بأس به من العاطلين في اطلال عدوليس كانوا لا يزالون يعيشون في حالة « لا حكم لأحد » .

ولتأديب هؤلاء وإخضاعهم ومنعهم من تهديد طرق التجارة في البحر الأحمر أرسل الخليفة عمر بن الخطاب حملة صغيرة مؤلفة من نحو ثلاثمائة نفر على رأسهم عقلمة بن محزر العلقمي – على ما رواه الطبري وابن الأثير– لتأديب هؤلاء ولنشر الإسلام في البر الإفريقي ، لكنهم قتلوا وفشلت الحملة . فجعل عمر على نفسه ألاّ يحمل في البحر أحداً .

على أن الخليفة عمر وافق على اقتراح عمرو بن العاص بحفر قناة تصل بين البحرين الأحمر والأبيض عن طريق وصلها بالنيل بعد أن اعترض عليها ، خشية من أن يتمكن الروم من استخدام هذه القناة في عملياتهم الحربية ضد العرب ، إذ فطن إلى أهمية إعادة وصل البحر الأحمر بالنيل ، خصوصاً لإرسال القمح إلى الحجاز ، فأمر بإعادة حفر القناة القديمة التي عرفت باسم قناة أمير المؤمنين . وأخذت تجارة الشرق تسير عبر البحر الأحمر ومصر ، إلى الإسكندرية ، وإلى الغرب والشام .

وقد استمر القرصان في نشاطهم التخريبي منطلقين من خرائب عدوليس وارخبيل دهلك التي جعلوا منها مأوى لسفنهم ، حتى أنهم شنوا غارة على جدة في عام ٨٤ هـ (٧٠٢ م) وهددوا بتدمير مكة المكرمة . فما كان من الخلفاء الأمويين إلا ان اتخذوا خطوة حاسمة لوضع حد لتلك القرصنة ، بأن جردوا حملة بحرية لاتخاذ مركز بحري على الشاطىء



الغربي للبحر الأحمر ، المقابل لليمن (الشاطىء الأريتري) ، فاحتلت مجموع جزر دهلك المقابلة لمصوع . وكان احتلال العرب المسلمين لهذا المركز الممتاز بداية لاستيلائهم على بقية المراكز البحرية على الشاطىء الإفريقي ، وعلى الانتشار التدريجي للإسلام في شرق إفريقيا .

وفي الفترة الإسلامية الأولى بقيت معظم الشواطىء الغربية للبحر الأحمر تحت سطوة قبائل البجة الرعوية بعد أن دمرت ميناء عدوليس ومحقت مملكة أكسوم بفعل توافد قبائل البجة من جنوب مصر . وقد عقد أحد خلفاء الفاطميين اتفاقية مع مكنون بن عبد العزيز عظيم البجة ، بموجبها اعترف له بالسلطة على مناطق البجة إلى « جزيرة الريح » أو ميناء مصوع الحالية . ويقول اسبنسر ترمنجهام في كتابه « الإسلام في أثيوبيا » : أسست قبائل البجة خمس ممالك مستقلة في غرب وشمال شرق أريتريا . وكانت « باضع » أو « مصوع » ميناء بحرياً له اتصالات تجارية مع سلاطين مصر » . ويقول جسمان جسلو في كتابه غرائب أثيوبيا : « إن مصوع والموانىء القليلة على البحر الأحمر أصبحت إسلامية في وقت مبكر ، وبعد تدمير عدوليس ازدهرت حضارة إسلامية في جزيرة دهلك بالقرب من مصوع في مستهل القرن الثامن » .

وعرفت الشواطىء الغربية للبحر الأحمر لدى المؤرخين العرب بأسماء مختلفة منها « بلاد الطراز الإسلامي » » تطرز الساحل الإفريقي بالدين الإسلامي بينما الدواخل على غيره » كما يقول المسعودي في كتابه « معجم البلدان » . وعرفت أيضاً ببلاد « الزيلع » ، و « بلاد الجبرته » وإليها ينسب المؤرخ المصري المشهور عبد الرحمن الجبرتي .

البحر الاحمر في فترة الحروب الصليبية

وجاءت فترة الحروب الصليبية واستقرار الصليبيين في الشام ، وأرادت أوروبا فعلاً أن تمنع مصر الموارد الأولية اللازمة للحرب ، وأصدر البابا وبعض الحكومات الأوروبية قوانين ومراسيم بمنع توريد هذه الأصناف إلى



مصر ، غير أنه لم يكن في مقدور الطرفين التضحية بالمبالغ الوفيرة التي يربحونها من التجارة ، فتغاضى الكثيرون عن تنفيذ المراسيم البابوية ، وظلت التجارة عبر البحر الأحمر ومصر منتعشة حتى أن رسول فريدريك بربار وسا قد أعلن دهشته عندما رأى النشاط التجاري في الاسكندرية سنة ١١٧٥ م .

ويقول الدكتور جلال يحي في كتابه «البحر الأحمر والاستعمار» إن الهنود والعرب والمصريين كانوا يتعاونون في نقل التجارة المجتمعة في عدن إلى ميناء عيذاب ، حيث يبدأ نقلها بعد ذلك على ظهور الجمال حتى (قوص) ثم يعاد شحنها في النيل حتى دمياط ورشيد ، وكان سلطان مصر يحرم على تجار الغرب الدخول إلى البحر الأحمر خشية تآمرهم مع الأحباش ضد بلاده .

في سنة ٥٧٨ ﻫ طمع البرنس رانودا صاحب الكرك في الشام بالاستيلاء على أراضي الحجاز فأنشأ المراكب ونقل أخشابها على الجمال إلى الساحل ثم ركبها وشحنها بالرجال وآلات القتال وجعلها قسمين : قسماً سار إلى جزيرة قلعة أيلة (سيناء) فمنع أهلها من ورود الماء ، فنالت أهلها شدة ، وضيق عليهم . والقسم الثاني سار نحو عيذاب وأفسد في السواحل ونهب وأخذ ما وجد من المراكب العربية وما فيها من التجار ، وبغتوا الناس في بلادهم على حين غفلة ، لأنهم لم يعهدوا بهذا البحر إفرنجياً لا تاجراً ولا محارباً . وكان في مصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب نائباً عن أخيه صلاح الدين ، فعمر أسطولاً في بحر القلزم (البحر الأحمر) بقيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤة ، وشحنه بالرجال البحريين ذوي التجربة . وساروا إلى أيلة فظفر بمراكب العدو بعدما حرقها وأخذ جندها ، ومن هرب منهم في البرية تبعته العرب وأحضرته إليه. ثم صار نحو عيذاب مقتفياً أثر الباقي من مراكب الصليبيين فوجدهم قد قتلوا أهل عيذاب وأسروهم ونهبوهم . ويقول ابن جبير ان الإفرنج أخذوا سفينة للبجة أتت بالحجاج من جدة وأخذوا في البر قافلة كبيرة أتت من جدة إلى عيذاب وقتلوا الجميع . وأخذوا مركبين



كانا مقبلين بتجار من اليمن وأحرقوا أطعمة كثيرة على ذلك الساحل ، كانت معدة لميرة مكة والمدينة ، وأحرقوا نحو ستة عشر مركباً أخرى ، وقد انتشرت أخبارهم وسلطتهم على شاطىء البحر الأحمر .

ثم ساروا إلى برية الحجاز وتبعهم لؤلؤة فوجدهم قطعوا طريق التجار وشرعوا في القتل والنهب ، وعظم البلاء على الناس وأشرف أهل المدينة المنورة ومكة المكرمة على خطر . وأدركهم في ميناء رافنج (ساحل الحوراء) فأوقع بهم من القتل والأسر ، فلما رأوا العطب وشاهدوا الهلاك خرجوا إلى البر واعتصموا ببعض تلك الشعاب ، فنزل لوأوة من مراكبه إليهم وقاتلهم أشد قتال ، وأخذ خيلاً من عرب البلاد فركبها وقاتلهم فرساناً ورجالة فظفر بهم وقتل أكثرهم .

والرسالة التي كتبتها الملكة (هيلينا) الحبشية تبرر هذه المخاوف . فقد كتبت هذه الملكة في عام (١٥٠٨) رسالة إلى الملك « عمانويل » ملك البرتغال تعرض عليه استعدادها لتجهيز قوات برية كبيرة لتدمير ميناء عيذاب والاستيلاء عليه ، ولكنها تقول انه « ليس لديها أسطول بحري » وإنها تطلب منه مساعدتها بأسطول ينقل جيوشها إلى بيت المقدس في فلسطين لتشارك في « تحريرها من أيدي الكفار » وإعادتها إلى « سلطان الصليب المقدس » . ومهما غُلّفت هذه الدعاوى باللبوس الدينية ، فإن أطماع السيطرة على البحر الأحمر ظاهرة في محتويات الرسالة ، وهي تعكس نزوع ملوك أثيوبيا نحو التوسع في حوض البحر الأحمر .

وبعد نهاية الحرب الصليبية فقدت عيذاب أهميتها التجارية ، خصوصاً بعد تجربة ميناء الطور الذي أصبح مركزاً تسير منه القوافل صوب مصر والشام ، كما أن عدن فقدت هي الأخرى أهميتها السابقة ، وذلك لأن أمير اليمن حاول أن يمنع التجارة من المرور إلى مصر ، وفكر الهنود في مصلحتهم ، فوجدوا أن سلطان مصر يتحكم في نهاية المرحلة ، فبدأوا يستخدمون جدة لتفريغ بضائعهم بعد أن استولى عليها الملك الأشرف « بارسباري » ، وأخذت هذه التجارة تنقل بالقوافل عن طريق مكة والحجاز شمالاً حتى مصر .



أو يعاد نقلها عل سفن حربية حتى الطور .

وكما أسلفنا حصلت مصر والبندقية على مكاسب كبيرة من الاشتغال في التجارة مع الشرق عبر البحر الأحمر ،وكان هذا من أهم الأسباب التي دفعت البرتغاليين إلىمحاولة العثور علىطريق آخر يوصلهم إلى ثروات الشرق، وكانت حركة الاستكشافات الجغرافية قد نشطت ، وتمكن (بارتلوميو دياز) من الوصول إلى رأس الرجاء الصالح ، ثم وصل فاسكودا غاما إلى كلكتا ، وأخيراً وصل كبرال بأسطوله الضخم إلى الهند بعد ثلاثة عشر عاماً من الوصول إلى رأس الرجاء الصالح .

اصطدم البرتغاليون مع المصريين في مياه الهند ، وحاول البرتغاليون قطع التجارة الهندية مع مصر ، وتنبهت كل من مصر والبندقية إلى ذلك الخطر الجديد ، خطر انتزاع التجارة الشرقية منهم ، وتحويلها إلى طريق رأس الرجاء الصالح والمحيط الأطلسي ، وتقدمت البندقية باقتراحاتها لتخفيض الرسوم علىالتجارة التي تمر بمصر، وبحفر قناة تصلالبحر الأحمر بالبحر الأبيض،ومحاولة إقناع أمراء الهند بعدم التعامل مع البرتغاليين حتى لا يضطروا إلى الخضوع لهم في يوم من الأيام ، ولكن البندقية رفضت القيام بدور فعال في هذا الصراع الاقتصادي العالمي ، إذ لم تكن ترغب في ضم البرتغال إلى أعدائها . وفي سنة ١٥٠٨ هزم أسطول مصر الأسطول البرتغالي بقيادة الميدا بالقرب من جزيرة ديو في المحيط الهندي، بعد أن عبر البحر الأحمر ، لكنه هزم في معركة أخرى سنة ١٥٠٩ م .

وتمكن البرتغاليون من الاستيلاء على جاوا في الهند ، لكنهم فشلوا في الاستيلاء على عدن أمام مقاومة اليمنيين ، وأرسل الغوري (سلطان مصر) حملة بحرية إلى اليمن لتقوية المراكز العربية فيها. ولكن هذه الحملة عملت على الاستيلاء على مدن اليمن نفسها ، وبينما هي منهمكة في هذه العمليات وصلت أنباء هزيمة الغوري وقتله واحتلال العثمانيين لسوريا ومصر .

انتهى نشاط مصر ومشاريعها في البحر الأحمر ، وحلت محلها الدولة العثمانية التي استولت على الجزيرة العربية كلها .



وكان البرتغاليون قد سيطروا على موانىء البحر الأحمر الواقعة على الشاطىء الغربي وخليج عدن : سواكن ، مصوع ، زيلع ، بربرة . وقد حوّل الفاريز الذي ترأس البعثة التبشيرية البرتغالية إلى الحبشة ، مسجد مصوع إلى كنيسة في عام ١٥٢٠ . ونزل الجيش البرتغالي الذي جاء لنجدة ملك الحبشة ضد فتوحات الإمام أحمد بن إبراهيم ، أمير هرر ، في ميناء زولا الأريتري ، ومن ثم توغل إلى هضبة الحبشة حيث شارك في هزيمة الإمام .

ورأى العثمانيون في سيطرة البرتغاليين على المراكز الحساسة في طرق التجارة في البحر الأحمر والقريبة من الأماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز خطراً على مصالحهم .

وكان البرتغاليون يعملون من خلال تحالفهم مع الحبشة على تعزيز وجودهم العسكري والتجاري في حوض البحر الأحمر وضمان استمرار تجارة أوروبا مع الشرق عبر رأس الرجاء الصالح وابعادها عن مصر والشام .

وأعد العثمانيون أسطولاً حربياً قاده سنان باشا ونازل البرتغاليين أمام شواطىء مصوع في عام ١٥٥٤ ، وهزم الأسطول البرتغالي الذي كان يقوده دون جوان دي كاسترو. ثم صفوا المواقع البرتغالية على طول امتداد شواطىء البحر الأحمر وبنوا بها القلاع . وفي عام ١٥٥٧ احتل الأتراك العثمانيون ميناء مصوع . وتعاون أهل البلاد مع الأتراك ومع تجار كتلان المنافسين للبرتغاليين والذين كانوا يبنون السفن التجارية في زيلع في بلاد الصومال، وذلك من أجل طرد البرتغاليين الذين اتسم حكمهم بالوحشية والتعصب .

على ان سيطرة البرتغاليين والأمم الأوروبية الأخرى على تجارة الشرق عبر رأس الرجاء الصالح ، أفقد البحر الأحمر أهميته الاقتصادية كممر مائي دولي ، ومن ثم تحولت السيطرة العثمانية إلى سيادة اسمية ، وانحدرت حركة التجارة والعمران في شواطىء البحر الأحمر القاحلة إلى أدنى مستوى خلال القرون الثلاثة التالية حتى انتعشت من جديد بفتح قناة السويس في عام ١٨٦٩ .

وجاءت الحملة الفرنسية إلى مصر في نهاية القرن الثامن عشر بقيادة



نابوليون بونابرت ، وفكرت في وصل مياه البحرين الأحمر والأبيض عن طريق قناة مباشرة بينهما . وكانت فرنسا تسعى إلى ضرب انكلترا في الهند والسيطرة بالتالي على تجارة الشرق الأقصى مع أوروبا. عندئذ عملت بريطانيا على طرد فرنسا من مصر وعلى توكيد سيطرتها على المحيط الهندي والبحر الأحمر عند عدن وبريم اللتين تعتبران المفاتيح الجنوبية للبحر الأحمر . وظل هذا العامل فعالاً في تسيير السياسة البريطانية في مدى قرن ونصف قرن احتكاراً وتحكماً في طرق التجارة العالمية وفي من يعيشون على طول هذا الطريق إن لزم الأمر .

صراع الاستعمار في حوض البحر الاحمر بعد فتح قناة السويس

كان حفر قناة السويس نقطة تحول هامة في تاريخ البحر الأحمر وتاريخ التجارة العالمية وتاريخ الاستعمار . وحاولت كل الدول الاستعمارية — فرنسا ، إيطاليا ، بريطانيا وغيرها — ان تحصل على محطات بحرية على طريق المواصلات الجديد بين الشرق والغرب ، محطات تقوم بتخزين الفحم والمؤن والتموين فيها لسد حاجة سفنها . وتحولت هذه المحطات إلى قواعد هامة ، وكانت هذه المحطات هي عدن الانكيزية ، وأبوخ الفرنسية ، وعصب الإيطالية ، والتي كانت نواة الاستعمار الأوروبي ومراكزه في البحر الأحمر .

سيطرت انكلترا على عدن في عام ١٨٣٩ بعد معركة غير متكافئة مع سكانها ، ورأت فيها قلعة تسيطر على المحيط الهندي ونقطة ارتكاز في طريق الملاحة صوب البحر الأبيض المتوسط ، علاوة على كونها مركزاً هاماً للتوسع في جنوب الجزيرة العربية ، وفي بلاد الصومال ، وفي شرق إفريقيا ، خصوصاً ان انكلترا كان يمكنها من هذه القاعدة أن تتعامل مع رؤساء الحبشة ، وأن تتخذ من بلادهم المرتفعة مكاناً تشرف منه على وادي النيل إن تأزم الأمر . وهذا ما حدث عندما شنت حملتها المشهورة بقيادة لورد نابير الذي



جعل من عدن موقع تموينه ، وزحف عبر ميناء زولا الأريتري إلى هضبة الحبشة وأفرج عن القنصل البريطاني المعتقل بعد أن قتل ملك الحبشة – تيودور – وهزم جيشه في العام الذي فتحت فيه قناة السويس ١٨٦٩ م .

ومن عدن أرسلت انكلترا مبعوثها إلى ملك « شوا » – إحدى مقاطعات الحبشة – الذي عقد اتفاقية معه عام ١٨٤١ ونصت على عدم فرض أي رسوم تزيد على ٥ ٪ من قيمة البضائع الانكليزية التي تدخل الحبشة ، وتعهد فيها ملك شوا بإبقاء طرق التجارة مفتوحة وتسهيل سفر الانكليز في المنطقة .

وفي عام ١٨٨٢ تم لانكلترا السيطرة على ميناء بربرة الصومالي الذي كانت فيه حامية مصرية ، وكان يخضع اسمياً للدولة العثمانية ، وذلك بعد أن أرسلت السلطات البريطانية في عدن ، الميجر هنتر مع خمسين جندياً كحرس شخصي ، واعترضت تركيا على الاحتلال البريطاني ورفض الباشا المصري إجلاء قواته من الحامية ، لكن انكلترا رفضت المطالب التركية ، وأجلت الحامية المصرية من بربرة وزيلع وعملت على تأسيس مستعمرة لها أطلق عليها اسم « الصومال البريطاني » في الجزء المقابل لعدن . ولقد ثار شعب الصومال ضد المغتصب البريطاني بقيادة المجاهد الكبير السيد محمد عبد الله حسن ، وواصل جهاده مدة عشرين عاماً ، أذاقه فيها مرارة الهزيمة أكثر من مرة . ولكن الأمبراطورية البريطانية بالتواطؤ مع الحبشة وإيطاليا تمكنت بعد الحرب العالمية الثانية من وضع قوات كبيرة في هذا الميدان ، مما تسبب في أضعاف المقاومة الأهلية ثم القضاء على قواتها العسكرية .

وكما توسعت انكلترا إقليمياً مستندة إلى عدن ، توسعت فرنسا بدورها ابتداء من أبوخ في الساحل المقابل لعدن لتكون قاعدة عملياتها المقبلة في هذه المنطقة ، فأرسلت إحدى السفن الحربية وأمرتها بالبقاء في هذا الميناء ، وأنزلت في هذه المدينة بعض الجنود كحامية على الساحل ، وكان قائدها يتمتع بسلطات المقيم السياسي ، أي بالسلطات نفسها التي يتمتع بها الممثل البريطاني في عدن . ووقعت الحكومة الفرنسية على اتفاق ، مع إحدى الشركات ، لإقامة مخزن للفحم في أبوخ ، وعملت من ناحية أخرى على



إصدار أوامرها للسفن الفرنسية التي تمر في بوغاز باب المندب ، أن تتزود بالفحم من هذه القاعدة الجديدة .

وقد اعتمدت فرنسا في تلك المنطقة (لاجارد) الذي اختارته لمنصب « قومندان » أبوخ وكان نشيطاً . ولفت هذا الموظف نظر دولته إلى ضرورة الاستيلاء على ذلك الجزء من الساحل الذي يسمح لقيام مستعمرة فرنسية ، وإلى ضرورة الاتصال بالداخل ، ومحاولة الاستفادة من التجارة في بلاد « هرر وشوا » . وكان من الطبيعي أن يتجه نظره في أول الأمر ، عند تاجورة التي تبدأ معها طرق القوافل في الداخل ، فبدأ بالاتصال بالرؤساء على طول الساحل ، لكنه اضطر إلى عدم الذهاب إلى تاجورة قبل أن يخرج المصريون منها ، فأرسل إحدى السفن إلى « رأس علي » وهو الميناء الصيفي لتاجورة في يوم ٢٧ من إبريل ١٨٨٤ ، واستغل الفرنسيون في هذه العملية إبراهيم محمد ، وزير تاجورة الذي صحبه في هذه الرحلة ، والذي لم يكن يرغب في ترك الانكليز يستولون على بلاده بعد خروج المصريين . وطاف الفرنسيون في هذه المنطقة ، واقتربوا من المكان الذي يرفرف عليه العلم المصري ، وأبلغوا شيخ الناحية ان ميناء « رأس علي » قد أصبح ملكاً لهم ، وانهم سيعودون بعد أيام للاستيلاء عليه . وبطبيعة الحال أسرع الموظفون المصريون في هذه الناحية بالاتصال بحكومتهم وطلبوا إرسال إمدادات إليهم

واستغل الفرنسيون المشايخ والرؤساء المحليين ، فعقد لاجارد معاهدة مع سلطان أحمد ، سلطان تاجورة في ١٨٨٤/٩/٢١ ، وأعطت هذه المعاهدة لفرنسا الحماية على الأراضي الممتدة من « رأس علي » حتى « قبة الخراب » وتعهد السلطان بعدم إبرام أي معاهدة أو اتفاقية مع دولة أجنبية بغير موافقة قائد أبوخ الفرنسي ، وتقدم فرنسا بالمقابل مائة ريال للسلطان شهرياً وثمانين ريالاً لوزيره .

وخشيت السلطات البريطانية في القاهرة من وقوع صدام مسلح مع الفرنسيين في تاجورة ، وأشارت بانسحاب المصريين منها ، وأبلغوا ذلك إلى محافظها على أنه أمر صادر من الحكومة الخديوية . ونجح الدناكل في



إخراج الحامية الصغيرة من تاجورة إلى زيلع ، وسيطر السلطان على المدينة وجاء الفرنسيون وأعلنوا ضمها رسمياً وحيوها بإطلاق المدافع .

ولم تمانع انكلترا في إدخال جيبوتي داخل منطقة النفوذ الفرنسي ، إذ أنها كانت مهتمة للتجارة مع داخل القارة أكثر من اهتمامها بالنسبة إلى تموين عدن . وشعرت انكلترا بأن فرنسا تحتاج إليها مثل احتياجها هي إلى زيلع وبربرة . فتبادل السفير الفرنسي في لندن مع وزير الخارجية البريطانية في يومي ٢ و ٨ من فبراير (شباط) سنة ١٨٨٨ خطابين بالاتفاق المبرم من الدولتين ، بخصوص مصالحهما في بلاد الصومال ، ونجحت بذلك كل من فرنسا وانكلترا في الاستناد إلى قواعدهما البحرية للتوسع الاستعماري على طريق الملاحة البحرية عبر البحر الأحمر . وأعلنت جيبوتي عاصمة لما سمي بالصومال الفرنسي . ولا تزال فرنسا تتمسك بهذه المستعمرة في الوقت الذي ولى عهد الاستعمار على العالم ، وذلك حفاظاً على مصالحها الاستراتيجية والاقتصادية ورعاية للمصالح الأثيوبية ، وحيث ترتبط جيبوتي بأديس أبابا بخط سكة حديد ، مضى على إنشائه نحو سبعين عاماً ، ويحمل نحو نصف حركة التجارة الأثيوبية ، على رغم مطالبة الصوماليين المشروعة بالاستقلال الوطني ، مستغلة الخلافات القبلية بين قبائل عيسى وعفر ، حتى أنها غيرت تسمية المنطقة إلى إقليم « عفر وعيسى » .

الخديوية المصرية في اريتريا

عندما قامت الثورة الوهابية وتعرضت للضياع حقوق السيادة العثمانية على الحجاز ، كلف الباب العالي واليه في مصر بإخماد هذه الثورة ، وحين انتصر إبراهيم بن محمد علي ، على الوهابيين عينه السلطان محمود الثاني على باشوية جدة في يوليو (تموز) ١٨٢٠ مكافأة له على خدماته . وعلى ذلك فقد أصبح لمصر حينئذ في ساحل البحر الأحمر الغربي نوع من السيادة ، ولكن هذه السيادة كانت غير مباشرة ، فضلاً عن أنها كانت سيادة اسمية .

وعندما أكرهت حوادث الشام (الحروب السورية) وتدخل الدول



الأوروبية لتسوية المسألة المصرية العثمانية، باشوية مصر على إخلاء شبه جزيرة العرب واستقدام قواتها منها عام ١٨٤٠ ، استعاد الباب العالي نفوذه المباشر على الأقاليم المطلة على البحر الأحمر في شاطئيه الآسيوي والإفريقي ، والتي كانت تحتلها القوات المصرية . وعلى ذلك فقد توطدت سلطة السلطان العثماني من جديد في إقليم الحجاز . واستعادت تركيا عن طريق الوالي العثماني في الحجاز سيادتها المباشرة على سواكن ومصوع على شاطىء البحر الأحمر الغربي .

ولكن سرعان ما عادت الحكومة الخديوية إلى مطالبتها بحقوق السيادة على ساحل البحر الأحمر الغربي . وبعد مساعٍ طويلة لدى الباب العالي وافق الباب العالي في ١٨٦٥/٥/٣ على انتزاع ميناء مصوع من إشراف حكومة جدة ووضعه تحت حكم والي مصر مباشرة . وفي ١٨٦٥/٥/١١ تنازل لمصر عن ميناء سواكن أيضاً . وفي ١٨٦٥/٥/١١ أصدر الباب العالي فرماناً منح باشا مصر قائمقامتي مصوع وسواكن وملحقاتها. وتوجه إسماعيل صادق باشا إلى مصوع لاستلامهما وعين حسن رأفت بك محافظاً لها . وفي ١٨٦٦/٤/٣٠ جرى استلام مصوع وسط احتفال قرىء فيه فرمان التنازل في حضور سلطات ووجهاء المدينة .

وفي مارس ١٨٦٦ ابتاعت الحكومة المصرية من شركة إخوان « باشتري » حقوق ملكية إقليم « عد » لقاء مبلغ ٥٨٣٤ جنيهاً ، وذلك حتى يكون لمصر مطلق التصرف تماماً على ساحل البحر الأحمر الغربي .

وكان الأسطول المصري في البحر الأحمر بقيادة جمالي بك يتألف من ثماني سفن ، وكان لهذا الأسطول محطات مهيأة لاستقباله وتزويده بحاجاته على طول الساحل الإفريقي حتى أقصى نقطة في شرقي خليج عدن .

نزول الطليان في عصب وتأسيس مستعمرة اريتريا

كان المصريون يسيطرون على ساحل البحر الأحمر الغربي ، عندما شرع الطليان يسلكون مسلك الانكليز والفرنسيين ، فابتاعوا عصب في



أواخر عام ١٨٦٩ بواسطة المبشر الأب سابيتو من السلطان إبراهيم .

وأثار نشاط الطليان احتجاجات الحكومة المصرية ضدهم ، وكانت الحكومة الإيطالية تأمل بعد افتتاح قناة السويس للملاحة العالمية أن تؤسس محطة تجارية على ساحل خليج عصب وتساعد على زيادة التجارة الإيطالية بين الشرق والغرب ، عبر البحر الأحمر وقناة السويس . وأبلغ شريف باشا وزير الخارجية المصرية في ٢٧ مايو (أيار) سنة ١٨٧٠ دي مارتينو القنصل الإيطالي أن الخديوي في غاية الألم والدهشة من احتلال الطليان عصب ، وأنه قد أمره بالاحتجاج على هذا التعدّي الواضح على سلامة الأراضي المصرية .

إلى جانب الرغبة الأكيدة من جانب أصحاب رؤوس الأموال الطليان في البحث عن مناطق جديدة لاستثمار أموالهم ، فإن أسباب أمنية كانت تدفع الحكومة الإيطالية إلى البحث عن مستعمرات في ما وراء البحار . فقد كانت الأقاليم الجنوبية من إيطاليا ، وبسبب حكم الكهنة السيىء وعسف أصحاب الأراضي الإقطاعيين مرتعاً لجمعيات قطاع الطرق والمجرمين ، مما حفز ساسة إيطاليا في الستينات من القرن التاسع عشر على محاولة البحث عن مستعمرات في ما وراء البحار حتى يتخذوها منفى لهؤلاء المجرمين . وتفاوضت إيطاليا مع البرتغال ثم مع الدانمارك والبلجيك وغيرها لابتياع بعض الجزر في المحيط الأطلسي والهندي وغيرها ، ولكن لم تحرز نجاحاً يذكر . كما فشلت في الحصول على مستعمرات في شمال إفريقيا .

وعلى ذلك شرع السنيور مانشيني وزير الخارجية الإيطالية في توجيه اهتمامه إلى الساحل الغربي للبحر الأحمر ، وقال حينئذ كلمته المشهورة « مفاتيح البحر الأبيض توجد في البحر الأحمر » .

وقد شجع الأب « جيزبي سابيتو » السنيور « رافايلي روباتينو » مدير شركة « روباتينو » للملاحة — وهي من أكبر شركات الملاحة في إيطاليا حينئذ — على إنشاء نقط ملاحة بين البندقية وموانىء الهند والصين عن طريق قناة السويس والبحر الأحمر ، وأن تنشىء في البحر الأحمر محطة تزويد



الوقود . ووافقت الحكومة الإيطالية على تكليف الأب سابيتو هذه المهمة ، وأرسلت معه الأميرال البحري أكتون لمرافقته في إنجاز المهمة الموكولة إليه .

وفي ١٥ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٨٦٩ عقد المبشر سابيتو مع شيخي قبيلة « عد علي » السلطان حسن بن أحمد ، والسلطان إبراهيم بن أحمد ، اتفاقاً اشترى بمقتضاه منطقة على ساحل البحر الأحمر الغربي بين جبل جانجا ورأس لوما وذلك بمبلغ ١٥٠٠٠ ريال « ماري تريزا »، وذلك لاستخدامها كمكان تحتمي فيه سفن شركة روباتينو وتتزود بالفحم في رحلتها إلى الهند حسب نص الاتفاقية .

وأبرم في مارس (آذار) ١٨٧٠ اتفاقاً آخر مع السلطان عبد الله شحيم ، وكيل سلطان رحيتا في عصب ، والشيخ برهان محمد ، والسلطان حسن بن أحمد ، والسلطان إبراهيم أحمد ، حصل بموجبه على جانجا . وفي اليوم الثالث لتوقيع هذه الاتفاقية (أي في ١٣ مارس ١٨٧٠) رفع سابيتو الراية الإيطالية على هذه المنطقة من ساحل خليج عصب . وبذلك رفرف العلم الإيطالي لأول مرة على شاطيء البحر الأحمر الغربي . وانتهز سابيتو فرصة وجوده في عصب ، فشيد في هذه القرية داراً صغيرة بسيطة من الخشب لاستخدامها بمثابة مكتب لشركة روباتينو .

وعندما علم السلطان أبو بكر إبراهيم ، حاكم زيلع ، بأمر هاتين الاتفاقيتين اللتين عقدهما الإيطاليون « النصارى » مع سلاطين عصب ، احتج على ذلك ، وقال إن هذه المنطقة تابعة للدولة الإسلامية العثمانية . وكان مفهوم السكان بالنسبة إلى تركيا ، بأنها دولة تمثل كل المسلمين ولم يشعروا إزاء احتلالها بالعداء .

وترتب على ازدياد وتغلغل النفوذ الأوروبي في شؤون الإدارة المصرية الداخلية إنشاء نوع من « الوصاية الدولية » على مصر . ووسط الاحتجاجات المصرية استمرت إيطاليا في الاستيلاء على الحاميات المصرية في بيلول وبرعسولي وعد ، حتى توجته باحتلال مصوع في ٥ فبراير (شباط) ١٨٨٥ ، وذلك بتشجيع من بريطانيا التي كانت تخشى بدرجة عظيمة وقوع موانىء



هذا الساحل في قبضة المهديين . وكانت ترى في توسيع إيطاليا رقعة أملاكها على حساب الأراضي المصرية في ساحل البحر الأحمر عاملاً مساعداً لبريطانيا في محاولة القضاء على ثورة المهديين من ناحية ، وكبح جماح الفرنسيين الذين كانوا يريدون بسط نفوذهم في شرق إفريقيا من ناحية أخرى . وجرى الاتصال بين الدولتين عن طريق قنصليهما في القاهرة ـــ السنيور دي مارتينو واللورد كرومر .

واستغرقت عملية نزول القوات الإيطالية في مصوع نحو أربع ساعات (من الثالثة بعد الظهر إلى السابعة مساء) . وقامت القوات الإيطالية على الفور باحتلال المراكز الاستراتيجية في الجزيرة ، ورفع العلم الإيطالي . وصح عزم الجنرال جنى على التخلص من حامية مصوع المصرية وقائدها عزت بك ، بغية احتلال إيطاليا العسكري لهذه المنطقة . فأرغم فعلاً في ديسمبر (كانون الأول) ١٨٨٥ بقايا الحامية المصرية على مغادرة مصوع إلى مصر .

وفي ١٠ أبريل (نيسان) ١٨٨٥ وصلت الباخرة « اسبلوراتوري » إلى أرافلي ، حيث نزل الجنود الإيطاليون على الفور إلى الميناء ورفعوا الراية الإيطالية في قلعة « أرافلي » رغم احتجاج الضابط المصري بخيت عثمان قائد الحامية الذي طرد مع حاميته في اليوم التالي . وزحفت القوات البرية نحو الجنوب من مصوع فاحتلت بالإضافة إلى أرافلي ـــ حرقيقو ، وزولا ، ومعدر ، وعد ، وجزر هواكل .

وفي يوم ٢ يونيو (حزيران) ١٨٨٩ احتلت القوات الإيطالية بقيادة الماجور دي مايو مدينة كرن ، ورفعت عليها العلم الإيطالي . وفي ٣ أغسطس (آب) ١٨٨٩ أيضاً تمكن الماجور « دي مايو » من احتلال أسمرا ، واستولى على « قرع » في ١٧ أغسطس (آب) ١٨٨٩ ، كما احتل أيضاً مساحة كبيرة من إقليم سراي واكلي قوزاي .

وفي أول يناير (كانون الثاني) ١٨٩٠ أصدر الملك همبرت الأول ملك إيطاليا مرسوماً ملكياً بتأسيس مستعمرة أريتريا بعد توحيد الأقاليم



المختلفة على البحر الأحمر والمرتفعات التي احتلها الجيش الإيطالي . وقد عينت الحكومة الإيطالية الجنرال أوريرو ، أول حاكم عام على أريتريا .

وقمعت مقاومة الشعب المتفرقة ، التي استمرت نحو ١٥ عاماً ، بمنتهى القسوة تحت قانون عرفي اشتهر باسم قانون « التهدئة والأمن » . وملأت إيطاليا سجون جزيرة نخرة بالمعتقلين من زعماء الحركة الوطنية الذين مات معظمهم بأمراض الملاريا وسوء التغذية .

أما الموانىء السودانية – سواكن وبورتسودان – فقد وقعت تحت الاحتلال البريطاني بهزيمة المهديين .

وفشلت المحاولات التي بذلها الأمبراطور الأثيوبي المتعصب – يوحنا الرابع – للاستيلاء على مصوع وكرن بعد أن تخلت بريطانيا عن وعدها له بهذه المناطق، نظير اشتراكه في حربها الاستعمارية ضد المهدية في السودان . وقتل يوحنا بأيدي المهديين في معركة « متما » على الحدود السودانية في عام ١٨٨٩ م .



الفصل السابع
ممالك البجه في اريتريا في العصور الوسطى

من هم البجة ؟

البجة تاريخياً هم فرع من فرع الشعوب الحامية الشرقية التي استوطنت منذ اكثر من ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، المنطقة الممتدة من اسوان جنوب مصر ، حتى مشارف الهضبة الاريترية وسهول مصوع بمحاذاة سواحل البحر الاحمر ، وإلى اعماق السودان حتى عطبرة بمحاذاة النيل . وقد جاء اسم البجة في الياذة هوميروس، كما تعرض الذكرهم المؤرخ اليوناني المشهور هيرودوتس ، ولم تخل لوحات المصريين القدماء وكتب الرومان وسجلات عيزانا ملك اكسوم من ذكر اسم البجة، لما تميزت به علاقتهم مع جيرانهم من حروب واتفاقات .

وكانت كوش التي اطلقها المصريون القدماء على الشعوب القاطنة جنوب مصر تشملهم . وقد ذكرها العبرانيون في التوراة على اساس كوش من اولاد حام بن نوح ، كما ذكرتها النقوش الحبشية بصيغة (كاسو) .
والكوشيون من العناصر التي استوطنت الحبشة وهم يتكلمون لغات خاصة، غير سامية، يطلق عليها الباحثون (اللغات الكوشية) او (اللغات



الحامية) .وهم احد العناصر الثلاثة الرئيسية التي تتألف منها شعوب الحبشة.

اما المسعودي فيعرفهم في كتابه (مروج الذهب ومعادن الجوهر) بما يلي :

« البجة قوم نزلوا بين بحر القلزم و (البحر الاحمر) ونيل مصر وتشعبوا فرقاً . وملكوا عليهم ملكاً ، وفي ارضهم معادن الذهب أو معادن الزمرد ... وسكن في تلك الديار خلق من العرب من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، فاشتدّت شوكتهم وتزوجوا البجة ، فقويت البجة بمن صاهرها من ربيعة ، وقويت ربيعة بالبجة على من ناوأها وجاورها من قحطان وغيرهم من معز بن نزار ممن سكن تلك الديار ، وصاحب المعدن في وقتنا هذا – وهو سنة ٣٣٢هـ – ابو مروان بشر بن اسحاق وهو من ربيعة، يركب في ثلاثة آلاف من ربيعة واحلافها من مصر واليمن وثلاثين الف حراب على النجب من البجة بالحجف البجاوية ، وهم الحداربة ، وهم مسلمون من بين سائر البجة ، وباقي البجة كفار يعبدون صنماً لهم ». انتهى .

لماذا تدفقت موجات البجة نحو الجنوب ؟

من الثابت تاريخياً ان شعوب شمال شرقي افريقيا : اريتريا ، اثيوبيا ، الصومال ، كينيا ، تشكلت من الهجرات المتواصلة للشعوب الحامية من جنوب مصر وتزاوجت مع من سبقها من الشعوب الزنجية او لحقها من الشعوب السامية . وقد ظلت الهجرة من الشمال نحو الجنوب مستمرة طيلة آلاف السنين . ويعود ذلك بدرجة اساسية إلى عامل الأمن ثم إلى عامل الاقتصاد .

فمن الاثار القديمة يستدل ان قبائل البجة كانوا يغيرون على وادي النيل وينهبون ويسلبون ويعودون بمغانمهم إلى منازلهم الصحراوية . وكان المصريون يبعثون السرايا إلى تلك الصحراء . وكان سنفرو (Sinfiro) اول ملك مصري اخضع قبائل البجة في عام ٢٧٢٠ ق.م. وعاد من غزواته بسبعة آلاف اسير من النساء والرجال و ٢٠٠،٠٠٠ رأس من الضأن والبقر .



وخلال آلاف السنين كان الفراعنة يستغلون البجة بقسوة في الاشتغال بمناجم الذهب كلما تمكنوا من اخضاعهم .

ويصف المؤرخ الروماني فويسكوس كيف تحالف البجة في عام ٢٧٢ م مع الملكة زنوبيا – ملكة تدمر الشهيرة في سوريا – ضد الرومان وغزوا مصر حتى وصلوا على مقربة من سوهاج ، ولكن القائد الروماني بروس قهرهم واسر عدداً كبيراً منهم . واستمرت الحروب سجالاً بين الرومان والبجة حتى فتح العرب مصر في القرن السابع الميلادي .

وقد تحالف البجة مع الرومان ضد العرب ، فأرسل ملكهم مسمسوح خمسين الف مقاتل استماتوا في قتال العرب . ولكن لم تكن هذه النجدة البجاوية الجنوبية ذات تأثير فعال في تقرير مصير المعركة ، لأن عمرو بن العاص استطاع ان يتغلب على جيش الحلفاء بسبب الامدادات العسكرية التي كان يرسلها اليه الخليفة عمر بن الخطاب ، وبذلك تم له الاستيلاء على مصر . ودخلت مملكة النوبة المسيحية في هذا التحالف ، ولم تكن العلاقة في القرون التي تلت حسنة بين الدولة العربية في مصر ومملكة النوبة والبجة ، بل الحروب والغزوات كان طابعها المميز ، مما أدّى إلى تدفق هجرات جماعية من تلك القبائل الرعوية نحو الجنوب ، فكان أن اكتسحت مدن سواحل البحر الاحمر ، وأبرزها عدوليس ثم توغلت نحو الهضبة الحبشية ، فأتت على مملكة أكسوم واستقرت في النهاية في هضبة اريتريا والحبشة حيث امتصت في اطار التكوين الثقافي السامي .

ممالك البجة في اريتريا

في معرض حديثة عن الغزو البجاوي لاريتريا يقول المؤرخ البريطاني أو لندورف (Ullendorff) في كتابه : الاثيوبيون (The Ethiopians) (صفحة ٥٩) : –

« في القرن الثامن الميلادي غزت قبائل البجة وادي بركة وسفوح الهضبة الاريترية . واخضعت بعض اجزاء اقاليم حماسين والسهول الساحلية ،



في وقت وصلت مملكة اكسوم إلى اقصى درجة الانحطاط . وقد وجدت قبور البجة في قلب الهضبة الاريترية ، مما يدل على التوغل العميق . وتمكن البجة من احتلال شواطىء البحر الاحمر واستقروا في مصوع في حوالى ٧٥٠ م .

« ويصف المؤرخ العربي اليعقوبي الحالة في المناطق التي اكتسحها البجة فيقول : يظهر ان هناك ممالك عدة في المناطق التي سيطر عليها البجة بين النيل والبحر الاحمر ، لكل منها ملك خاص . ويذكر اليعقوبي أسماء بعض الاماكن التي لا تزال قائمة ، مما يبرهن مدى اتساع نفوذ البجة . ونعلم من المؤرخ العربي المسعودي بأن البجة كانوا يستخرجون الذهب من مواقع مجاورة لمصوع .

« ولم تضعف سيطرة البجة على المرتفعات الاريترية ، الا بعد نزوح قبائل أجو (Agao) من (لاستا) في قلب الهضبة الاثيوبية ، وبعد انتقال الملك من اسرة (زاقوي) الاجوية في الحبشة إلى الاسرة (السليمانية) في عام ١٢٧٠ م ، حيث تمكنت قبائل البلين من فرض هيمنتها على الاجزاء التي كانت تخضع لقبائل البجة في المرتفعات الاريترية » انتهى .

عندما زار بن حوقل قبل نحو الف عام أراضي البجة وجدها منقسمة إلى خمس ممالك ، لكل منها حدودها وسلطانها ، وثلاث من هذه الممالك كانت تقع ضمن الحدود الاريترية الحالية ، والاثنتان داخل الحدود السودانية . والثلاث هي : مملكة بقلين ، وهي تقع بين خور بركة وساحل البحر الاحمر المجاور لمملكة جارين ٢) مملكة جارين على السواحل الجنوبية حتى جبل رورا (بقلة) قرب (نقفة) — عاصمة محافظة الساحل ٣) مملكة قطاع ، وتبدأ من نقفة حتى سمهر (مصوع) . اما المملكتان الاخريان ، وهما مملكة ناقص وبازين فكانتا خلف اسوان جنوباً حتى مشارف الحدود الاريترية ، ولو ان المنطقة لم تعرف حواجز الحدود الراهنة التي وضعت في نهاية القرن التاسع عشر بواسطة القوى الاستعمارية الأوروبية.

وذكر اليعقوبي (حوالي عام ٨٩١ م) ان اكبر مدن الممالك تسمى



(هجر) . ولهذه الممالك قبائل وبطون كما تكون للعرب ، فمنهم الحدارب والحباب والامرار والمنسع .. الخ . وفي بلادهم المعادن من التبر والجوهر والزمرد ، وهم مسلمون . والمسلمون يعملون في بلادهم في المعادن .
ويمضي اليعقوبي فيقول : « والمملكة الثانية من ارض البجة يقال لها بقلين ، كثيرة المدن واسعة يضارعون في دينهم المجوس الشنوية، ويسمون الله عزّ وجل (الزبحير الاعلى) ويسمون الشيطان (حجج حراقة) . وهم الذين ينتفون لحاهم ويقلعون ثناياهم ويختتنون وبلادهم بلا مطر . والمملكة الرابعة يقال لها جارين ولهم ملك خطير، وملكهم ما بين بلد يقال له باضع ، وهو على ساحل البحر الاعظم إلى حد (بركة) من مملكة بقلين إلى موضع يقال له الدجاج ، وهم قوم يقلعون ثناياهم . والمملكة الخامسة قطعة او قطاع من باضع إلى فيكون » .

وجاء في موضع آخر من كتاب اليعقوبي ان مدينة هجر ، هي عاصمة البجة الحدارب ، وتقع على مسيرة خمسة وعشرين يوماً من بلدة العلاقي . ويضيف اليعقوبي انها كانت محطة يختلف اليها التجار من المسلمين . وذكر المقريزي ان هجر يسكنها رئيس البجة ، وهي واقعة في اقصى جزيرة البجة .

وحاول المؤرخ الايطالي كونت دي روسيني ان يربط بين اسم هجر هذه مع اباي نجران . ويقول الرحال السويسري متزنجر (Mutzinger) انها على خط عرض ٣٧ و ١٦ شمالاً . واذا قارنا ما جاء عن هذه المدينة من مختلف المصادر ، لوجدنا انها هي مدينة ام حجر الواقعة على نهر سيتيت في اريتريا . ويلاحظ ايضاً ان هناك في الطرف النهائي من الهضبة الشمالية لرورا حباب موقعاً يطلق عليه هجر حتى اليوم .

اما ما ذكره ابن حوقل عن اقليم البجة فيتلخص في أن التجار بالصوف والقطن والحيوان المختلفة انواعه ، كانوا يأتون اليها في طريقهم إلى النيل او إلى البحر الاحمر . ووصف منطقة قعليب ووادي بركة . واشار إلى وجود الحيوانات من الافيال والزراف والسبع والكركدن وسائر الحيوانات



المتوحشة . ويشير إلى أن ماء النيل يجري إلى ارض (دكن) ويزرع عليها الذرة والدخن . وتسكن شق بركة قبائل كثيرة تعرف ببازين وباريه . ويوضح ان دجن قرى متصلة . وفي وسط الوادي تفلين، وهي ايضاً قرى للبادية ولهم ملك مسلم يتكلم بالعربية من قبل صاحب (علوة) المسيحية .

وذكرى الدمشقي (في القرن الثالث عشر الميلادي) ان البجة في بحر القلزم (البحر الاحمر) صنفان : حداربة وملكهم يسكن مدينة هجر ، و الزناجفة وملكهم يسكن مدينة تفلين ، وكلهم ينتفون لحاهم .

ومن هذا العرض لما ورد في مؤلفات اليعقوبي (نهاية القرن التاسع عشر) وابن حوقل (نهاية القرن العاشر الميلادي) والدمشقي (في القرن الثالث عشر الميلادي) يتضح لنا انه رغم ان ابن حوقل قد جاء بمعلومات تفصيلية لها قيمتها واهميتها ، فإن هؤلاء الثلاثة قد اتفقوا على ان لفظ (مدينة) يعني (مملكة) . وان مملكة بقلين التي ذكرها اليعقوبي بوصفها المملكة الثانية هي مدينة تفلين التي ذكرها ابن حوقل الدمشقي . ويحتمل ان هذا الخطأ الذي جعل التاء باء والفاء قافاً مرجعه إلى النقل .

ومما تجدر الاشارة اليه ان ابن حوقل قد اوضح ان ارض دجن ، وهي ارض (خور القاش) كما تعرف حالياً ، كانت قرى متصلة وذات زرع وضرع ، وذكر أنّ في وسط هذا الوادي — أي الجانب الذي يقع بين نهر (الجن) و (خور بركة) — تقع مدينة تفلين وهي ايضاً قرى غير انها للبادية . ويضيف ان لهم ملكاً مسلماً، وفي البلد مسلمون كثيرون ، وهذا يعني ان هذه المنطقة تضم حوض (جن) وسكانه من المشتغلين بالزراعة . وهذا يدل على استقرار حياتهم وعلاقتهم بالارض . اما القسم الثاني فكانت تسكنه مجموعات تعيش في البادية على الرعي وحيواناتهم الأبل والبقر ، وكانت مجموعات (دجن) تربي الخيول الاصيلة .

ولا يفوتنا ان نذكر ان هذه المنطقة في حاجة إلى تحقيق واسع ، وخاصة ان هذا الاقليم قد تعرض لحروب داخلية ، وغزوات قبلية لمجموعات جاءت من الحبشة ومن الشمال ومن الجزيرة العربية ، عبر البحر الاحمر ،



إلى الشاطئ الافريقي ، الذي تقع عليه المنطقة التي نحن بصدد معالجتها .

معاهدة عظيم البجة مع الدولة الاسلامية

ممالك البجة لم تتحد في دولة مركزية واحدة بحكم طبيعة البجة الرعوية، الا ان الرابط القبلي لم ينفصم بصفة تامة . يدل على ذلك العهد الذي أخذه زعيم البجة مكنون بن عبد العزيز على نفسه باسم البجة جميعاً محدداً ارضهم من اسوان إلى مصوع ، وهي الرقعة التي قامت فيها ممالكهم المذكورة .

وتقول الروايات التاريخية العربية انه لما اشتد هجوم البجة على ريف صعيد مصر في اوائل القرن الثالث للهجرة رفع والي أسوان الأمر إلى امير المؤمنين المأمون بن هارون الرشيد. فأمر باخراج عبد الله بن الجهم سنة ٢١٦ ﻫ (٨٣١ م) فكانت له معهم الحروب سجالاً ، ثم تهادنوا وكتبت المعاهدة الثانية مع العرب . وهذا نصها :

(هذا كتاب عبد الله بن الجهم مولى امير المؤمنين صاحب جيش الغزاة ، عامل الامير الى اسحاق ابن امير المؤمنين الرشيد ابقاه الله في شهر ربيع الاول سنة ست عشرة ومائتين لمكنون بن عبد العزيز عظيم البجة بأسوان . انك سألتني استقمت واستقاموا على ما اعطيتني وشرطت لي في كتابي هذا ، وذلك ان يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد اسوان من ارض مصر الى حد ما بين دهلك وباضع (مصوع) ملكاً للمأمون عبد الله بن هارون الرشيد امير المؤمنين اعزه الله تعالى . وانت وجميع أهل بلدك عبيد لامير المؤمنين ، الا انك تكون ملكاً في بلدك ملكاً على ما انت عليه في البجة ، وعلى ان تؤدي اليه الخراج في كل عام ، على ما كان عليه سلف البجة ، وذلك مائة من الابل وثلاثمائة دينار وازنة داخلة في بيت المال والخيار في ذلك لامير المؤمنين ولولاته . وليس لك ان تحرم شيئاً عليك من الخراج ، وعلى ان كل احد منكم ان ذكر محمداً صلى الله عليه وسلم او كتاب الله او دينه بما لا ينبغي ان يذكر به او قتل احداً من المسلمين حراً او عبداً فقد برئت منه الذمة. — ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه



وسلم وذمة امير المؤمنين اعزه الله وذمة جماعة المسلمين وحل دمه كما يحل دم اهل الحرب وذراريهم . وعلى ان احداً منكم ان اعان المحاربين على اهل الاسلام بمال او دله على عورة من عورات المسلمين او آثر لعزتهم فقد نقض ذمة عهده وحل دمه ، على ان احداً منكم ان قتل احد المسلمين عمدا او سهوا او خطأ حراً او عبداً او احداً من اهل الذمة المسلمين او اصاب لأحد من المسلمين او اهل ذمتهم مالا ببلد البجة او ببلاد الاسلام او بلاد النوبة او في شيء من البلدان براً او بحراً فعليه في قتل المسلمعشر ديات ، وفي قتل العبد المسلم عشر تيم ، وفي قتل الذمى عشرديات من دياتهم وفي كل ما اصبتموه للمسلمين واهل الذمة عشر اضعافه . وان دخل احد من المسلمين بلاد البجة تاجراً او مقيماً او مجتازاً او حاجاً ، فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم ولا تأووا احداً من آبقي المسلمين ، فإن اتاكم آت فعليكم ان تردوه الى المسلمين ، وعلى ان تردوا اموال المسلمين اذا صارت في بلادكم موؤنة تلزم في ذلك ، وعلى انكم ان نزلتم ريف صعيد مصر لتجارة او مجتازين لا تظهروا سلاحاً ولا تدخلوا المدن والقرى بحال ولا تمنعوا أحداً من المسلمين الدخول في بلادكم والتجارة فيها براً وبحراً . ولا تخيفوا السبيل ولا تقطعوا الطريق على أحد من المسلمين ولا أهل الذمّة ولا تسرقوا المسلم ولا الذمى مالاً ، وعليكم ألا تهدموا شيئاً من المساجد التي بناها المسلمون بـ (صبحة) و (هجر) وسائر بلادكم طولاً وعرضاً ، فإن فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة ، وعلى أن مكنون بن عبد العزيز يقيم في ريف صعيد مصر وكيلاً في المسلمين بما يشرط لهم من دفع الخراج ورد ما أصابه البجة للمسلمين من دم أو مال . وعلى احد من البجة ان لا يعترض حد القصر الى قرية يقال لها (قبان) من بلد النوبة حد الاعمدة . عقد عبد الله بن الجهم مولى امير المؤمنين لمكنون بن عبد العزيز كبير البجة الامان على ما سمينا وشرطنا في كتابنا هذا ، وعلى ان يوافي به امير المؤمنين . فإن زاغ مكنون أو عاث فلا عهد له ولاذمّة . وعلى مكنون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد البجة لقبض صدقات



من أسلم من البجة . وعلى مكنون الوفاء بما شرط لعبد الله بن الجهم ، وأخذ بذلك عهد الله عليه بأعظم ما أخذ على خلفه من الوفاء والميثاق . ولمكنون بن عبد العزيز ولجميع البجة عهد الله وميثاق أمير المؤمنين وذمة الامير ابي اسحاق ابن امير المؤمنين الرشيد وذمة عبد الله بن الجهم وذمة المسلمين بالوفاء بما اعطاه عبد الله بن الجهم ما وفى مكنون بن عبد العزيز بجميع ما شرط عليه . فإن غير مكنون او بدل احد من البجة فذمة الله جل اسمه وذمة امير المؤمنين وذمة الامير ابي اسحاق ابن امير المؤمنين الرشيد وذمة عبد الله بن الجهم وذمة المسلمين بريئة منهم . وترجم جميع ما في هذا الكتاب حرفاً فحرفاً ذكريا بن صالح المخزومي من سكان جدة وعبد الله بن اسماعيل القرشي . ثم نسقه جماعة من شهود اسوان) انتهى .

عمل البجة بموجب هذه المعاهدة خمسة عشر عاماً ، ثم تغلبت عليهم عدة عوامل اهمها العامل الاقتصادي ، فقد بدأ ملك البجة بطرد العرب من جميع المناجم والمدن ومنع دفع الخراج . والظاهر ان المعاهدة كانت لمصلحة العرب ، وجعلت البجة عبيداً لغيرهم يستغلون في حفر المناجم ويدفعون الضرائب عن اموالهم مرغمين . وكانت مواقع المناجم في معظمها في شمال ارتيريا في المناطق المعروفة بجبال هجر ، وتمتد إلى مناطق اركويت في شرق السودان وتسكن جبال هجر (بيت عوض بني عامر) واليه لجأت قبيلة بيت معلا لما اشتدت عليها وطأة هجوم ابناء هاسري . وفي هذه الجبال قضوا على بيت معلا وحصروا شوكتهم . وكان البجة — حسب العرف المتفق عليه — يأخذون نصف المحصول ممن يعملون في المعادن من العرب ، ويدفعون منه للسلطان سنوياً الاربعمائة مثقال تبر قبل ان يصفى .

استئناف الحرب بين البجة والدولة العباسية

جاء في تاريخ الطبري ان البجة خرجوا من بلادهم إلى معادن الذهب والجواهر فقتلوا عدة من المسلمين ، ممن كان يعمل في المعادن ويستخرج الذهب والجواهر ، وسبوا عدة من ذراريهم ونسائهم . وذكروا ان المعادن



لهم في بلادهم ، وانهم لا يأذنون للمسلمين في دخولها ، وان ذلك ادهش جميع من كان يعمل في المعادن من المسلمين . فانصرف المسلمون عنها خوفاً على أنفسهم وذراريهم فانقطع بذلك ما كان يؤخذ للسلطان بحق الخمس من الذهب والفضة . فقرر الخليفة العباسي المتوكل – محاربة البجة فولى احد رجاله وهو محمد بن عبد الله المعروف بالقمي (من مدينة القم الفارسية) ، وولاه معادن تلك البلاد . وكتب إلى عنبسة بن اسحاق العنبي العامل على حرب مصر باعطائه جميع ما يحتاج اليه من الجند ، فخرج عنبسة إلى ارض البجة وانضم اليه جميع من كان يعمل في المعادن وقوم كثير من المتطوعة، فكانت عدة من معه نحواً من عشرين الفاً بين فارس وراجل . وارسل عن طريق القلزم (البحر الاحمر) سبعة مراكب مملوءة بالدقيق والزيت والتمر والسويق والشعير ، وأمر رؤساء السفن ان يوافوه بها في ساحل البحر من ارض البجة. وسار القمي حتى جاوز معادن الذهب، فخرج اليه ملك البجة (علي بابا) او (الباب) وابنه الامير (فيعس) في جيش كبير . وكانت البجة على ابلهم بالحراب . فجعلوا يتقاتلون أياماً متوالية، فيتناوشون ولا يصدقون المحاربة . وجعل ملك البجة قتاله شبه مهادنة ، لكي تطول الايام طمعاً في نفاد الزاد والعلوفة التي معهم ، فلا تكون لهم قوة ويموتون هزالاً فتأخذهم البجة بالايدي . فنفدت الأزواد ولكن المراكب قد وصلت إلى ميناء يسمى (صنجة) – يرجح موقعها بين سواكن ومصوع – فحمل جيش الملك علي بابا على الامير القمي ورجاله واستمرت الحرب سجالاً حتى اقترح رجال القمى ان يستعملوا الاجراس وسلاسل الحديد في اعناق خيلهم ويهجموا بها على الجمال التي اشتد رعبها ونفورها من الضوضاء ، ففرت بأصحابها إلى الجبال والاودية حتى ادركهم الليل ، وذلك في اول سنة ٢٤١ هـ ، وبعد ايام جاءه مندوب الملك طالباً الهدنة . وكان القمي قد غنم تاج الملك فأعطاه الامان ورد اليه بلاده التي احتلها على ان يؤدي ما عليه من المتأخرات الخراج . وعاد القمي ومعه الملك علي بابا إلى الخليفة المتوكل في مدينة (سرّ من رأى) بالعراق بعد ان استخلف



ابنه (فيعس) على مملكته . وخلع عليه المتوكل حللاً من الحرير واعترف له بالسيطرة التامة على طريق ما بين مصر ومكة المكرمة ، وانتدب عليهم سعد الأتياخي ، ووضع المتوكل على رأس علي بابا عمامة سوداء (شعار بني العباس) بدلاً من التاج . وكان معه في رحلته هذه سبعون شاباً بحرابهم وزيهم الذي كان يمثل الفتوة البجاوية. فكانت انظار العامة والخاصة ملتفة اليهم وهم في باب الخليفة . ورجع علي بابا وهو على دينه ، وكان معه صنم من حجارة كهيئة صبي يسجد له .

والمعروف ان البجة ظلوا على وثنيتهم حتى عهود متأخرة . فقد قاوموا المسيحية في حين اعتنقتها جاراتهم من ممالك النوبة ومروى والحبشة ، كما قاوموا الاسلام حتى اعتنقوه خلال قرون عديدة وبانتشار بطيء امتد إلى مستهل القرن الخامس عشر الميلادي .

سيادة قبيلة بلو على البجة

كان الملك علي بابا من قبيلة (بلي) التي يقال لها بالبجاوية (بلويب) وبالتجري (بلو) . وهذه القبيلة كانت لها السيادة على البجة لفترة طويلة . وجاء ذكرها كرديف للبجة في بعض الكتب والخرائط القديمة .

وتدعي قبيلة البلو نسبتها إلى العباسيين ، ولكن الكتب التاريخية العربية ما قبل الاسلام . ويقول القلنشدي في كتابه (صبح الاعشى) ان قبيلة (بلي) — بفتح الباء وكسر اللام وياء مشددة بالفتح — هم بني بلي بن الحافي بن قضاعة بن حمير ، وكان قضاعة ملكاً لبلاد الشحر في اليمن والنسبة اليهم باوي .

ويقول جورجي زيدان ان بلي وجهينة هما القسم الغربي من بطون قضاعة اجتازوا البحر الاحمر وسكنوا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة حيث كثروا هناك . ولما زال ملكهم على يد قبائل البشاريين والامارار والهدندوة والبني عامر أنشأوا مملكة في مصوع في ساحل اريتريا سنة ٩٦٥ ﻫ (١٥٥٧ م) . وقال ابن خلدون : » انهم اجتازوا إلى العدوة الغربية من



البحر الاحمر ، وانتشروا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة وكثروا هناك على سائر الامم ، وغلبوا على بلاد النوبة وفرقوا كلمتهم وأزالوا ملكهم وحاربوا الحبشة فأزهقوهم وضايقوا المصريين » . والواقع ان عدداً كبيراً من سكان المرتفعات الارتيرية وهضبة الحبشة يدعون نسبتهم الى قبائل (بلو كلو – تلو) وربما كان الاسمان الأخيران يطلقان على فخيذتين من فخائد قبائل البلو . وتقول الاساطير المحلية أن هذه الاسماء لأخوة ينتسبون اليهم . وتقول المصادر المحلية ان قبائل البلو هي التي تولت قيادة الزحف البجاوي نحو هضبة اثيوبيا في القرن الثامن الميلادي . ويقول الاستاذ محمد صالح ضرار في كتابه ، تاريخ السودان – البحر الاحمر – اقليم البجة – ان قبائل البلو هي اول من نقل اللغة العربية إلى افريقيا ، حتى اذا ضاعت عروبتهم اللغوية بمرور الزمن ، اتخذوا البجاوية لساناً لهم . ويقول شقير بك في تاريخه ، اذا اردت ان تسأل البجاوي عن معرفته بالعربية فيجب ان تنسبها (بلي) فتقول له (بلويت تكتينا) (هل تعرف لغة بلي) ؟ أي اللغة العربية .

وقد اشتهر في العصور الوسطى عدد من امراء البجة وملوكهم منهم بشر بن مروان بن اسحاق، وهو من قبيلة البلو وامه من ربيعة ، وبسط أمراء هذا البيت نفوذهم على ممالك البجة حتى تخوم الحبشة ومصر ، ولو ان تقليدهم الملك كان يتم من قبل مصر شكلياً . وكان يلقب أمير البجة (الحدربي) وهو الاسم الآخر للبلو . وكان يكتب له في الابواب السلطانية المصرية حتى اوائل القرن التاسع الهجري بالعنوان التالي (المجلس السامي الاميري الحدربي) .

وقال القلقشندي في صبح الاعشى إنّ الأمير سمرة بن مالك كان حاكماً للبجة في أيام دولة الناصر قلاوون في مصر ، وكان أميراً جليلاً ذا عدد جم وشوكة ملكية يغزو الحبشة وأمم السودان .

أصول مملكة الدجن وحدودها

عرف الاقليم الغربي من ارتيريا في العصور الوسطى باسم (الدجن).



وشمل هذا الاقليم منطقة الظهير لساحل البحر الاحمر وحوض القاش . ولا يعلم مصدر هذا اللفظ على وجه اليقين ، ويعتقد بعض المؤرخين انه كان اسماً لمجموعات السكان التي كانت تسكن وادي هذا النهر ، وذلك بدليل ان الجماعات التي هاجرت منه إلى الغرب قد احتفظت بهذا الاسم بصورته الاصلية في منطقة مالي ونيجيريا ، حيث يعتقد نزوح هجرات واسعة من المنطقة تحت ضغط الحروب . وهناك من يقول على ان اللفظ يطلق على الحجر الذي يوضع عليه القدر لطهو الطعام ، ويقول آخرون انه يرجع الى (دخن) ، ومعناه التل باللغة الكوشية القديمة . ولا تستبعد صحة الاحتمال الأخير ، اذ ان هذه اللفظة لا تزال تطلق محلياً على قرية (حرقيقو) بالقرب من مصوع بقليل من التحريف (دخنو) ، وتعيدها الروايات المحلية إلى لهجة الساهو ، وهي احدى اللهجات المنتمية إلى المجموعة الكوشية — الحامية ، حيث كانت قبيلة (اده) وهي فرع من القبائل الحامية التي سيطرت على مناطق الشاطىء الاريتري في العصور الوسطى بعد الاكتساح التاريخي لقبائل البجة لسهول اريتريا وهضبة الحبشة منذ عام ٧٥٠ م .

وقد ورد هذا الاسم في صورة (دكن) باستخدام الكاف بدلاً من الجيم ، وذلك في نقوش عيزانا ملك اكسوم ، التي كتبها حوالى منتصف القرن الرابع الميلادي ، قبل اعتناقه المسيحية . وتقول هذه النقوش كما ترجمها ليتمان: (ان الملك عيزانا قد ارسل في محاربة ساران ملك أفانا ثلاثة جيوش ، منها جيش (الدكن) ، وذلك لتأديب ملك أفانا لاعتدائه على قافلة تجارية وقتل رجالها وسلب بضائعهم . واستناداً إلى النقش الاكسومي تكون (دكن) مملكة مجاورة لاكسوم في احدى مقاطعات ارتيريا تحالفت مع ملك اكسوم ضد عدو مشترك .

وقد اقامت في منطقة حوض القاش مدناً وعمراناً ، وكان النهر يعرف في قسمه الاعلى بنهر (مأرب) عند منبعه من هضبة تجراي. والمرتفعات الجنوبية الارتيرية دلالة على العلاقات التاريخية بين المنطقة وسكانها ذوي الاصول السامية النازحين من اليمن حيث تعود التسمية إلى وادي مأرب



باليمن وسده المشهور . وعرف قسمه الاسفل باسم نهر (الدجن) . ويطلق في الوقت الحاضر على القسم الاخير (حوض القاش) . ومياه هذا النهر موسمية لمدة تقرب من الثلاثة أشهر سنوياً ، حيث تصل مياه الفيضان إلى بلدة كسلا في السودان في يوليو (تموز) .

وكانت المنطقة التي تسيطر عليها زعامة القاش ، تبدأ من الجنوب من مدخل نهر سيتيت مشتملة على جانب كبير من ارتيريا الغربية والشرقية . وايس من اليسير لعدم وجود مصادر اصيلة ان نتبين في صورة واضحة الحدود الشرقية والغربية لهذا الاقليم . والواقع الذي نستخلصه من مجريات الحوادث في هذه المنطقة ، في العصر الاسلامي ، انها كانت تتعرض لغارات مستمرة بسبب الزحف القبلي الذي كان يدفع القبائل من الحبشة وارتيريا نحو حوض وادي النيل الاوسط كما سيأتي تفاصيل ذلك .

واشتمل الاقليم على منطقتين مختلفتين، تضم الاولى حوض الدجن ، وتشمل الاخرى منطقة شبه صحراوية في الشرق من حوض النهر حتى سواحل البحر الاحمر ، وكانت تستخدم للرعي حين المطر ، كما هو الحال الآن . والواضح ان هذا الحوض من ناحية بيئته الطبيعية والبشرية قد تعرض لتطورات متتابعة ، منها ما هو بعيد في القدم ، كتحركات القشرة الارضية وما جاء بعد ذلك من التغييرات في الظروف المناخية. ويعتقد أن هذا النهر كان في ما مضى (أي منذ عهد حديث نسبياً) يكوّن رافدا من روافد نهر عطبرة ، وان الصلة بينهما قد انقطعت بسبب ان هذا النهر ، كانت مياهه تجري في موسم معين من كل عام ، فتعرض المجرى الذي يربط بينهما لعامليات الارساب التي كانت تقوم بها الرياح الموسمية . كما تعرضت المنطقة لتغيرات في بيئتها البشرية . فقد كان سكان حوض القاش الاصليون من سلالات نيلية استوطنت المنطقة منذ اكثر من خمسة آلاف سنة ، الى ان طرأ عنصر البجة الرحل ، فكان ان دفعوا بالسكان النيليين نحو الجبال الأقل خصوبة، بينما سيطروا على السهول واستوطنوها . ويرجح أن تنتمي قبائل الباريا والبازا الحالية بصلة إلى اولئك القوم الاوائل . وتذكر لوحة



عيزانا ملك أكسوم في القرن الرابع الميلادي ، والتي عثر عليها العالم الاثري انولتام ، قبائل الباريا والبجة وهاسا ومقرتو ضمن الشعوب التي هب ليدافع عنها ضد عدوان مملكة النوبة . كما يذكر انه بعد انتصاره اقام عرشه قبالة مدينة (الحجر) عند ملتقى نهري تكزي وسيرا . ويرجح المؤرخون انها نفس (مدينة ام حجر) الاريترية الواقعة على (نهر سيتيت) مما يدل على قدم العمران في المنطقة منذ عهد بعيد .

وبالرجوع إلى ما كتبه ابن حوقل عن (دجن) ومقارنته مع ما جاء في كتاب اليعقوبي، نجد ان ابن حوقل قد أيد الكثير مما أورده اليعقوبي، ومن بين الاختلافات قد ذكر ابن حوقل (تفلين) بدلاً من (بقلين) وهي الواقعة قرب حوض (خور بركة) . ويبدو ان حوض (دجن) الذي ذكره ابن حوقل في تفصيل ودقة قد اعتبره اليعقوبي جزءاً من (بقلين) او (تفلين) . ولم يشر ابن حوقل إلى ممالك (جارين) و (قطعة) و (نتيس) . ويبدو ان هذه الممالك كلها او بعضها لم يكتب لها البقاء طويلاً ، او اختفى او اندمج في مجموعة قبلية اشد قوة وبأساً .

ويتضح ايضاً مما ذكره ابن حوقل ان دجن او دقن وتفلين ، قد كونا شقين لمنطقة واحدة تحت امرة ملك مسلم ، من قبل صاحب علوة المسيحي في السودان . ويتضح ايضاً ان هذين الشقين : حوض دجن ، للزراعة وتربية الخيل ، وتفلين للرعي حين المطر . وهكذا يكشف التقسيمات الاجتماعية ، فقد اختص اهل حوض دجن بالزراعة واختص المنتجعون إلى تفلين في وقت المطر بالرعي . وهذا يدلّ على أن الزعامة كانت في يد أهل البادية ، بالنظر إلى تفوقهم الحربي واستعمالهم الخيول . وكان سكان حوض دجن في مستوى الموالي . وهذه التقسيمات الاجتماعية هي التي اتبعتها في ما بعد قبيلة البني عامر ، غير ان نظام الموالي قد أخذ طريقه إلى الزوال . وعرف سكان الاقليم الاسفل من حوض الدجن بالمتاتية كما ذكره بلبني . والجدير بالذكر ان منطقة حوض الدجن (القاش حاليا) تشتمل على معالم تاريخية ولغوية لم تجر دراستها بعد . وربما تدل بعضها على امتداد حضارة



مروى اليها كما يشير الى ذلك الدكتور نعوم شقير . أما بالنسبة الى نظام الحكم فيبين ابن حوقل انه قد تكونت من البيت الماللك في حوض الدجن سلطنة وراثية ، واستطاعت هذه الاسرة ان تتكيف مع مجريات الحوادث . فنجدها في زمن واسعة الحدود والسلطان ، وفي زمن آخر تختفي من الميدان تحت ضغط قوي أقدر منها .

ما ورد في كتاب صورة الارض لأبن حوقل عن ممالك حوض دجن

بعد غزوة القمي من قبل الخليفة العباسي المتوكل ، ضعف سلطان مملكة العلاقي واتجهت هجراتهم نحو الجنوب إلى وادي بركة . ويقول ابن حوقل في كتابه (صورة الارض) صفحة ٥٠ وما بعدها :

« بعد سنة ٢٤٥ هـ ضبطت البجة أطرافها بالاسلام في بعضها بعضاً وبلدهم بين النيل والبحر . ويصل اليهم التجار بالصوف والقطن والحيوان بين الرقيق والأبل ، فيكون غاية ما يقطعونه من بلدهم ويمكنهم التصرف فيه نواحي (تعاليب) وهي مواضع ذوات مياه في اودية متصلة بجبل يعرف بملاحيب واكبر اوديته (وادي بركة) وبين تعاليب وبركة غياض عادية ذوات اشجار . وربما كان دائرة الشجرة من اربعين ذراعاً إلى خمسين ذراعاً وستين ذراعاً . وافنيتها مواقع الافلية والزرافات والسبع والكركدن والنمر والفهد إلى سائر الوحوش سائمة راتعة في غيلها ومياهها وغياضها . ويتصل بحد ملاحيب من شقه الشرقي واد يعرف بصيعوات كثير الماء ايضا والشجر والحمر الوحش) .

« وبنواحي بركة بطون كديم ، وهي المعروفة بعجات من البجة ، ويتصل بها مما يلي سواحل البحر (الجاسة) بطون كثيرة في السهل والجبل. وكان هذا الجبل اخذ بأوديته من نواحي البحر المالح إلى (دكن) — تحريف للفظة (دجن) كما بيناه اعلاه — وهي ارض مزارع يجري اليها ماء النيل (١)

---

١ — المقصود بالنيل هنا هو نهر القاش .



ويزرع عليها الذرة والدخن اهل النوبة ومن يحضر معهم من البجة . وفي شق بركة قبائل كثيرة تعرف ببازين وبارية (١) . وهم امم كثيرة قتالهم بالنفس والسهام المسمومة والحراب . ومن رسم بارية قطع ثناياها وبحر اذانها . ويسكنون في جبال واودية ويقتنون البقر والشاة ويزرعون . والذي بين وادي بركة وجبلها المدعو (ملاحيب) راجعاً إلى الاسلام قلعيب وانبوريت وجبال درووريت ومياه متصلة وبلدان عامرة ، وليوانيكه من قبائل البجة تزيد على الاحصاء ولا يبلغ عددها لتوغلهم في اعماق الصحاري. وبركة تقارب جزيرة باضع — مصوع الحالية — وتسمية باضع بالضاد المعجمة بجاوية قديمة . وتكون ثلثي مراحل مملوءة ببطون قعصة وهي اجل بطون البجة الداخلة واكثرها مالاً واعزها ، ومن دون هؤلاء الماتين المتصلين بدهرا وسيتراب وغركاي دحنت إلى الجبل المعروف بمسمار .

« وتحازي سواكن بطون تعرف برقبات (٢) وهنديبا ، وهم خضراء الحد ربية ، وخفارتهم لعبدك وهم تحت يده ، وعبدك خال ولد أبي بكر اسحق بن بشر صاحب العلاقي ، وبعض هؤلاء القوم في خفارة كوك خال أبي القسم حسين بن علي بن بشر وعبدك وكوك رئيساً الحدارب اجمع ، وفيهم رئيسان لاهل بيت ذمام ورئيس يسوسهم . فأما بطون الحدارب فمن العرتيكة والسوتباروا والحوتمة والعنكيرا والنجريروا والجنيتيكة والواخيكة والحرب بطن واحد ، يتفخذ هؤلاء القوم كل بطن إلى مائة فخذ ، ولكل فخذ رئيس أورئيسان ، وجميعهم منتجعون لا حاضرة لهم ، مشايتهم على البحر المالح والسواحل ومصائفهم الأودية التي وسط ذوات مياه ومراع تقوم بهم وخريفهم فيما يقارب النيل ، مغربين عن بلادهم ببلاد قايلة الشجر كثيرة نبات الارض والغدران ، وطعامهم اللحم واللبن خاصة ،

---

١ — لا تزال هذه القبائل موجودة في المنطقة نفسها وتحمل الاسماء نفسها كما ان خور بركة لا يزال يحمل الاسم نفسه في غرب اريتريا .

٢ — لا تزال هذه القبيلة موجودة ومنتشرة في شمال اريتريا وغربها .



وضعفاؤهم يأكلون الوحش كالغزال والنعام والحمار. وهم مسلمون بالاسم، ومياسيرهم لا يرون اكل الصيد ولا مخالطة آكله ولا استعمال آنية من استجار ذلك واستحله. ولا يحلبون فيها ولا يشربون. ولغتهم لغة تعم البجة. وجميعها اعجمية. ولبعضهم لغة يتفرد بها» . انتهى .

الهجرات المعاكسة من حوض الدجن الى السودان

اتساع مملكة الدجن إلى اقليم ولقايت في الحبشة

اشار الفارز في القرن السادس عشر الميلادي وتلاه بايز في القرن السابع عشر، وتكاد تكون روايتاهما واحدة. يقول بايز انه سمع من راهب اوروبي ان سكان مملكة (الدجن) من المسلمين سمر اللون، وذكر أنهم لا يتبعون الحبشة بل تربط بينهما رابطة الصداقة. وأضاف أن (الدجن) تقوم ببيع الخيل إلى الحبشة. وكانت هذه الخيل تربى في حوض الدجن وهي من أصل طيب.

ويقول جيوفاني أيابيرو في مذكراته كما أوردها المؤرخ الايطالي روسيني (اتفقت الروايات المتداولة على ان دولة البلو كانت تحكم اقليم مزجة وجزءاً من اقليم ولقايت في الحبشة الشمالية فترة من الزمن، وصلت إلى حوالي القرن بعد الملك بعيدا مريم. ونجد في روايات ولقايت قصة لملكة ذات فتنة وجمال وثراء. وكانت محاربة لا تقهر، واسمها (جعوة). وهذه شخصية تاريخية لدينا منها الكثير من الوثائق والمعلومات الخاصة بعهدها، منها ما هو مكتوب بالحبشية والعربية والبرتغالية. ويكفي ان تشير إلى انها كانت اخت السلطان مكثر. وتولت الوصاية على عرشه بعد وفاته وولاية ابنه مكثر الصغير. وذكر عرب فقيه في كتابه «فتوح الحبشة» ان الامام احمد بن ابراهيم المعروف بـ (جرانج) او بالغازي اخذ في مطاردة النجاشي الذي دخل إلى اقليم مزجة وولقايت. وبعث السلطان مكثر إلى الامام بكتاب قال فيه :

« ادركني قبل ان يقتلني المشركون، فسار الامام في يوم بصره ووصل



الى بلد السلطان مكثر ، وكان المشركون قد ضيقوا عليه وامسكوا على أهل البلد طريقهم ، واقتتلوا مع المشركين وانهزم اصحاب مكثر . ثم سار وراء النجاشي ومعه حسن ابن اخت مكثر في عشرين حصاناً ليدل الامام وجيشه على الطريق . وبعد ايام ثلاثة مات السلطان مكثر ، واخفت اخته جعوة موته ثلاثة ايام عن العساكر ، وارسلت إلى عند الامام تعلمه بموت مكثر ، فوصل رسولها إلى الامام وهو حاط تحت جبل في وقت القيلولة . فضرب الامام النقارات واجتمع المسلمون واخبرهم بالرسالة .

« ولي والد السلطان مكثر ، واسمه نافع ، وهو صغير السن عند عمته جعوة مدبر الملك في حياة اخيها . وقال الامام لحسن بن جعوة بالرجوع إلى مزجة وتجلس والدته بأولاد اخيها وقال مرحباً وسار إلى بلده » .

وكانت هذه الظروف التي سار فيها الامام احمدبجيوشه في مطاردة النجاشي وموت الساطان مكثر في حوالي عام ١٥٤٠ م . كانت هي أيضاً الفترة نفسها التي تم قبلها بقليل انتقال البيت الفونجي من مركز سلطانه في لامول إلى عاصمته الجديدة في سنار في حوض النيل الازرق. ومن المحتمل ان مدينة سنار العاصمة الجديدة قد وقع عليها الاختيار قبل ذلك الانتقال النهائي بالنسبة إلى موقعها على طرق القوافل والملاحة النهرية ، مما أكسبها مركزاً استراتيجيا هاماً .

ومما تجدر الاشارة اليه ان سلطان مكثر كان وثيق الصلة بحوض النيل الاوسط ، حيث كان يحتفظ بالكثيرين من النوبيين في خدمة جيشه .

الهجرات المعاكسة

الهجرات والهجرات المعاكسة على مدى الاجيال حالة لازمت اراضي اريتريا من قبل الموجات البشرية المتدافعة آتية من مختلف الاتجاهات . وكان الاتجاه الغالب من الشمال حيث موجات قبائل البجة كلما اشتد الضغط عليها ممن حكموا مصر منذ عهد الفراعنة ثم اليونان والرومان واخيراً العرب ، او من الشرق عبر البحر الاحمر من جنوب الجزيرة العربية .

لكن الهجرة التي تعنينا هنا هي الهجرة من حوض الدجن اي منطقة غرب اريتريا وإلى شرق السودان او ما نسميها اصطلاحاً (بالهجرة المعاكسة) على اعتبار ان الهجرة كانت تتم عادة بالنسبة إلى قبائل البجة من الشمال إلى الجنوب وليس بالعكس.

بدأت هذه الهجرة في الفترة التي انتزع فيها الحكم في الحبشة من جماعة زاقوي الذين كانوا يهادنون العرب بصفة عامة والمسلمين منهم بصفة خاصة، البيت السليماني في حوالى منتصف القرن الثالث عشر الذي عرف بعدائه للعرب والممالك الاسلامية في الحبشة، على اعتبار ان العرب والممالك الاسلامية كانوا سنداً للبيت الزاقوي.

وتعرض حوض الدجن الذي كانت تسيطر عليه قبائل عربية بجاوية مختلطة بزعامة البلاو من قبل بيت الحكم الجديد في الحبشة (البيت السليماني) بزعامة الملك يكونو املاك إلى ضغوط عسكرية وغارات استهدفت النهب والسلب. وكان من نتيجة ذلك دخول جماعات كبيرة العدد من حوض الدجن في غرب اريتريا إلى حوض النيل الأزرق ثم انتشار هذه الجماعات إلى أماكن أخرى في غرب افريقيا. ومن هؤلاء المهاجرين من حوض الدجن من سكن في أقاليم مالي في المنطقة الواقعة في شرق انحناءة نهر النيجر إلى الشرق من بلدة بانه ياجارا. وحرفت هذه النسمية في نيجيريا لتقرأ (جيكون)، على ان هؤلاء القوم نقلوا الكثير من عاداتهم وتقاليدهم إلى مناطق غرب افريقيا النائية.

ويرجح بعض المؤرخين خروج الدجن نحو الغرب في زمن سابق من القرن الثالث عشر. كما يعتقد انهم قد اتخذوا طريق هجرتهم قبل ذلك، وأنهم ساروا عبر طريق السفانا إلى تشاد، ومنها إلى اقليم نهر النيجر. فمنهم من هو قاطن على شاطئ نهر اليقيوس في الجنوب منذ اوائل القرن الحادي عشر الميلادي. وقد لا يكون غريباً ان نسمع عن هجرات خرجت من شرق السودان وحوض الدجن قد اتجهت نحو الغرب في مرحلة الاضطرابات التي نشبت في أرض مملكة مروى في القرنين الثالث والرابع



الميلادي . وقد انتهت هذه الاضطرابات بخروج البيت المالك في القرن الثالث وخراب المملكة في القرن الرابع بعد غزوة عيزانا ملك اكسوم .

الغارات الاثيوبية والحاق الدجن بمديرية التاكا

وعلى كل فإنّ منطقة الدجن التي تشمل معظم أجزاء اريتريا الحالية كانت في معظم فترات التاريخ عرضة للغزوات والهجرات المتضاربة، وخاصة من قبل حكام الحبشة أو ممالك مصر والسودان .

وقد استمرت غزوات النهب والسلب من قبل حكام اثيوبيا لمنطقة حوض الدجن طوال فترة القرون السبعة الماضية. واشتهر دجزماتش ودبي، وكان حاكماً لاقليم تجراي وصاحب صلات بفرنسا وبريطانيا بشن غارات واسعة على منطقة حوض الدجن ، حيث قام بهجوم شامل على مناطق بقوس (كرن) والحباب في عام ١٨٤٤ ، واكتسح مناطق الباريا والبازا في حوض القاش وعاد منها بغنائم كثيرة وبمئات من الاسرى استرقهم . ولم يجد سكان حوض الدجن بدأً من الاستنجاد بالحكومة الخديوية المصرية التي ناوأوها في بداية الامر عند احتلالها كسلا في السودان . فجهزت الحكومة قوة كبيرة لمحاربة ودبي فدحرته وانكفأ إلى مملكته الجبلية والحقت منطقة حوض الدجن بمديرية التاكا في السودان .

اللغات والاديان والعادات في منطقة حوض الدجن

خلال القرون الوسطى (من القرن السابع حتى القرن الخامس عشر الميلادي) كانت اللغة البجاوية هي اللغة السائدة في ممالك البجة في أريتريا والسودان . ويقول نعوم بشير نقلاً عن لبسيوس ان اللغات البجاوية هي لغة مروى القديمة . كما يؤكد الدكتور هيس الألماني الذي كان مقيماً في مصر لدراسة اللغة النوبية هذا القول . ويقول إن اللغة البجاوية هي لغة المروى القديمة ، بدليل أن بعضاً من كلماتها الأساسية مثل الماء والنار والأرض تشابه ما ورد في الأسماء في تاريخ مروى .



وحاولت قبائل البلو الاحتفاظ بلغتها العربية بين الأغلبية البجاوية ، ولكن طمست معالم لغتهم العربية ولم يبق منها إلاّ النسب إليهم في « باويبا » أو (العربية) .

والبجاوية لغة غير مكتوبة ، لكنها لغة شعر تتناقله الألسن وتهتم بالثقافة ، وقد تبلغ القصيدة سبعين بيتاً. وأعجب من كل شعرها تلك المساجلة الشعرية التي حدثت بين شاعرين من قبيلة العجيلات وبيت معلا حماسين ، حين تزاحما على فتاة جميلة . مدح الأول جنبها الأيسر مبتدئاً بأخمص قدمها اليسرى حتى انتهى إلى قرن شعرها الأيسر ، ورد عليه الحماسيني مبتدئاً بالقدم اليمنى إلى قرن شعرها الأيمن ، فكانا كفرسي رهان بلغا الغاية معاً في انتقاء الأوصاف الجميلة .

وقد ظلت اللغة العربية لغة الثقافة عند هذا القوم حتى هذا اليوم . بها تتم مراسلاتهم وسجلاتهم. على أن اللغة البجاوية أو الحداربية قد تقلص استعمالها في نطاق ضيق ولا تستعمل إلا عند جزء من قبائل البني عامر في منطقة البركة السفلى القريبة من السودان . وسادت بدلاً عنها لغة التجري ، وهي أيضاً غير مكتوبة ، سامية الأصل شبيهة باللغة التجرينية السائدة في المرتفعات الأريترية ، والتي تكتب بالحروف الحبشية القديمة ذات الأصل الحميري . ويتحدث معظم سكان المنطقة الغربية والشمالية والشرقية من أريتريا بلغة التجري . وهذا يعود إلى التفوق الحضاري والثقافي للغات السامية بالنسبة إلى اللغات الكوشية والحامية ومن بينها اللغة البجاوية .

أما قبائل الباريا والبازا فقد ظلت حتى اليوم محتفظة بلهجاتها الإفريقية القديمة التي تشبه لهجات بعض قبائل جنوب السودان حيث الموطن الأصلي لهذه القبائل .

كانت قبائل البجة وثنية ، اعترف الرومان بكهنتهم ومعابدهم وفق المعاهدة التي اتفقوا عليها مع نائب قيصر الرومان في مصر سنة ٢٨٤ م . وبقيت قبائل البجة وثنية ولم تتخل عنها كما فعل المصريون والنوبيون الذين أبطلوا عبادة الأوثان خضوعاً لإرادة الأمبراطور جستنيان سنة ٥٥٦ م الذي



استعمل معهم ضروب التعسف والشدة ، فهابه المصريون والنوبيون وتخلوا عن دياناتهم الوثنية ، بينما البجة الشديدة المراس ، وبحكم حياتهم الرعوية القاسية . لم يستجيبوا لنداءاته ولم يخضعوا لتهديداته ، وظلوا على وثنيتهم ، ولم تنتشر المسيحية بينهم إلاّ في نطاق ضيق ، كما لم ينتشر الإسلام بينهم إلاّ ببطء حتى عمّ بينهم . وقد استمر كثير من العادات الوثنية بين أقوام البجة ، كعدم الحرب في يوم الثلاثاء والإيمان بالكهانة وأعمال السحر .

وقد كانت ممالك البجة في أريتريا إسلامية خلال القرون الوسطى ، ولو أنها لم تخلُ من أقليات مسيحية أو وثنية . مثال ذلك قبائل الباريا والبازا التي لم تدخل إلى الإسلام إلاّ بعد منتصف القرن التاسع عشر ، على يد السيد محمد عثمان المرغني ، مؤسس الطريقة الختمية الذي قدم من الحجاز عن طريق مصر ، وكانت هذه القبائل قبله وثنية ، كما نشر الإسلام بين قبائل البلين والماريا والبيت جوك في مرتفعات الجولان . كما أسلمت على يد المرغني وعد شيخ ، قبائل مسيحية في شمال أريتريا مثل عتماريام (عطية مريم) وعد هبتيس (أي عطية اليسوع) وعد تكليس (نبات اليسوع) . كما اعتنق السواد الأعظم من قبيلتي المنسع ، الإسلام في مستهل القرن العشرين ، وكانتا تدينان بالمسيحية حوالى منتصف القرن التاسع عشر بشكل لا يتسم بالتدين . ولا يزال المنسع يشتهرون بمسلميهم ومسيحييهم بالتسامح الديني .

والسلاح التقليدي للبجة كانت الرماح السباعية . وسميت بذلك لأن طول حديدتها ثلاثة أذرع وطول العود أربعة . وتروسهم من جلود الجاموس ، وكذلك التروس الدهلكية (نسبة إلى جزيرة دهلك) ، فانها مصنوعة من حيوانات البحر . وقسيهم عربية غلاظ من شجر السدر يرمون عليها بنبل مسمومة . أما السيوف التي انتشر استعمالها وخاصة بين قبائل البني عامر والحباب ، فلم تظهر في يد البجة ، إلاّ بعد الحروب الصليبية سنة ١١٨٢ م .



هجرات العرب إلى بلاد البجة :

اسبابها ونتائجها

دأب العرب منذ قديم الزمان إلى النزوح والإتجار مع سواحل إفريقيا الشرقية . ويمكننا أن نقسم هذا الساحل الإفريقي من واقع بيئاته المحلية إلى أربع مناطق رئيسية وهي : أولاً ، المنطقة الواقعة بين (عيذاب) في السودان ومضيق باب المندب ، وتشمل كل الشواطىء الأريترية . ثانياً ، منطقة خليج عدن ، وعرفت أيضاً بخليج زيلع . ثالثاً ، ساحل الصومال الذي عرف بساحل البنادر أو بر العجم . رابعاً ، ساحل بر الزنوج أو ساحل أزانيا ، وينتهي جنوباً في سوفاله في موزمبيق حالياً .

والمعروف إن هذه المناطق على اتساعها ، كانت مفتوحة لمرور القوافل وهجرات القبائل من جنوب مصر إلى تخوم كينيا ، كما كانت سفن العرب تربط بينها وبين الجزء القصي من إفريقيا . ويستثني الشاطر بصيلي عبد الجليل في مؤلفه (تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط) الحبشة عن هذا الانفتاح ، فيقول : « كانت هذه المناطق – يقصد شمال شرقي إفريقيا – مفتوحة لمرور القوافل فيما عدا الحبشة التي كان يسيطر نجاشيوها على منطقة تبدأ من جنوب بحيرة تانا إلى تخوم أريتريا. وهذه المملكة لم تكن حدودها في ذلك الحين واضحة ومحددة، وبذلك تشمل المنطقة الساحلية (أريتريا) وظهيرها في النواحي التي تصل بينها وبين حوض وادي النيل الأوسط – السودان الشمالي والشرقي – عدداً من الزعامات والرئاسات المحلية القائمة على جماعات متباينة من السكان بين منطقة وأخرى ، كما أنها أيضاً متباينة في تنظيماتها الاجتماعية والاقتصادية . وكل منطقة في وضعها هذا أو ذاك متأثرة لحد ما بالرقعة الأرضية التي تسكنها » . انتهى .

إذا رجعنا إلى التطورات في الحياة الاقتصادية في منطقة حوض البحر الأحمر وسواحله الغربية نجدها قد بدأت منذ عهد غارق في القدم ، بدليل أنه قد جاءت الإشارة إلى تجارة البخور والتوابل وغيرها من السلع الأولية



مع بلاد (البنت) التي شملت ضمن ما شملته الرقعة الواقعة جنوب عيذاب إلى بلاد البنادر (القرن الإفريقي) ، في مصادر بابل التي ترجع إلى ٢٧٠٠ق.م. تقريباً ، والتي ذكرت أنها تجارة ناجحة تنقل إلى بلاد الخليج العربي وجنوب الجزيرة . كما أن الملكة المصرية (حتشبسوت) — ١٥٠٣ — ١٤٨٢ ق. م — قد أنشأت أسطولاً تجارياً سافرت به إلى بلاد البنت لإحضار البخور والتوابل وغيرها من السلع . ومما يلفت النظر ان في النقوش التي تركتها حتشبسوت ما يشير إلى أن أرض (البنت) لم تكن معروفة من قبل . ويرجح المؤرخون ان التجارة كانت قبل ذلك العهد عن طريق وسطاء يرجحون أن يكون هؤلاء البجة الذين كانوا يقطعون الصحراء بجمالهم . ويقول سيلفر إن الملكة حتشبسوت نقلت هذه التجارة من أيدي هؤلاء الوسطاء وجعلتها بواسطة الدولة التي كانت تستطيع إرسال السفن إلى القرن الإفريقي .

وأرسل حيرام ملك صور سفنه إلى بلاد البنت لتأتي له بالذهب والتوابل كما فعل سليمان الحكيم . وإذا كانت الأمم البحرية البعيدة تقصد تلك الديار بحثاً عن الثروات ، فكان حري بسكان الجزيرة العربية أن يدخلوا معترك الهجرة والاتجار ، وهم الذين جبلوا على ركوب المخاطر ، منذ أن كانت حضارة سبأ ومعين وحمير مزدهرة ، وهذا ما يثبته التاريخ . فقد توالت هجرات العرب منذ عهود سحيقة نحو السواحل الإفريقية المجاورة وتشكلت من هجراتهم شعوب مزيجة ، مما سنفصله في ما بعد .

تمتد المنطقة التي نتعرض لها الآن من جنوب أسوان حتى مرسى باضع مشتملة على موانئ عيذاب وسواكن ومرسى عروس وغيرها من منافذ البحر الأحمر التي دخلت منها الهجرات العربية .

وكما أشرنا في موضع آخر ، فإن مجموعات من العرب قد جاءت إلى أرض البجة في القرن السادس للميلاد أي قبل ظهور الدعوة الإسلامية ، وقد ضمت هذه المجموعات بطوناً من بني حمير عرفوا بقبيلة (البلي أو البلو) . ويعتقد ان قبائل البجة التي سكنت بينها جماعات البلو قد كانت في حالة من الفوضى بسبب أنهم قد أصيبوا بهزيمة منكرة ، أنزلها بهم الملك النوبي



سيلكو الذي طردهم من حوض وادي النيل جنوبي الشلال الأول . دخل هؤلاء البجة إلى الصحراء وعادوا إلى حياة الرعي والبداوة ، وتحطمت قوتهم الحربية وتحولوا إلى الحروب الداخلية بين القبائل .

وكان دخول البلو في هذه الفترة من القلاقل الداخلية ، فلم يتعرض لهم البجة بسوء بل استطاع الوافدون البقاء والعيش بسلام مع البجة ، واستطاع هؤلاء الوافدون مصاهرة البجة . وعن هذا الطريق وصل أبناؤهم إلى ولاية الحكم حيث كانت زعامة الحكم تنقل إلى ابن البنت أو ابن الأخت . وتكونت مع الزمن طبقة أريستوقراطية هجينة ، آباؤهم من العرب وأمهاتهم من البجة.

وكانت ربيعة من أكثر المجموعات العربية التي جاءت إلى أرض البجة عن طريق مصر رغبة في الحصول على المعادن ، تصحبهم مجموعات القبائل القحطانية والجهنية . واشتهر زعيمهم في القرن العاشر الميلادي أبو مروان بشير بن إسحاق ، وهو من ربيعة .

وكانت قد دخلت إلى منطقة عيذاب ثم إلى مناطق (دجن) غرب أريتريا مجموعة من بني يونس ، حيث اتخذت مقامها ، وذلك قبل وصول مجموعات ربيعة . ويبدو أن مجموعة بني يونس قد جاءت من الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر إلى ساحل البجة . ولم يمض طويل وقت حتى اشترك الطرفان في قتال بسبب استثمار أرض المعدن ، واضطرت مجموعة بني يونس إلى العودة إلى الحجاز عبر الطريق الذي جاؤوا منه . وهذا أمر تكرر مدى التاريخ ، وكانت قبيلة الرشايدة آخر من نزح من ساحل الحجاز إلى شرق السودان وشرق أريتريا في عام ١٨٥٠ م ، حيث تسكن قبائل البجة .

والظاهرة البارزة لهجرة العرب هو اتجاه انتباههم إلى العمل في المناجم في إقليم البجة امتداداً من جنوب أسوان حتى الهضبة الشمالية الاريترية . وقليل منهم أولى المسائل الثقافية والدينية الاهتمام . وقد كانوا يدخلون مع أهل البلاد في نزاعات وحروب بسبب نزوعهم إلى استغلال الأيدي العاملة بالقوة ، على أن عدداً من العلماء استقروا وأسسوا مراكز تعليمية لعبت دوراً كبيراً في انتشار الدين الإسلامي واللغة العربية بين البجة .



ولم تكن أسباب الهجرة العربية تجارية أو طلباً للثراء فقط ، فقد كانت هناك أسباب أخرى للهجرة تعود إل عوامل سياسية . فقد اشتد دخول العرب إلى إقليم البجة في القرن التاسع الميلادي ، وخاصة بعد أن استكثر الخليفة المعتصم في عهد ولايته (٨٣٣ — ٨٤٢ م) من المرتزقة الأجانب في جيشه ، واستغنى عن خدمات العرب من الديوان ، وأمر بقطع العطايا عنهم ، وزادت الأوضاع سوءاً بالنسبة إلى العرب في مصر بعد عزل عنسبة بن إسحاق الذي كان آخر الولاة لمصر من العرب . وحدث ذلك في عهد الخليفة المتوكل (٨٤٧ — ٨٦١ م) . فاضطر العرب إلى الخروج من مصر الشمالية والوسطى إلى الصعيد ، ومنهم من اتجهوا إلى حوض وادي النيل الأوسط والأقاليم المعروفة الآن بالسودان وأريتريا والحبشة .

وبعد النزاع الذي حدث بين الأمويين والعلويين في مسألة الخلافة والسلطة أيقنت القبائل العربية المعارضة للأمويين أن لا سبيل إلى الحياة الحرة الأبية تحت ظل الدولة الأموية . كما أيقن العلويون أن أية محاولة جديدة بعد معركة كربلاء التي استشهد فيها الإمام الحسين بن علي ، لن تزيدهم إلاّ فناء . فأخذوا يتفرقون في البلاد ويمعنون في الهرب والاختفاء ، وقصدت جماعات منهم إلى حيث لا تمتدّ أيدي الخلفاء الأمويين ، فقصدوا أفراداً وجماعات شواطىء إفريقيا الشرقية تتبعهم جنود الدولة الأموية التي جعلت همها أن تراقبهم مراقبة دقيقة ، فاستولت على مجموعة جزر دهلك المواجهة لثغر عدوليس في الشواطىء الأريترية لتتمكن من ذلك على أتم وجه .

ولم يكن يزيد بن معاوية يستريح من ثورة الشيعة حتى خرج عليه الحجاز . فلم يكن العنف الذي قابل به الثورة الجديدة بأقل من العنف الذي قابل به الثورة الأولى . فأرسل إليهم مسلمة بن عقبة ، ففعل في المدينة ما لا يفعله المسلم ، فقتل أغلب من بقي من المهاجرين والأنصار وانتهكت حرمة المدينة وانتهبت واغتصبت فيها ألف عذراء على ما يقول الطبري ، واصطبغت عداوة الحجاز بالدم ، كما اصطبغت عداوة العراق .

ولم ينم الحجاز على الضيم ، فخرج للمرة الثانية على الأمويين وبايع



عبد الله بن الزبير . وظلت ثورته في الحجاز تسع سنوات يناضل فيها الأمويين ويتغلب عليهم حتى حصره بمكة الحجاج بن يوسف الثقفي وقتله سنة ٧٢ هـ . فلا عجب إنْ فر أهل الحجاز لينجوا بحياتهم إلى الأقطار النائية . ولم يلق الحجاز من الأمويين إلاّ كل إهمال ، فكانوا لا يرمونهم إلاّ بكل طاغية يمعن في إذلال القوم والتنكيل بهم .

وفي سنة ١٣٢ هـ جاء دور الأمويين ليشربوا من الكأس التي طالما سقوا منها الآخرين . ففر مروان الثاني إلى مصر ، فدخلها لثمان بقين من شوال ، فوجد أهل الحوض الشرقي وقد انضموا إلى العباسيين ، فغير إلى الجيزة ومعه حاشيته من أمرائه وأقاربه ، فلقيه صالح بن علي والي مصر من قبل العباسيين بمصر، فقاتله حتى هزمه، فهرب ومن معه إلى الصعيد وأوغلوا في الهرب جنوباً حتى وصلوا إلى النوبة في السودان، حيث استقر بعضهم، وذهب آخرون إلى باضع (مصوع) وجزر دهلك وهواكل وبهدور التي لا تزال آثار قصورهم ومقابرهم قائمة فيها .

ثم استمرّ النزاع بين العلويّين والعباسيين طوال العصر العباسي ، فكلما قام عباسي بالأمر قام علوي ينازعه ويدعو لنفسه ويقاتل ويقتل.فكانت هذه الثورات المتعاقبة التي شغلت التاريخ الإسلامي حتى القرن الرابع الهجري مورداً لا ينضب لجماعات وأفراد مهزومين يهاجرون إلى البلاد البعيدة . وشمال شرقي إفريقيا – السودان ، أريتريا ، الحبشة ، الصومال – بموقعها الجغرافي القريب من الجزيرة العربية كانت ملجأ لهؤلاء .

ادعاء القبائل الأريترية الانتساب إلى أصول عربية

انصهر العنصر العربي المهاجر وسط السكان البجة وغيرهم ، بفعل التزاوجات المستمرة ، ولكن خلف ظاهرة لا تزال باقية . فعلى رغم احتفاظ القبائل الأريترية بلهجاتها السامية والحامية والكوشية القديمة (تجري ، تجرينيا ، حدارب ، سيهاوية ، دنكلية . . الخ) إلاّ أنها ظلت تدعي انتسابها إلى أوصول أولئك العرب النازحين . فقبائل البني عامر والبلو تدعي نسبتها



إلى بني عباس، كما تنتسب قبائل الحباب المتعددة إلى بطون مختلفة من قريش، وكذلك الساهو في الشرق إذ يدعي الأساورته الانتساب إلى علي بن أبي طالب، كما يدعي منفري الانتساب إلى عمر بن الخطاب. وتدعي قبائل الماريا ومعها في ذلك قبيلة سنعدقلي في المرتفعات الأريترية وقبيلة طروعة وحزو ومنسع، الانتساب إلى الأمويين. وتشير رواياتهم المحلية إلى أن جدهم المهاجر تزوج فتيات عدة من مختلف القبائل، توالدت منها بطونهم المذكورة، وأن التسمية جاءت من ولديه (ماريو ومايشو) اللذين ولدا من أم مسيحية في هضبة أريتريا.

ومهما قيل في صحة هذا الزعم، إلاّ أنها تؤكد الهجرات العربية الواسعة التي أشرنا إلى أسبابها والتزاوجات التاريخية التي تمت عبر الأجيال المتعاقبة. ويقول اسبنسر ترمنجهام في كتابه: (الإسلام في أثيوبيا) (Islam in Ethiopia) إن إقامة تاجر أو عالم ديني عربي وسط قبيلة ما وانتشار الإسلام بينها بواسطته كان يجعل القبيلة تنتسب مع مرور الزمن إلى هذا العربي النازح اعتقاداً منها بأن ذلك يعلي من مكانتها. وهذه الظاهرة تعتبر شائعة في كثير من الأقطار الإسلامية، وخاصة في شرق إفريقيا، حيث المصاهرات والتزاوجات التاريخية بين العرب النازحين وأبناء عمومتهم من الحاميين، العنصر الغالب في المنطقة.



الفصل الثامن

علاقة بيت الفونج بأريتريا

الموطن الأصلي لآل الفونج

لا يزال موضوع أصول آل الفونج الذي تولى الحكم في حوض النيل الأزرق في القرن السادس عشر مادة لنقاش وجدل . فالبعض يقول إنّ البيت السلطاني يرجع في أصوله إلى قبيلة الشلك أو جاؤوا من الغرب من بلاد السودان الغربي ، ولكن المؤرخ المصري الشاطر بصيلي عبد الجليل يرجح الافتراض القائل بأن الفونج جاؤوا من أريتريا ، ويقول إن البيت المالك قد أمضى فترة من الزمان يمارس سلطانه في المنطقة الجنوبية الغربية من أريتريا ، وذلك قبل انتقاله إلى حوض النيل الأزرق واتخاذه من بلدة سنار عاصمة له . ويعتقد أن انتقال السلطنة إلى حوض النيل الأزرق يرجع إلى ضغط الحروب والقلاقل التي كانت سائدة في الحبشة في تلك الفترة من الزمن ، والتي أخذت تمتد إلى المنطقة الشمالية ، أي أنّ تلك الظروف قد هدّدت المنطقة التي كانت تحتلها السلطنة في جنوب غرب أريتريا . ولا يفوتنا أن نشير أيضاً إلى الأثر الذي تركته غزوات الغالا في المنطقة بين غوجام وإقليم هرر ، كما نشير إلى وجود العثمانيين على الساحل وكانوا يحتلون مصوع ، وكانت لهم علاقات مع حاكم التجراي ويقدمون إليه



المساعدات في ثورته على ملك الحبشة ، وكان ذلك حتى عام ١٥٨٠ م .

ويبدو ان السلطنة التي تولاها آل الفونج قد قامت في أريتريا في وقت يرجح أن يكون قد بدأ في القرن الرابع عشر الميلادي أو قبله بقليل ، وانهم قد عقدوا اتفاقاً مع زعيم العبدلاب الذي كان يسيطر على الطرق التجارية بين حوض وادي النيل والأقاليم المتاخمة . وقد اتخذ عاصمة له بلدة (قرى) بين (الخرطوم وشندي) . وبموجب هذا الاتفاق في ما يبدو إن السلطان قد بسط سيطرته على المنطقة من حوض النيل الأزرق التي تبدأ من جنوب سوبا وتضم أرض البطانة وما حواليها وحوض النيل الأزرق الجنوبي . ويفترض أن هذا قد تم الوصول إليه بعد خروج ملك علوة في هجرته نحو الغرب بعد أن حزب الفونج مملكته ودمروا عاصمته (سوبا) حتى صار يضرب المثل بخراب سوبا .

وعرفت العاصمة التي اتخذها هذا البيت في أريتريا باسم (لامول) أو كما تعرف محلياً باسم (لملم) كما وردت أيضاً في بعض المصادر باسم (لول). وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما جاء في نقوش نقارة السلطان التي كانت في حوزته عندما كان يمارس سلطانه في لامول ، فإننا نجد الإشارة إلى أن جده الكبير قد جاء من (لول) وهو الجد السابع – إلى لامول التي تقع في أريتريا، حوالى القرن الرابع عشر الميلادي ، وان هذه النقوش قد دفعت بالباحثين إلى امتداد البحث والدراسة في الإقليم الذي يتكون منه حوض وادي النيل على الاتساع . وتوقف البحث عند منطقة اللامو الواقعة على المحيط الهندي جنوب الحدود بين كينيا وصوماليا. وقد وجد علماء التاريخ، ومنهم سير هنري ولكام ، وكذلك مخطوطة (الزنوج) التي شرحها (تشيرولي) في عام ١٩٥٧ ، أن ما جاء في نقوش نقارة السلطان عمارة بشأن جده الكبير الذي جاء من لول ينطبق على هذا الموقع ، ويشير إلى وصول آل الفونج إلى منطقة الساحل الإفريقي الشرقي من موطنهم الأول في وادي شمايل في عمان، جنوب شرقي الجزيرة الغربية . وتشير هذه المخطوطة إلى أن آل الفونج كانوا يمارسون الحرب بين بربرة وسواكن (الشواطىء الأريترية) .



والحرب هنا في ما يعتقد بعض المؤرخين كانت عمليات القرصنة في هذه المنطقة . ووجد أيضاً مما جاء في بعض المصادر أن المرأة التي يطلقها زوجها تستطيع أن تتزوج في يومها دون الأخذ بالعدة التي تفرضها الشريعة الإسلامية . وكانت هذه النقطة موضع جدل في أريتريا والسودان في العصور الوسطى . واكتشف انه توجد عادة وتقليد بالسماح للمرأة المطلقة بأن تتزوج من يومها من رجل آخر . ويرجع خفض مدة العدة إلى هذا الحد بسبب أن سكان اللامو ، وهم المشتغلون في البحار ، لا يستطيعون الانتظار لمدة العدة لسفرهم . وهكذا ، فإننا نجد في العادات والتقاليد والتنظيمات الاجتماعية ما يشير إلى صلات وروابط بين المجتمعين في ساحل الزنج ولامو بصفة خاصة والمجتمع الذي قامت فيه سلطنة الفونج في أريتريا والسودان . وتشير بعض المصادر إلى أن نسبة البيت السلطاني الفونجي إلى الأمويين ، كانت عن طريق الزواج بين آل الفونج والأمويين الذين كانوا يسيطرون على منطقة اللامو والساحل الشرقي لإفريقيا .

انتقال بيت الفونج
إلى منطقة دنكاليا وبركة في أريتريا

تحدثنا عن المرحلة الأولى من تاريخ الفونج ، وهي التي امتدت منذ مجيئهم من الجزيرة العربيّة واستقرارهم في منطقة لامو شرق إفريقيا منذ القرن الثامن الميلادي حتّى القرن العاشر الميلادي . أما المرحلة الثانية التي تبدأ من حوالى عام ٩٥١ م وتنتهي في حوالى عام ١٢٥٠ م فهي عليها الغموض . وهي المرحلة التي تمت فيها هجرة بيت الفونج من (لامو) إلى أريتريا . ولم يستطع الباحثون أن يحددوا الصورة التي تمت فيها الهجرة التي كانت في ما يبدو مسبوقة برحلات موسمية نحو الشمال لتحقيق هذا الغرض أو ذاك . وهذا يؤيده ما جاء في مخطوطة برّ الزنوج التي نشرها تشيرولي حيث يقول إن العرب الذين سكنوا ساحل برّ الزنوج كانوا يجيئون بسفائن وبالبر لأجل الحرب من سواكن إلى جزيرة دهلك .



فإذا ربطنا بين هذه الرحلات التي كان العرب يقومون بها ، ومن بينهم بطبيعة الحال جماعات من الفونج ، وبين المقبرة الصندوقية لملوك الفونج في الدناكل والتي نشرتها ماري أديت بوتوي، والتي نقلها عنها كمرير في كتابه عن البحر الأحمر والحبشة ، نجد أن الفونج قد جاؤوا إلى منطقة الدناكل الشمالية، ونستطيع أن نفترض أنهم قد نزلوا في أحد الموانىء شمال عصب ، ويحتمل أن يكون نزولهم قد حدث في أحد ميناءين وهما (عد) أو (معدر) . ويبنى هذا الافتراض على وجود مقابر صندوقية كثيرة العدد في خور (بركة) في أريتريا مشابهة للمقابر التي وجدت في منطقة دنكاليا . والذي يبدو أن الفونج قد انتقلوا من موطنهم في لاموا في رحلات تجارية أو هرباً من القلاقل المحلية التي كانت تتسبب بها غزوات القبائل الإفريقية التي كانت تقوم بين الحين والآخر ، أو كانت هذه الهجرة بسبب سقوط البيت الأموي وولاية العباسيين ، لأن آل الفونج كانوا على صلة رحم مع الأمويين . ويعتقد أن الصلات بين آل الفونج وبيت سلطنة دجن التي كانت قائمة في جنوب أريتريا وغربها ، وامتدت إلى شمال بلدة كسلا في جمهورية السودان ، قد بدأت بعد وصول الفونج إلى ساحل شمال دنكاليا ، جنوب أريتريا . وقد كانت الظروف في منطقة أريتريا وشمال الحبشة في حالة من الاضطراب بسبب الزحف القبلي من مختلف الجهات . ولهذا لا يستطيع الباحث لندرة المصادر التاريخية ، حصر تنقلات بيت الفونج من دنكاليا إلى غرب أريتريا ، وعلاقة هذا البيت مع سلطنة دجن التي كان يمثلها في القرن السادس عشر . والمعروف أن سلطنة دجن قد انكمشت رقعتها بسبب ضغط الهدندوة — وهم فرع من فروع البجة — واضطرت إلى الانحسار في حوض بركة غرب أريتريا .

ولا يفوتنا أن نذكر أنه في خلال المرحلة الثانية قد حدث في الحبشة حادث له أهميته ، ألا وهو اغتصاب البيت الزقوي للحكم . ولم يتمكن البيت السليماني من استرداد الملك إلاّ في أوائل المرحلة الثالثة من تاريخ الفونج ، والتي تبدأ من عام ١٢٥١ م وتنتهي في عام ١٥٥٠ م ، وهي الفترة



التي عاش فيها الفونج في أريتريا . وقد زادت هذه الحركة من الفوضى والاضطراب ، وزعم البيت السليماني أن العرب قد ساندوا البيت الزقوي في الوصول إلى الحكم ، كما أشرنا إلى ذلك عند حديثنا عن الهجرات المعاكسة

العلاقة بين الفونج وسلطنة عنسبة

وسعت علاقة آل الفونج ببيت الدجن أو سلطنة العناسبة (نسبة إلى وادي عنبسة) الذي يشكل رافدا لنهر بركة ويمر بمنطقة كرن – ويكتبها المؤرخون العرب محرفة هكذا (الأنساب) ، بما ورد في المصادر المحلية عن حتمية زواج سلطان الفونج من ذلك البيت .

والواضح من هذا الارتباط بين البيتين أن بيت الدجن كان قائماً بالحكم ويمارس سلطانه عندما وصل بيت الفونج إلى أريتريا .

وهناك قول جاء في كتاب لودولف (Historia Aethiopica: H. Ludelf Frankfort 1681) أن آل الفونج كانوا يدينون بالولاء للنجاشي ، والذي نعلمه أن النجاشي كان بين الفينة والفينة يدعي بتبعية سلطان الفونج له . وعلى كل حال فإن مثل هذا القول يحتاج إلى دليل من مصادر تاريخية . والمعروف أن قول لودولف هذا قد نقله عن أثيوبي .

وتنتهي فترة الغموض التي بدأت من أخريات المرحلة الأولى ، وطول المرحلة الثانية إلى نهاية المئتي عام الأولى من المرحلة الثالثة ، أي إلى عام ١٤٥٠ م حيث نجد بصيصاً من النور ، أظهر أن كان هناك سلطان من بيت الفونج ، وهو والد السلطان عمارة . وهذا يدل على أن هذا السلطان كان يحكم قبل ابنه في المنطقة الواقعة فيه جنوب غرب أريتريا ، وكانت عاصمته لامول التي أضيف اليها لام في آخرها ، ويسقط الألف والميم فتكون (مول) في بعض الحالات . وتؤيد هذا الرأي النقوش التي وجدت على نقارة السلطان عمارة ابن السلطان عدلان . وعلى ضوء هذه المعلومات التي جاءت في نقوش نقارة السلطان عمارة،والتي تعتبر أقوى دليل مادي على أن السلطان عدلان وابنه عمارة من بعده قد توليا الحكم ، إن هذه النقارة علامة من مميزات



الحكم . وعلى ضوء ما جاء في حوليات داود روبيني الذي زار السلطان عمارة في عاصمته لامول في عام ١٥٢١ م ، بالإضافة إلى ما جاء في مذكرات لويجي تلمنتي التي نشرها المؤرخ الإيطالي كونت روسيني ، مع تحقيق وتمحيص لما جاء في المخطوطات المحلية ، نستطيع أن نبني هيكلاً لتاريخ هذه الفترة المرحلية الثالثة التي بدأت من حوالى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي .

وأول هذه النقاط ما ورد في المخطوطات المحلية الأريترية التي تشير إلى أنه كان من المحتم على سلطان الفونج أن يتزوج من بيت العنسبة الذي كان يحكم منطقة عنسبة ، وعرف أيضاً باسم (بيت عين الشمس) . ونجد في ما أشار إليه الرواة أنه كانت هناك مملكة إسلامية في ذلك الحين في غرب أريتريا ، ويحتمل أنها ترجع في أصولها إلى البيت الذي كان يحكم إقليم الدجن منذ القرن الثاني من الهجرة أو القرن التاسع الميلادي على وجه التقريب. وقد امتد سلطان بيت الفونج إلى عيذاب شمالاً ، الواقعة شمال ميناء بورتسودان الحالي .

وأما ما ورد من الإشارة إلى بيت عين الشمس أو سلطنة عنسبة ، والذي تزيد في توضيحه الروايات المحلية التي تقول بأن السلطان عندما ينتخب لولاية العرش ، عليه أن يدخل في خلوة ومعه زوجته ، ويبقيا في هذه الخلوة سبعة أيام يقدم إليهما الطعام خلالها من يد عجوز أو صبي دون البلوغ . وهذه من التقاليد الفرعونية المتوارثة في تقديس الملوك ورفعهم إلى مستوى الآلهة . وهذه العادة كانت منتشرة في حوض النيل في السودان . وفي نهاية السبعة أيام التي يراعى فيها ألاّ يتعرض السلطان لضوء القمر ، يخرج السلطان إلى النهر حيث يغطس في مياهه ، ويخرج بعد ذلك برفقة الجندي لإجراء مراسيم التتويج .

وكل ما توافر لدينا من معلومات ان سلطان بيت الدجن في النصف الأول من القرن السادس عشر كان السلطان مكثّر الذي توفي في العقد الخامس من ذلك القرن ، وتولت وصاية الحكم على ابنه أخت السلطان



مكثر (جعوة) . ويعتقد أن الملكة جعوة التي كانت تحكم في عام ١٦٠٩ م، والمكلة فاطمة التي كانت في الحكم في عام ١٦١٩ م ، كانتا من منطقة حوض الدجن (القاش) . ويرجح أن تكون هاتان الملكتان من بيت السلطان مكثر ، بعد أن انكمشت الرقعة التي كان عليها سلطان الفونج .

وأشار أمانويل دي الميدا ، في كتابه عن تاريخ أثيوبيا ، الذي كتبه في القرن السادس عشر ، ان نهر تكزي يخترق إقليم ولقايت ويجري إلى مملكة الدجن التي يسكنها مسلمون ، وكانوا يعرفون باسم البلو .

ولقد كان انكماش هذه السلطنة بسبب القلاقل والحروب المحلية التي أصابت الاقليم ، وكانت بدايتها بخراب عيذاب ، قبل نهاية النصف الأول من القرن الخامس عشر ، بسبب السطو على القوافل التي كانت تحمل هدايا من سلطان الحجاز ، واشتبك سلطان الدجن البلوي في الغرب مع الهدندوة الذين تفوقوا عليه ، فانسحب إلى مقره غرب أريتريا . وصارت الهدندوة حينذاك أقوى قبائل البجة .

انتقال السلطنة إلى سنار

في مستقبل القرن السادس عشر شهدت منطقة أريتريا والحبشة صراعات وحروب طاحنة . فقد كان هناك زحف قبلي كبير ومنافسة وصراع بين المجموعات القبلية ، انتهت في أوائل القرن السادس عشر ، بظهور مجموعة الهدندوة ومطاردتها لجماعة البلو التي كانت تسيطر على منطقة واسعة امتدت في الشمال حتى عيذاب ، وفي الجنوب حتى ولقايت داخل الحبشة . ثم تأثرت المنطقة الشمالية والغربية للحبشة بحروب الإمام أحمد بن ابراهيم الملقب بجرانج وملك الحبشة ، التي بلغت ذروتها في العقد الخامس من القرن السادس عشر . وكانت خاتمة المطاف في المنطقة الشمالية للحبشة وساحل البحر الأحمر ، بدخول نفوذ كل من البرتغال والأتراك ، والصراع بينهما حول التجارة ومراكز النفوذ . وبدأت في تلك الفترة تباشير النفوذ الاوروبي على ساحل إفريقيا الغربي في الزحف نحو الشرق .



كان لزاماً بطبيعة هذه التطورات المتلاحقة في فترة زمنية قصيرة ، أن يلجأ البيت الحاكم إلى الهجرة إلى مكان يجد فيه مأمناً لممارسة نشاطه الذي كان يعتمد أساساً على التجارة عبر حوض النيل الأوسط . وهذه التجارة كان يجري تبادلها في مراكز معينة وتنقل عن طريق الملاحة النيلية أو القوافل إلى أقصى الشمال الغربي ومختلف الجهات .

وليست هناك نصوص أو أصول تاريخية محلية تشير في وضوح إلى التاريخ الذي تم فيه انتقال البيت الحاكم من عاصمته في (لامول) على ضفاف نهر سيتيت بقرب مدينة أم حجر الحالية ، إلى (سنار) على ضفاف النيل الأزرق في السودان ، غير ما جاء في الروايات المحلية التي وصلت الينا عن أكثر من طريق ، ومنها المعروفة بمخطوطة كاتب الشونة ، والتي تشير إلى قيام السلطنة بعد أن تم التحالف بين قبيلة العبدلاب وبيت الفونج ، وأنهى مملكة علوة وتخريب عاصمتها سوبا .

ويقول الرحالة اليهودي المعروف (روبين) الذي زار الفونج في عام ١٥٢٢ م أنه أمضى في ضيافة السلطان عمارة فترة من الوقت في عاصمته لامول الواقعة على النيل (والمقصود هنا نهر سيتيت) ويصفه بأنه ملك أسود ويحكم السود والبيض . ومما نتبينه من رحلة روبين ، ان السلطنة كانت امتدت إلى أرض البطانة والنيل الأزرق حيث وصل إلى سنار ، قبل أن تنتقل إليها عاصمة الملك . وقد وصل روبين إلى لامول مع قافلة تألفت من ثلاثة آلاف جمل محملة بالسلع ، تحركت من مصوع في الجنوب ، مما يدل على انتعاش التجارة في تلك الفترة .

توسع مملكة الفونج إلى غرب أريتريا حتى مصوع

بعد تعزيز السلطان عمارة دنقس مؤسس مملكة الفونج التي عرفت بالسلطنة الزرقاء أو بسلطنة سنار ، أركان مملكته في السودان ، عمد إلى مد نفوذ السلطنة على الزعامات والرياسات التي كانت قائمة في شمال السودان حتى الشلال الثالث ، كما امتد إلى سواكن في شرق السودان ، ثم واصل



قائد الفونج وهو من العبدلاب نحو غرب أريتريا وشمالها حتى أخضع أقاليم البجة وممالكها – الدجن وغيرها – للسلطنة الزرقاء . واستمرت فتوحات الفونج نحو الجنوب حتى وصلت الى مصوع .

على ان سلطان الفونج لم يكن يتدخل في شؤون المشيخات الداخلية التي تخضع له، بل كان يكتفي بزعامته الرمزية التي لم تحتم على الزعامات المتحالفة ارسال جنودها ووضع مواردها تحت أمر السلطان في حالة الحرب ، بل اكتفى السلطان بنصيب من الضرائب التي كانت تجبى على البضائع الواردة . ولهذا فقد احتفظت مشيخات البني عامر والحباب التي خضعت للفونج باستقلالها الذاتي مع الخضوع الأسمي لسلطة الفونج . وقد زار شيخ قبائل البني عامر جمع بن عجيل بن علي محمد ضرار، وشيخ مشايخ جبال بني عامر الشيخ همد إدريس هاسري ، سنار لتقديم الطاعة والتعهد بتحصيل الزكاة ضمن من تحت سلطنتهم من القبائل . وكانت هذه الزكاة تسلم سنوياً لمندوب ملك سنار ، كما كان هذا المندوب يحمل كساوى شرف من الدمور وسيوفاً ويقدمها هدية من الملك للمشايخ والعمد والزعماء .

وكان سلطان سنار يكرس شيوخ القبائل وزعماء الأقاليم في سلطاتهم ، بأن يلبس الشيخ طاقية ذات قرنين مصنوعة من جلد ومحشوة قطناً تسمى (أم القرينة) ونحاساً يسمى (النقارة) . وقد ظلت أم القرينة والنقارة رمزاً لسلطة (دقلل) سلطان البني عامر في اريتريا حتى عهد الاحتلال البريطاني ، عندما ألغت السلطات البريطانية سلطان الدقلل وأعيد توزيع القبائل على أساس نظاراتها الخاصة المرتبطة بسلطة الدولة مباشرة . والنقارة عبارة عن طبل نحاس يدق عند إعلان الحرب أو مناسبات رسمية أخرى. ولا تزال الأسر الحاكمة القديمة كأسرة دقلل في بركة وأسرة الكنتيباي في الحباب ، وأسرة النائب في مصوع تحتفظ بهذه النقارة التاريخية .

وكانت لسلطان الفونج صلات وثيقة بالباشا التركي في موانىء البحر الأحمر (سواكن ومصوع) الذي كان يعتبر الممثل التجاري للسلطنة ،



كما كانت لها علاقات خارجية مع اليمن التي كانت تستورد منها السيوف والدروع ، ومع الهند وغيرها من بلاد الشرق الأقصى . كما كانت للسلطنة علاقات مع المغرب الأقصى عن طريق القوافل عبر كردفان ودارفور .

نظام الحكم في سلطنة الفونج

ويتبين من تاريخ سلطنة الفونج ان اللامركزية المطلقة كانت طابع الحكم في الديار المختلفة ، تمارسه وفق عاداتها وتقاليدها المحلية . وقد تميز الاتحاد بين المجموعات الإقليمية الذي تزعمه السلطان السناري بتقاليد (الجمهورية التجارية) على النحو الذي كان متعارفاً عليه في الجزيرة العربية ، مع ما دخل عليه من تعديلات اقتبست من مواطن الهجرات ، وقبيل انتقال البيت السلطاني إلى حوض النيل الأزرق .

وكانت التقاليد الخاصة بالجمهورية التجارية تربط بين الجماعات من أصحاب المصلحة الاقتصادية الذين يوجهون بالغ اهتمامهم نحو استثمار المال في مناطق معينة . وكان طبيعياً أن يمتد نفوذهم إلى المناطق التي تقوم على الطرق التجارية بين مراكز تجمع السلع ومراكز التسويق لتأمين المواصلات ، وتقديم ما تحتاج إليه القوافل أو السفن من مؤن ومعونة . وبذلك نشأت علاقات على امتداد الطريق التجاري بين سنار ومصوع ، ومدن مثل أغردات وبارنتو وغلوج وغيرها كانت في الأصل محطات للقوافل . وعرفت سنار في معظم أنحاء أريتريا بما كانت تجلبه حركة التجارة من واردات وصادرات ، وبقيت أسماء كثيرة كالطاقية السنارية رمزاً لتلك الصلة بين أريتريا وسنار حتى اليوم .

وقد قامت تنظيمات الإدارة في المشيخات التي دخل زعماؤها في حلف مع سنار سواء في أريتريا أو في شرق السودان وشماله في نطاق يكفل تأمين المصلحة التجارية فقط ، وترك كل شيء عدا ذلك يكيف نفسه وظروفه الخارجية . لهذا نجد أن السلطة السنارية بوصفها زعيمة الجمهورية التجارية لم تحاول القيام بتنظيم جهاز الحكم ليشمل جميع نواحي النشاط . إلا أن



الأسرة السنارية قد اكتفت بتطبيق تنظيمات الجمهورية التجارية . وكانت تصل التنظيمات جامدة تعطل معها النشاط الفردي . ومما يلفت النظر ان الأسرة السنارية لم تراع في تطبيقها تنظيماتها التجارية الاعتبارات المحلية ، ولم تدخل في حسابها المنافسة الخارجية التي جاءت في صورة أوضح مع البرتغاليين والتجار الأوروبيين من قبلهم بل حافظت على وتيرة واحدة من تنظيماتها ، وإنها أيضاً لم تأخذ بعين الاعتبار تطوير الإمكانيات الاقتصادية المحلية من زراعة وغيرها ، وتركت البلاد على حياتها القديمة .

وأهملت السلطة إيجاد بيئة مركزية لتنسيق جهود مختلف الجماعات في المشيخات نحو هدف يجمع بينها ، بل ترك كل أمر لا يتصل بالمصلحة الاقتصادية على حالته في نطاق التقاليد القديمة التي خضع لها توزيع الأراضي ، التي تجعل الزعيم مالكاً للأرض ، ولم تكن العلاقة بين المنتفع والزعيم قائمة على الولاء . وكان الزعيم أو السلطان يعتمد على جيشه المكون من الرقيق والمرتزقة ، وكان للشيخ أن يعلن الحرب على من يجاوره من زعامات من دون الرجوع إلى السلطان، مما جعل شعوب المنطقة تعيش في حروب دائمة، وخاصة بين البني عامر والهدندوة في الكلأ والمعاطن . وهكذا أخضعت أداة الحكم لنظامين متنافرين بالنسبة إلى المجتمع : أولهما نظام الجمهورية التجارية الذي يهدف إلى استغلال التجارة وطرق القوافل ، وثانيهما نظام الاقطاع الشرقي الذي يوزع الأرض على السكان للعمل فيها ، وللزعيم نصيب من إنتاجها . ولهذا لم يكن من السهل التوفيق بين هذين النظامين وقيام حكم صالح ، إلاّ إذا أعيد تنظيم الجمهورية التجارية والاقطاع الشرقي ، بما يكفل التطور الطبيعي لخلق قومية ومشاعر تلتقي عندها مختلف المجموعات القبلية . أما وقد أهملت الزعامات تنظيم الحكم بما يتجاوب مع خلق حياة جديدة عامة، دعامتها المنافسة الطليقة الحرة، فإن قوة الزعامات وضعفها وتدهورها وانحلالها كان مرهوناً بأثر العوامل الاقتصادية الخارجية من حيث قوة هذه العوامل أو ضعفها . وكانت من أسباب الانحلال والتفكك الذي أصاب السلطنة لتعطيله المجتمع كلية من ممارسة أقل حقوقه .



وقد حكم السلطنة في سنواتها الأولى التي جاوزت القرنين من الزمان ، سلاطين من أبناء الصلب للسلطان عمارة ، مؤسس البيت السناري في عاصمته في حوض النيل الأزرق . وبعد نهاية حكم الملك أونسه حوالى عام ١٧١٩ م انتقل الحكم بعد ذلك إلى بيت عين الشمس الذي كان يحكم في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، في منطقة عنسبة في أريتريا ، ويمت بصلة الرحم والمصاهرة إلى بيت الفونج . ثم انتزع الهمج ،وهم عنصر زنجي موطنه منطقة الرصيرص – الذين تولوا الوزارة – الحكم من هؤلاء السلاطين حتى قضى عليها محمد علي باشا والي مصر ، وهي في حالة من الضعف والانحطاط عند فتحه السودان في عام ١٨٢٠ م .

الحرب بين آل الفونج وبيت الدجن

ويبدو ان الفونج لم يتمكنوا من إخضاع مملكة الدجن التي كانت بزعامة البلو إلا بعد حروب طويلة . ويرجح المؤرخون ان خضوع مشايخ البني عامر والحباب للسلطنة لم يكن إلا في وقت متأخر – ربما في أواخر القرن السابع عشر . ودليل ذلك ان الملكة فاطمة التي عرفت باسم نجاشية الروم حاربت جيش الحبشة عندما غزا مملكتها في عام ١٦١٩ م وكانت ملكة لمملكة الدجن . وتقول المصادر الحبشية إنها أسرت ، وإن غنائم وأسلاب كثيرة أخذت من مملكتها . على أن هذا الهجوم الحبشي جاء في الوقت نفسه الذي تم فيه الهجوم على مملكة سنار .

والروايات المحلية المتداولة تشير إلى قصة فحواها ان فارساً من بيت الفونج قتل بأيدي أحد سلاطين البلو ، في بلاد الدجن ، في حوض بركة ، لكنه خلف طفلاً من أم بلوية . وكان الأطفال يعيرونه بسبة (ود رأس مد) إشارة إلى أن البلو بعد أن قتلوا والده جعلوا من جمجمة رأسه (مدا) أي (كيلا) للطعام . وما إن بلغ رشده حتى أخبرته أمه بقصة مقتل والده كاملة ، فكان ان استنجد بقومه من بني الفونج الذين سيروا معه جيشاً قضى على سلطنة البلو وأزال ملكهم وشتت شملهم . وعين هذا الفتى حاكماً من قبل



الفونج لمناطق خور بركة ، وظلت ذريته التي عرفت بعشيرة (النابتات) وزعيمها (الدقلل) تحكم قبائل البني عامر ومن جاورها مدى القرون الثلاثة الأخيرة .

وبصرف النظر عن صحة الرواية المتداولة وعدم صحتها ، فإنها تشير إلى أن البلو ومملكتهم الدجن لم تفقد سلطانها إلاّ بعد صراع مسلح مع سلطنة الفونج .

وإشارة أخرى إلى الحروب بين الفونج والدجن ، ما تتداوله القصص المحلية عن أن تسمية (القدين) — وهو تجمع سكاني زراعي مستقر على حوض القاش وينتمون قديماً بصلة إلى بلاد النوبة في غرب السودان ، مع تزاوجات واسعة مع البجة والعرب — تعود إلى كلمة (القد) بمعنى الخوف والتمزيق . ويقال إن أحد زعمائهم قال لآخر بعد معركة طاحنة مع فرسان الفونج (هؤلاء أحدثوا فينا قدا) — بمعنى خرقاً وتمزيقاً ، إشارة إلى خسائرهم الفادحة — فرد الآخر (بل قدين) — تأكيداً لعظم الخسائر ، فبذلك سموا (القدين) . ولا تهمنا هنا صحة الرواية بقدر ما يهمنا إثبات حقيقة المعارك الطاحنة التي دارت في المنطقة ، قبل أن يستسلم سكانها للغزاة الجدد . وتشير الحصون المنيعة الموجودة في جبال منطقة (القدين) إلى صحة هذا الاستنتاج ، على أن سكان القدين عرفوا بالفروسية ، وهم يربون الخيول العربية الأصيلة . كما عرفت المنطقة بمراكز التعليم الديني وحفظ القرآن الكريم .



الفصل التاسع

دخول الاسلام الى اريتريا
ونشوء امارات الساحل الاسلامية
ومملكة أمهرا الحبشيه

دخول الإسلام إلى أريتريا

تطرقنا في الفصل السابع الى دخول الاسلام في مناطق شمال اريتريا وغربها عن طريق التجار العرب والعلماء الذين استقروا بين ممالك البجة وحول مناجم الذهب في هجر وغيرها منذ القرن التاسع الميلادي . ونتطرق في هذا الفصل إلى صلات الاسلام الاولى بشواطىء اريترية منذ القرن السابع الميلادي .

فعلى اثر تكرّر غارات القراصنة على ميناء جده في عامي ٦٣٠ م و ٦٤٠ م من عدوليس التي وصلت اداراتها إلى مرحلة الذبول نتيجة الصراع الروماني الفارسي الذي اقحم اليمن واكسوم في حروب طويلة ، اضطر العرب الأمويون إلى الاستيلاء على جزر دهلك وشاطىء مصوع وعدوليس في عام ٨٤ هـ الموافق (٧٠٢) . وأقـام الأمويون هناك القلاع



والحصون وامنوا طرق التجارة ، فازدهرت البلاد وتشجّع العرب على استيطان المنطقة وتعميرها .

واصبحت هذه المنطقة بحكم موقعها على الساحل المقابل لجنوب الجزيرة العربية ، المجال الحيوي للجماعات التي خرجت من الجزيرة العربية للتجارة وطلب الرزق او لاتخاذ مواطن جديدة هرباً من حالات الذعر التي سادت الجزيرة العربية والعالم الاسلامي بسبب حروب الردة ، ثم حروب الامويين والعباسيين وحروب العباسيين مع العلويين ، مما أشرنا اليه في موضع آخر من هذا الكتاب .

وكانت القرون الثلاثة التي تلت القرن السابع الميلادي فترة تصاهر فيها العرب النازحون مع قبائل البجة التي اكتسحت المنطقة والقبائل الكوشية القديمة . وعن طريق المصاهرة والتجارة انتشر الاسلام حتى ان المؤرخ الايطالي كونت روسيني يشير إلى قيام ولايات اسلامية عربية مزدهرة في دهلك والشواطىء الاريترية في القرن الثامن الميلادي ، كما يشير صاحب اطلس التاريخ الاسلامي إلى هذه الحقيقة . (راجع الخريطة) .

ويعتقد ان قبائل الدناكل في جنوب اريتريا والسمهر في ضواحي مصوع تعد من اقدم سكان اريتريا اعتناقاً للاسلام . كما انتشر الاسلام بين قبائل الساهو التي تسكن في المنطقة الممتدة من خليج زولا إلى مرتفعات اكلي قوازي في القرن الرابع عشر عن طريق أسر دينية عربية اشهرها اسرة (بيت شيخ محمود) التي تسكن زولا وتدعي الانتساب إلى الزبير بن عوام. اما قبائل الساحل والبني عامر فقد انتشر الاسلام بينها ابتداء من القرن العاشر الميلادي . ويذكر تجار البندقية في القرن الخامس عشر قبيلة بيت معلا كقبيلة اسلامية تعيش في سواحل شمال اريتريا، وهو موطنها حتى الآن مع امتدادها إلى منطقة بركة . وكان لعائلة (عد شيخ حامد ولد نافعوتاي) تأثير كبير في نشر الاسلام بين قبائل الحباب والبني عامر . وتنتمي هذه الأسرة إلى اشراف قريش ، وقد قدمت إلى اريتريا عن طريق السودان ، ولها حتى الآن زوايا لتعليم الدين في (زقا شيخ) في محافظة



الساحل ، كما لها مركز آخر في (امبيرمي) على بعد ١٥ كيلومتراً شمالي مصوع ، وتعمر القرية باضرحة الاولياء من هذه الاسرة الدينية .

وخلال القرن التاسع عشر تحول عدد من القبائل الناطقة بالتجري والتي كانت تعتنق المسيحية، إلى الاسلام، ومنها الماريا والمنسع والبلين والبيت جوك والحباب بفروعها الثلاثة (بيت اسقدي ، عد تكليس ، عتماريام) وكانت اسر حاكمة نزحت من هضبة حماسين إلى المرتفعات الشمالية واخضعت لسلطانها قبائل التجري الكثيرة العدد ، كما اعتنقت قبيلة الباريا في وادي القاش الاسلام ، وكانت من قبل وثنية، وكذلك بعض من قبيلة البازا .

ويعود اسلام هذه القبائل إلى جهود السيد محمد عثمان المرغني ، مؤسس الطريقة الختمية الذي اوفده شيخه احمد بن ادريس من مكة في عام ١٨١٧ وبصحبته السيد محمد علي السنوسي ، مؤسس الطريقة السنوسية ، حيث افترقا بعد وصولهما إلى مصر ، فتوجه الأول صوب الجنوب إلى السودان ثم اريتريا ، وعاد بعد أن نشر الاسلام والطريقة الختمية إلى مكة ، مخلفاً عدداً من الابناء وا صلوا بعده جهوده ، بينما توجه الثاني إلى شمال افريقيا واسس طريقته هناك .

وهناك اسر دينية اخرى اقامت الزوايا لتعليم القرآن والدين في مختلف البقاع الاريترية ، أشهرها (عد شيخ) في الساحل و (عد سيدنا مصطفى) في بركة ، و (بيت درقي) و (عد معلم) في شمال اريتريا وغربها و (بيت الشيخ ابراهيم الخليل) في طيعو في دنكاليا وعائلة (كبيري) في الهضبة الاريترية ، وكانت بالاصل تقيم في جزر دهلك ، وهذه كلها بيوتات دينية كانت تتوارث تدريس الدين وتحفيظ القرآن مكرسة جهودها لرسالتها ، وتعيش شظف العيش معتمدة في اعاشة طلابها على هدايا عامة المسلمين واثريائهم، وتنتسب إلى العرب بصلة الرحم . وكان يبرز من بينها ومن عامة المسلمين فقهاء ينبغون في العلم واللغة العربية ويتلقون علومهم في زبيد او المدينة المنورة أو الأزهر . وعرفت قرية زولا بالزوايا



لتعليم الدين وقد تخرج منها عدد من الفقهاء .

وقد انتشر الاسلام في الهضبة الاريترية بين قوم عرفوا باحتراف التجارة يطلق عليهم (الجبرته) وهي كلمة اطلقت ايضاً على اماكن واقوام مختلفة في العصور الوسطى. فسميت (ايفات) في قلب هضبة (شوا) داخل اثيوبيا بالجبرته ، كما سميت زيلع في ساحل الصومال بهذا الاسم . بل اطلق هذا الاسم في بعض الاحيان على عموم مسلمي الحبشة، وفي الازهر في القاهرة رواق قديم يعرف برواق الجبرته . ويذكر الحيمي في كتابه (سيرة الحبشة) (١٦٦٥م) انه التقى بزعيم (آل كبيري صالح) في اندرته بهضبة التجراي ويقول ان اسرته تقوم في كل بلاد الحبشة بنشر الاسلام وتعليمه .

وهكذا انتشر الاسلام في سواحل اريتريا واجزائها الشمالية والغربية وفي قسم من هضبتها عن طريق عدوليس وباضع ، وهي الطريق نفسها التي دخلت منها المسيحية من قبل . ولم تحدث بين اتباع الطائفتين احتكاكات او حروب دينية ، بل تعايش السكان بما عرف عنهم من تسامح وبما كان بينهم من وحدة الاصول والمصالح التجارية والزراعية والرعوية المشتركة ، تعايشوا بسلام وفق شعار (لكم دينكم ولي دين) حتى تدخلت قوى اجنبية في القرن السادس عشر — برتغال واتراك — جرت اهل البلاد إلى صراعات طائفية .

ومن الملاحظ حتى الآن ان سكان أريتريا الذين اعتنقوا الديانتين — المسيحية والإسلام — ظلت نفوسهم مليئة بالرواسب الوثنية القديمة . ويعود ذلك إلى تفشي الجهل وانحسار التعاليم الدينية بين فئات قليلة ، خاصة ان القبائل الإسلامية تحترف في الغالب الأعم الرعي مما كان يصعب معه إنشاء مراكز ثابتة للعلم .

والحقيقة ، لم تنشأ في أريتريا في العصور الوسطى سلطة مركزية ، إلا ما كان من ممالك البجة ذات الأصول الرعوية وأمارات الهضبة الصغيرة . وفي دهلك نشأت إمارة تجارية .



على ان انتشار الإسلام لم ينحصر في السواحل الأريترية بل امتد عبر أريتريا إلى داخل الحبشة حتى تألفت سبع ممالك إسلامية عربية عرفت ببلاد الطراز الإسلامي (١) . ويعزو أولندورف (Ullendorff) في كتابه الأثيوبيون (The Ethiopians) سرعة انتشار الإسلام بين الأقوام الحامية الكوشية في سو احل أريتريا ودواخل الحبشة حتى بحيرات عروسي على مقربة من الحدود الكينية الحالية، يعزو ذلك الى رغبة هؤلاء القوم في النجاة بأنفسهم من الاسترقاق ، إذ كانت قسوة تجار الرقيق بالغة . وكان اعتناق الإسلام يمنح هؤلاء أماناً من غارات تجار الرقيق باعتبار ان الإسلام يمنع استرقاق المسلم . ويضيف ترمنجهام في كتابه (الإسلام في أثيوبيا) إن اعتناق هؤلاء الإسلام كان يشعرهم بالانتماء إلى أخوة عالمية ، من دون أن يكلفهم ذلك الانسلاخ من بيئتهم وعاداتهم التي كان دعاة الإسلام يتسامحون إزاءها .

ازدهار إمارة دهلك

اكتسبت إمارة دهلك أهمية تجارية كبيرة في العصور الوسطى . واستقل سلطانها عن صاحب اليمن وقد كان من قبل تابعاً له ، إلا ما كان من علاقة المداراة والاسترضاء عن طريق إرسال الهدايا من الرقيق والعسل والشمع . ووسع ممتلكاته حتى شملت جزر باضع ومناطق الساحل الأريتري ، وأجبر القبائل المجاورة على دفع الضريبة لعامله في باضع (مصوع) .

وصحب الانتعاش الاقتصادي نوع من الانتعاش الثقافي . فاستقر فيها العلماء وتأسست فيها زاوية لتعليم الدين واللغة . وتدل الخطوط الكوفية الجميلة التي وجدت منحوتة بكثرة في الأضرحة والقبور والمساجد والقصور

١ – هذه الممالك السبع هي إيفات ، داورة ، أرابيني ، هدية ، شرخه ، بالي ، دارة . وقد امتدت من زيلع في ساحل الصومال في خليج عدن حتى قلب شوا (إيفات) والى بحيرات عروسي . وجاءت تفاصيل ذكرها في كتب التاريخ العربية مثل كتاب (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) لابن فضل الله العمري ، وكتاب (الإلمام بمن في الحبشة من ملوك الإسلام) للمقريزي .



إلى انتعاش حركة الثقافة . وقد أشار كل من المسعودي وابن حوقل إلى ازدهار التجارة في جزر دهلك وخاصة تجارة الرقيق السيئة الصيت .

ويتحدث سكان دهلك اليوم لهجة (تجري) محرفة تمتزج فيها ألفاظ من اللهجات الدنكلية والعربية والتجرينية ، دلالة على الصلة التاريخية للجزر بالأقاليم المجاورة ، وانتقال السكان واختلاطهم لأغراض التجارة والحروب والتعليم .

مناطق أريتريا الإسلامية كما يصفها ابن الفضل العمري

أشار المؤرخ العربي المشهور ابن فضل الله العمري في مخطوطته (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) المؤرخة في ١٣٤٩ م والمحتفظة صورة شمسية منها في دار الكتب المصرية في القاهرة ، إلى الروايات التي حكاها الشيخ عبد الله الزيلعي عن السلطنات التي أقامها العرب المسلمون في السواحل الأريترية والصومالية وجنوب الحبشة . ويقول إن جميع ملوك المسلمين في الحبشة تعظم صاحب إيفات وتنقاد له بالمعاضدة في بعض الأوقات . والطريق إلى إيفات من مصر شعبة من الطريق العظمى الآخذة إلى بلاد (امحرا) وسائر بلاد الحبشة . ويصف العمري الأقاليم التي تشكل أريتريا المعاصرة فيقول :

« تجاه هذه البلاد باضع وسواكن ودهلك وكلها مسلمون قايمون وأرضها أصعب مسلكاً لكثرة جبالها الشامخة وعظم أشجارها واشتباكها ببعض حتى أنه إذا أراد ملكها الخروج إلى جهة من جهاتها يتقدمه قوم مرصودون لإصلاح طرقها بآلات لقطع أشجارها ، ويطلقون فيها ناراً لحريقها ، وأولئك قوم كثير عددهم ، ولا يملك بلادهم غيرهم من النوع الإنساني لأنهم أجبر بني حام وأخبر بالتوغل في القتال والاقتحام ، طول زمانهم مسافرون وفي صيد وحش البر راغبون . ومما يدل على قوة خيلهم انهم لا يلبسون ولا يلبسون خيلهم عند القتال شيئاً . والمشهور عنهم مع ما



لهم من الشجاعة يقبلون الحسب ويصفحون عن الجرايم ، والمصطلح بينهم ان من رمى سلاحه في القتال يحرمون قتاله ، ومع كونهم جنساً واحداً ينطقون بألسنة شتى . . . وبلادهم من الجهة الشرقية المايلة ، إلى بعض الجهة الشمالية بحر الهند (يقصد البحر الأحمر) واليمن ، والجهة الغربية إلى بلاد التكرور ، وأولها مفازة تسمى (وادي بركة) يتوصل منه إلى إقليم يسمى (سحرت) . وأما لباس أهل البلاد المذكورة في الشتاء فهو لباسهم في الصيف ، الخواص منهم والأجناد ، قماش حرير وأبراد هندية وما شاكل ذلك ، والعوام ثياب قطن منسوج غير مخيط لكل نفس ثوبان . وسلاح المقاتلين منهم القسي والنبال الشبيهة بالنشاب والسيوف والمزاريق والحراب . وغالب أهل البلاد يتعاملون مقايضة بالأغنام والأبقار والحبوب وغير ذلك . وأواني طعامهم فخار ووقودهم شمع ومصابيحهم وقودها بشحوم البقر » .

وهذا الوصف الدقيق يعطينا صورة متكاملة عما كان عليه سكان أريتريا من أحوال اجتماعية ومعيشية جدير بالدراسة .

نشوء مملكة الأمهرا

بعد هزيمة حكم أكسوم لليمن على أيدي الفرس واليمنيين وهيمنة الفرس على البحر الأحمر وانحسار النفوذ الروماني من عدوليس وموانىء البحر الأحمر الأخرى ، بدأت سلطة أكسوم تضعف . وزاد عزلتها زحف قبائل البجة القوية وانتشارها من مملكة النوبة ووادي النيل إلى شاطىء البحر الأحمر حيث طاب لهم المرعى ، فتوغلوا في هضبة أريتريا والتجراي ، ولم يكن لمملكة أكسوم أيّ حول أو قوة للوقوف في وجههم ، فاستولوا في طريقهم على منطقة الحماسين ثم زحفوا نحو أكسوم ، مما اضطر شعب أكسوم إلى الهجرة إلى الجنوب . وباحتلال العرب المسلمين لسواحل البحر الأحمر ومصر وبلاد الشام ، واندحار الأمبراطورية الرومانية البيزنطية ، حليفة أكسوم ومصدر ثرائها المادي والروحي أمام الزحف العربي، انقطعت صلة أكسوم بالعالم .



ولم تعد أكسوم في القرن الثامن الميلادي بمستطيعة أن تحتفظ باستقلالها، إلاّ في مقاطعة تجراي والأماكن الجنوبية منها التي اضطروا إلى النزوح إليها، حيث كانت تعيش قبائل الاقو الوثنية .

ونشر سكان أكسوم لغتهم — جئز — وديانتهم المسيحية الأرثوذكسية بين هذه القبائل الوثنية وتمازجوا معهم ، وأولئك بالأصل قوم من الكوش ، وتكونت من التمازج خلال القرون الثلاثة عناصر جديدة طورت لغة خاصة لها سميت (بالامهرا) . واحتلت هذه العناصر أقاليم تجراي ولاستا ، التي كانت تسمى إقليم الأمهرا وشوا وغوجام . وهكذا ، فإن الامهرا هم قوم نتج من التزاوجات التاريخية بين سكان أكسوم ذوي الأصول السامية الكوشية مع القوم من الكوش عنصراً وثقافة . فهم إذا القوم الهجين الذين غلبت عليهم الثقافة السامية .

ومنذ ذلك الوقت بدأت تتكون ما يمكن أن نطلق عليه (دولة الحبشة) الحقيقية تمييزاً لها عن دولة أكسوم التي اضمحلت وتميزت بطابعها الخاص . وهذا الهجين المختلط (الامهرا) إنما هو نتاج تفاعل من طبقة الساميين وأهل البلاد الحاميين ، ومن بينها قبائل الاقو الكثيرة العدد . وتعددت اللغات والطوائف في هذه المملكة الجديدة، ولكن اللغات السامية سادت (جئز — امهرية) والديانة الأرثوذكسية المسيحية .

وفي منتصف القرن العاشر الميلادي وجد اليهود الفرصة سانحة لامتلاك ناصية حكم البلاد بعد انازدادت حالة البلاد سوءاً على أثر تدمير مملكة أكسوم وانعزالها عن العالم الخارجي . فقامت امرأة يهودية كانت متملكة على قبيلة (الفلاشا) اليهودية من عنصر الاقو في منطقة سمين الواقعة شمال الحبشة ، وهي منطقة نفوذ يهودي منذ عصر قديم، ويطلق على هذه الملكة (يوديت) أو (أستير) وزحفت على رأس ثوار اليهود تساعدها جموع من قبيلة زاقوي ، وهم فرع من الاقو الكوشيين ، وغزت الملكة البلاد وأحرقت المدن وخربت الكنائس واستولت على مملكة أكسوم وذبحت كل الثوار المسيحيين الذين كانوا يتحصنون في قلعة (دامبو) ، ونصبت نفسها ملكة



على الحبشة ، وعرفت أسرتها بأسرة (زاقوي) وحكمت البلاد نحو ثلاثة قرون ، بعد أن اعتنق ملوكها المسيحية . وأشهر ملوكهم لاليبيلا الذي أسس الكنيسة المشهورة المنحوتة في جبل في لاستا ، والتي لا تزال باقية كقطعة أثرية جميلة .

وقد انتهى حكم هذا البيت على يد يكونو أملاك الذي أنشأ ما سمّي بالبيت السليماني – نسبة إلى النبي سليمان الحكيم في عام ١٢٧٠ م بعد أن تعاون معه الأب تكلاهيما نوت نظير منح الكنيسة ثلث الأراضي في البلاد .



الفصل العاشر

ملوك الامهرة يطمعون في السيطرة على الساحل الاريتري

★

تدخل البرتغال والاتراك والحروب الدينية

دوافع الموقف العدائي تجاه إمارات الساحل من قبل الأمهرا

كان عهد أسرة زاقوي عهد سلام بالنسبة إلى جيرانهم من ممالك الطراز الإسلامي وممالك الساحل الأريتري والصومالي من زيلع حتّى سواكن .

ولكن ما إن سيطر يكونو أملاك على عرش مملكة الحبشة حتّى بدأ سلسلة من الحروب الدينية ، كانت الأولى من نوعها في الحبشة ، واستهدفت دويلات الطراز الإسلامي . ويقول الشاطر البصيلي في مؤلفه (تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط) :

« إن تلك الكراهية التي أظهرها يكونو أملاك ليست أسبابها دينية ، بل كانت أولاً وقبل كل شيء بسبب سيطرة المسلمين على التجارة في داخل الحبشة وخارجها ، ولأنهم كانوا أيضاً يسيطرون على الموانىء وعلى طرق القوافل » .



ويقول عبد المجيد عابدين في كتابه (بين العرب والحبشة) :

» إن سوء العلاقة مع إمارات الساحل تأثرت بما كان بين مملكة أكسوم واليمن من حروب قديمة . فكانت هذه الإمارات التي نشأت في باضع (مصوع) ودهلك وزيلع وسواكن تمثل الدولة العربية القديمة — دولة حميَر — فيما كان بينها وبين أكسوم من حملات . فوجهت مملكة أمهرا الحبشية حملاتها كما كانت مملكة أكسوم توجه حملاتها قديماً على حميَر ، ونظرت إليهم على أنهم عرب مناوئون « .

وأياً كانت الدوافع ، فإن العداء الذي أظهره يكونو أملك أدى إلى نتائج خطيرة وترتبت عليه حروب دينية امتدت طيلة القرون الثلاثة التي تلت ، وخلفت آثاراً سلبية على طبيعة العلاقة بين أتباع الطائفتين لا تزال البلاد تعاني منها.ووصلت تلك الحروب الىذروتها بتدخل البرتغال والأتراك.

وكان سلاطين مصر يتدخلون لإصلاح ذات البين بين الولايات الإسلامية ومملكة الحبشة مستغلين أحياناً بطريرك الإسكندرية للتأثير على ملوك الامهرا . كما كان ملوك الحبشة يتدخلون ارفع الظلم عن أقباط مصر ، كما حدث في عهد بعض الخلفاء الفاطميين .

غارة الملك إسحاق على الساحل الأريتري

في عام ١٤٢٠ م أغارت جحافل الملك إسحاق بن داود ، ملك الامهرا على السواحل الأريترية ودمرت قرى (حرقيقو) و (زولا) و (باضع) ، ونهبت المتاجر والأغنام والماشية . وانتقل عدد كبير من السكان إلى الجزر المجاورة للشاطيء كجزر (شيخ سعيد) و (نورة) ، وانتقل البعض الآخر إلى جزر دهلك التي كانت مقراً للأمير الحاكم .

وتراجع الجيش الأمهري بعد أسبوع تحت وطأة الحرارة الشديدة التي أفنت الكثير من جنده ، وتحت ضربات قبائل البجة التي جمعت جموعها لمواجهة الغزاة .

وعندما فشلت جهوده وجه إسحاق همه للتحالف مع ملوك أوروبا



وتدبير هجوم شامل على بيت المقدس ومكة والسيطرة على البحر الأحمر ، لكنه وجد أنّ اعتماده على إرسال مبعوثيه إلى ملوك أوروبا في موسم الحج إلى بيت المقدس، لا يحقق له أهدافه في سرعة نظراً لطول مدة السفر في فترة معينة من السنة ، مع أخطار السفر عبر مناطق الساهو والبجة الذين كان بينهم وبينه العداء . لذلك رأى أن يتبع طريقاً آخر عبر مصر . فاختار تاجراً مسلماً اسمه نور الدين التبريزي ، يقول عنه المقريزي أنه تاجر فارسي يتفاخر بما ليس عنده. وعمل نور الدين في شراء السلاح والخيل للملك الامهرا. وفي عام ١٤٢٨ م وشى به أحد الجبرتة في مصر إلى الوالي الذي أمر بالقبض عليه ، فوجدت معه مراسلات من صاحب الحبشة ، كما وجدت معه أمتعة من ملابس الفرنجة ، وعقد له مجلس، وبعد إجراءات المجلس حكم عليه بالإعدام وضرب عنقه في القاهرة . ومات إسحاق من دون أن يبلغ مقصده .

زرا يعقوب يواصل مساعي والده إسحاق

واصل زرا يعقوب مساعي والده للتحالف مع ملوك أوروبا وإحراز السيطرة على السواحل الاريترية . وتسلم رسالة من الملك الفونسو الخامس (ملك أراجون) في عام ١٥٤٠م يرحب فيها بعقد تحالف بينهما للاستيلاء على سواحل البحر الأحمر وبيت المقدس والسيطرة على تجارة الشرق وتمليك الحبشة شواطىء بحرية . ولكن صعوبة المواصلات لم تساعد على إبراز الحلف إلى حيز الوجود .

الملكة هلينا تطلب مساعدة البرتغال

بنــاء علىَ نصيحة المبشر البرتغالي بدرو دي كوفلهام (Pedro de Covilham) قررت الملكة هلينا التي كانت وصية على ابنها لبنا دنقل (١٥٠٨ ـــ ١٥٤٠ م) أن تستعين بالأسطول البرتغالي للاستيلاء على سواحل أريتريا والصومال . فأرسلت وفداً إلى الملك عمانويل ، ملك البرتغال تحثه على ذلك .



وحقق الملك لبنا دنقل انتصاراً في إحدى معاركه مع الأمير محفوظ ، أمير عدل وزيلع في عام ١٩١٦ في الوقت الذي دمر فيه الأسطول البرتغالي الذي وصل إلى البحر الأحمر ميناء زيلع بقيادة لوب سواريز (Lope Soarez) وازدادت آمال لبنا دنقل في الاستيلاء على السواحل بمساعدة البرتغاليين .

وفي عام ١٥٢٠ وصلت بعثة برتغالية برئاسة رودريجو دي ليما (Rodrigo de Lima) حاملة هدايا رمزية من قطيف وحرير من دون أية أسلحة نارية . وعرضت البعثة البرتغالية على الملك لبنا دنقل مشروعاً بمقتضاه تسيطر البرتغال على سواحل البحر الأحمر ، وتتولى حماية مملكة الحبشة من أي اعتداء خارجي . ورأى الملك الحبشي في ذلك فرض نوع من الحماية ، خاصة ان الخلاف المذهبي بين الكاثوليكية والأرثوذكسية التي تدين بها الحبشة ليس بالأمر اليسير . ولم يحقق الطرفان باختلاف مطامعهما اتفاقاً يذكر ، وعادت البعثة إلى بلادها عبر مصوع في عام ١٩٢٦ .

الأسطول البرتغالي يسيطر على مصوع

كانت مصوع في مستهل القرن السادس عشر قرية صغيرة بيوتها من قش ، ما عدا مسجدها ودار أميرها البلوي ، فقد كان هذان مبنيين من احجار . وكانت أهميتها تكمن في مرساها الذي تتردد إليه بعض السفن من الجزيرة العربية ومن سواكن وأسواقها العامرة بالقوافل التجارية التابعة لمملكة سنار والحبشة وإقليم البجة .

وعندما هبطت قوة بحرية برتغالية في ١٠ ابريل (نيسان) ١٥٢٠ لم تصادف مقاومة تذكر ، إذ كانت مزودة بأسلحة نارية ، فكان أن حول الأب الفاريز المسجد إلى كنيسة لمصلحة الجنود البرتغال . وأدى احتلال البرتغال للميناء إلى تدهور حركة التجارة وهروب التجار اليمنيين والهنود .

وتعرضت الحملة إلى المضايقات المستمرة ، فقد رفض الأهالي بيع المياه لهم ، ومصوع جزيرة لا ماء فيها إلاّ ما يجلبه السقاة من ضواحيها . وتعذر عليهم شراء اللحوم والألبان، فكانوا يأخذونها عنوة، وكانت المناوشات



الطابع المميز لعلاقات هؤلاء الغزاة الجدد بالأهلين . ورفض أمير مصوع البلوي إعطاء دليل للبعثة البرتغالية يوصلها إلى حدود الحبشة ، ولما لم ينفعه التهديد استعان قائد الأسطول البرتغالي دون دييجو لوبيز دي سكويرا (Don Diego Lopes de Sequeira) بدليل أرمني يعرف مسالك تلك البلاد واسمه ماثيو ، وقد مات متأثراً بالحمى في منتصف الطريق ، ودفن في دير دبر بيزن في اكلي قوزاي .

الإمام أحمد بن إبراهيم الملقب بـ (جرانج) يكتسح مملكة الحبشة

لم يدم انتصار لبنا دنقل الذي أشرنا إليه على سلطنة عدل طويلاً . فقد تمكنت هذه الإمارة التي كان يتألف سكانها من الصومال والمولدين العرب والدنا كل من استعادة قوتها، بعد أن تولى زمام أمورها أحد الفرسان ، واسمه الأمير أحمد بن إبراهيم ، وعرف في ما بعد بالإمام وعند الأحباش بـ (جرانج) أي الأعسر . وعن طريق مصاهرة محفوظ ، أمير زيلع تمكن هذا الشاب من أخذ السلطان بيده . وبمصرع أمير هرر أبو بكر ، بسط الإمام أحمد نفوذه على هرر ، وكانت معقلاً هاماً للمسلمين . وعندما فرغ من هذا الأمر أخذ يعمل على تحقيق الهدف الأكبر الذي شعر بأنه قد خلق له ، وهو أن يكون إماماً للمسلمين وأن يستولي على جميع أرجاء الحبشة . وسرعان ما أعلن رفضه دفع الجزية للملك لبنا دنقل ، وعندئذ أصبح قيام الحرب بينهما أمراً لا مفر منه ، وعندما تحركت الحبشة واجتاحت سلطنة عدل تصدى لها الإمام وهزمها شر هزيمة .

ومنذ ذلك التاريخ ـ حوالى ١٥٢٣ م ـ أحرز الإمام أحمد انتصارات متوالية واجتاح مملكة الحبشة بأسرها حتى اتصل بإمارات الساحل في مصوع وسواكن وإمارة الدجن في حوض القاش وبركة في غرب أريتريا ، ونصب أحد الأمراء حاكماً لحماسين ، واتصل بسلطان الفونج في سنار في السودان ، كما سجل تفاصيل وقائعه شهاب الدين الملقب بعرب فقيه الجيزاني في كتابه



(فتوح الحبشة) حيث واكب الإمام في غزواته . واتسمت تلك الفتوحات بقدر كبير من القسوة ضد المؤسسات المسيحية الحبشية ، فأحرقت الأديرة والكنائس والقصور والكتب ، كما رواه عرب فقيه ، مما خلف في نفوس الأحباش ذكريات مريرة تجلت في نظرة الأحباش المريبة تجاه الإسلام والمسلمين في الحبشة . ويعلل عرب فقيه قسوة الإمام بما كان يفعله ملوك الحبشة بالإمارات الإسلامية التي كانت غاراتهم التدميرية لا تنقطع عنها حتى أجبر (الحطي) — يعني ملك الحبشة — إمارة هدية الإسلامية على أن تدفع ضمن جزيتها السنوية بنتاً من بنات أمرائها الجميلات ، فينصرها (الحطي) ويتزوجها . وكان هؤلاء قبل أن يسلموا البنت يغسلونها ويكفنونها ويصلون عليها صلاة الجنازة معتبرين خروجها عن دينهم موتاً . لقد كان عصر اتسم بالتعصب الديني الذي لا يتسق ومقاصد الأديان بنشر المحبة والتسامح بين بني الإنسان .

نجدة برتغالية جديدة تهزم الإمام أحمد

تحت ضغط الاجتياح الإسلامي اضطر لبنا دنقل ، وهو الذي تحول إلى طريد شريد يتنقل من جبل إلى آخر فراراً بحياته ، أن يوفد جاوو برمودز (Joao Bermudez) إلى البرتغال طالباً النجدة بعد أن نصبه مطراناً على بلاده المغلوبة على أمرها طمعاً في كسب التدخل البرتغالي ، مع أن برمودز كاثوليكي متعصب لكثلكة الحبشة ، ولكن للضرورة أحكام. وسافر برمودز عن طريق مصوع التي كانت في أيدي البرتغاليين في عام ١٥٣٥ م في رحلة شاقة طويلة إلى جوا في الهند أولاً ، ثم عبر رأس الرجاء الصالح إلى البرتغال . واستغرقت الرحلة أكثر من عام .

وأخيراً وصلت النجدة البرتغالية . فقد هبط القائد البرتغالي مويتو جنتهلون المعروف باسم كرستفاو أو كرستوفر (وهو الابن الرابع لمكتشف طريق رأس الرجاء الصالح — فاسكو دي جاما) في مصوع في ٩ يوليو (تموز) ١٥٤١ في يوم شديد الحر ، مما اضطره إلى خلع ملابسه الحريرية المطرزة بالذهب والمرصعة بثمين الجواهر ، وكان في ركابه ٤٥٠ جندياً



برتغالياً مسلحين بعشرة مدافع وبنادق الماتشلوك التي تطلق الرصاص بإشعال مؤخرتها بعود كبريت، وكانت وقتها سيدة الأسلحة النارية. وتوغلت الحملة إلى المرتفعات الأريترية حيث عسكرت في (دباروا) حتى نهاية فصل الأمطار في سبتمبر (أيلول) على ضيافة ملك دباروا — إسحاق بحر نجاش — الذي انضم إلى الحملة ، وهو الذي تحالف في ما بعد مع الأتراك ونائب مصوع ضد حفيد لبنا دنقل كما سيأتي تفصيله .

وكان لبنا دنقل قد مات في عام ١٥٤٠ م وهو في أسوأ حالات البؤس والهزيمة ، وتولى ابنه قلاوديوس العرش ، ووصلت إليه النجدة البرتغالية فاشتبك مع الإمام أحمد في موقعتين أصيب الإمام في إحداها بجروح وأوقعت الأسلحة النارية بجيشه خسائر كبيرة ، فاضطر إلى الانسحاب نحو قواعده في الشرق واستنجد بالأتراك في اليمن ، فأمدوه بعشرة مدافع وبعض البنادق والفرسان. وعاود الهجوم وأباد نصف القوة البرتغالية وقتل قائدها كريستوفر. وأحس الإمام بعدها بقوة مركزه فأعاد النجدة التركية إلى اليمن ، خشية تسلطها عليه على ما يقول ترمنجهام في كتابه : الإسلام في أثيوبيا .

واستعاد قلاوديوس والبرتغاليون أنفاسهم وصنعوا ذخائرهم من مواد محلية ، وأعدوا عدتهم للمعركة الفاصلة التي وقعت في اكتوبر (تشرين أول) ١٥٤٢م فانتصروا على الإمام أحمد، وأصيب بجراح قاتلة ودفن بالقرب من بحيرة تانا ، وتفرق شمل جيشه الذي أنهكه القتال . وسارعت أقاليم الهضبة الحبشية لتقديم فروض الطاعة مرة أخرى لمليكها .

أمراء مصوع وزيلع ودهلك وسواكن يستنجدون بالأتراك

مع وجود أسباب محلية استوجبت هذا الصراع التاريخي الطويل بين أتباع الطائفتين — الإسلامية والمسيحية — في الحبشة ، سواء أكانت تلك الأسباب تجارية أو دينية أو اقتصادية أو سياسية ، فإن الصراع لم يخل من عوامل خارجية . فقد كانت البرتغال وتركيا — وكانتا حينئذ القوتين



البحريتين الأعظم – تطمعان في السيطرة على طرق التجارة في البحر الأحمر، ومد نفوذهما على شطآنه .

وكان السلطان سليم قد أطل على البحر الأحمر بعد أن استولى على مصر في سنة ١٥١٧ م ، فبدا له أن ينازل البرتغاليين الذين كانوا قد سيطروا على معظم موانئه المشهورة في الساحل الإفريقي – سواكن ، مصوع ، زيلع . وورث عنه ابنه سليمان القانوني أحلامه ، فوصلت فتوحاته إلى اليمن ، وحينئذ أحس بقدرته على منازلة البرتغاليين في البحر واحتكار تجارة الشرق .

لم يغفل أمراء مصوع ودهلك وزيلع وسواكن أمر الاستعانة بالأتراك ، وهم إخوتهم في الدين في عصر بلغت فيه حمى التعصب ذروتها ، لطرد البرتغاليين . فأجروا الاتصال بالباشا التركي في زبيد في اليمن يطلبون نجدته . كما اتصلوا بتجار الكتلان الأسبان وكانوا منافسين ألدّاء للبرتغاليين .

وكان البرتغاليون يتفوّقون على الأتراك العثمانيين في صناعة السفن ، فقد حفزهم اكتشافهم لطريق رأس الرجاء الصالح عبر إفريقيا إلى الهند ، على إدخال تحسينات على سفنهم لمواجهة الأسفار في أعالي البحار . فكبر حجمها وازدادت أشرعتها وأدخلت تحسينات عديدة على تصميماتها وصناعتها ووسائل تسليحها ، مما كان له أكبر الأثر في تفوقهم البحري ، مما جعل الأتراك يتأخرون في منازلتهم .

وأمد التجار الكتلان امارات زيلع ومصوع وسواكن بعدد من السفن ، وساعدوهم في تحسين بناء سفنهم المحلية ، ولكن ساعة الحسم لم تأت إلاّ بعد أن استكمل الاتراك بناء أسطولهم .

وكان لسيطرة البرتغال على موانىء البحر الأحمر تأثير عكسي ، إذ لم يكن هدفهم إنعاش التجارة في المنطقة ، بل قصدوا منع مرور تجارة الشرق عبر البلاد العربية . وكانت التجارة بالنسبة الى موانىء البحر الأحمر والأقطار العربية مصدر النشاط الاجتماعي والاقتصادي . ويوضح ما كتبه المؤرخ المصري ابن الياس هذه الحقيقة فيقول : « تزايد الضرر من الفرنج وترادفت مراكزهم ببحر الحجاز (البحر الأحمر) حتى بلغوا فوق

عشرين مركباً ، وصاروا يعبثون على مراكب تجار الهند ويقطعون عليهم الطريق في الأماكن المخيفة ، ويأخذون ما معهم من بضائع حتّى عزّ وجود الشاشات والأرز في مصر وغيرها من البلاد » .

وهكذا كان الأسطول البرتغالي يفرض حصاراً قوياً لمنع السفن القادمة من الهند والشرق من دخول البحر الأحمر . وقصدهم من كل ذلك توجيه طرق التجارة عبر رأس الرجاء الصالح واحتكارها لأنفسهم وفرض الضرائب عليها . وآلت موانىء البحر الأحمر – مصوع ، سواكن ، زيلع ، مخا ، الحديدة ، عدن ، جدة ، العقبة ، السويس – إلى خراب ، وانقطع أيضاً ورود البضاعة الأوروبية .

وفي عام ١٥٣٨ م أتمّت الدولة الترّكية بناء أسطولها في السويس بعد أن جلبت الأخشاب من جبال طوروس في هضبة شمال العراق وسوريا . وتمكن الأتراك العثمانيون من احتلال عدن في عام ١٥٣٨ م ، ثم تعاركوا مع الأسطول البرتغالي في المحيط الهندي . وأخيراً ألحق سنان باشا الهزيمة بالأسطول البرتغالي في موقع بين مصوع وسواكن ، وكان يقوده دون جوان دي كاسترو ، واستولى على مصوع وسواكن في عام ١٥٥٧ م . وطرد البرتغاليون من المنطقة نهائياً . وحلت السيادة العثمانية على طول شواطىء البحر الأحمر .

إمارة دباروا تتحالف مع الأتراك
والملك صرصا دنقل يحاصر مصوع

بعد ان استقر الأتراك في مصوع ، جعلوا أميرها البلوي الذي استنجد بهم ضد البرتغال نائباً للخليفة العثماني (١) في البلاد ، ومنح الصلاحية

١ – ظلت الأسرة الحاكمة في مصوع حتّى هذا العهد تحمل (لقب النائب) . وكان مركز النائب (حرقيقو) وأحياناً (أم كلو) وليس جزيرة مصوع الميناء ذاتها . وفي عام ١٩٧٣ انتزعت السلطات الحبشية (النيابة) الاسمية في حرقيقو من النائب عبد الكريم محمد أحمد وعينت مكانه أحد المواطنين (شيخاً للسوق) .



ليتصرف في شؤونها الداخلية وليشرف على جماركها وينظم أمور عشائرها ، كما نصت الاتفاقية ، على أن تبقى الحامية العسكرية التركية في قلعتها لحماية البلاد من الأخطار الخارجية .

ثم فكر الأتراك في توسيع ممتلكاتهم نحو الداخل، ولا سيما أن هضبة الحبشة المطيرة الدائمة الربيع تغري دوماً الغزاه الطامعين . فتوغلت القوات التركية بقيادة ازدمور باشا واحتلت إمارة دباروا وكانت مقراً لبحر النجاش— أي ملك البحر ،وكان اسمه إسحاق، وهو الذي سهل وصول النجدة البرتغالية لملك الحبشة ، كما سبق ذكره .

وكان إسحاق مستقلاً بالسلطان في الهضبة الأريترية وعاصمته في الطرف الشمالي الشرقي من اقليم سراي ، وعلى تخوم إقليم حماسين . وكان طموحاً يرنو ببصره إلى توسيع ملكه إلى حدود مملكة أكسوم التاريخية بضم إقليم التجراي إليها . وتحالف لهذه الغاية مع زعماء التجراي – حملمال وحاربو وفاصيلو ، كما تحالف مع نائب حرقيقو ليتمكن عن طريقه من الوصول إلى الأتراك والحصول منهم على أسلحة نارية . وفي مقابل ذلك سمح للأتراك ببناء قلعة ومسجد في عاصمته دباروا ، فأصبح عملياً تحت حمايتهم . ودخلت في الحلف الجديد ملكة (مزجة) البلوية التي كانت تحكم حوض القاش ويصل نفوذها إلى إقليم (ولقايت) في تجراي ، وكانت تسمى جعيوه ، كما جاء ذكرها في موضع آخر عند حديثنا عن مملكة الدجن .

زحفت القوات المتحالفة إلى هضبة التجراي واحتلت منطقة (دبرا دامو) . وكتب إسحاق بحر نجاش إلى الملك الإثيوبي (صرصا دنقل) الملقب بـ (ملك سجد) رسالة يعرب فيها عن تحديه ويقول « لم يكن تحالفي مع الباشا التركي بواسطة سفراء ، ولكنه تحالف تم بالجلوس مع الباشا في مائدة واحدة وعلى قدم المساواة » .

زحف (صرصا دنقل) لملاقاة القوات المتحالفة التي اعتدت على بلاده . ووقعت معركة حامية الوطيس في (تمبين) في هضبة التجراي في عام ١٥٧٨ م انتهت بهزيمة الأتراك وحلفائهم . وقتل أزدمور باشا كما قتل



إسحاق بحر نجاش والملكة جعيوة وعدد كبير من جنودهم. ولما وضع رأس الباشا التركي مع رأس إسحاق في بساط أمام صرصا دنقل ، قال متشفياً « هكذا أردت يا إسحاق أن تكون مع الباشا في بساط واحد وعلى قدم المساواة في الحياة وفي الممات » .

ثم واصل صرصا دنقل زحفه إلى دباروا، فدمر القلعة التركية ومسجدها، كما أباح المدينة للنهب مما دفع السكان للجوء إلى السواحل الأريترية حيث استضافهم نائب حرقيقو .

وفي عام ١٥٨٩ م وصلت قوات صرصا دنقل إلى حرقيقو التي كانت مقراً للنائب وللحامية التركية ، ونشبت معارك عنيفة في التلال المطلة على المدينة قتل فيها الباشا التركي كداورد ، كما قتل أربعة من أشقاء النائب وعدد كبير من جنوده . ونقل الأهالي كعادتهم عند حدوث هجوم أثيوبي إلى جزيرة شيخ سعيد والجزر الأخرى ، وأغلقوا أسوار المدينة ، فضرب صرصا دنقل الحصار عليها حتى اتفق الطرفان على عقد صلح وقدم الأتراك ونائب حرقيقو هدايا للملك تضمنت فرساً عربية أصيلة مسرجة بالذهب . وعادت قواته إلى بلادها .

والذي يلفت النظر هو تحالف إسحاق مع الأتراك، وهم أعداء الأمس، وفي عصر كان التعصب الديني طابعه العام . ويمكننا أن نفهم الدوافع ، إذا ما علمنا هدف إسحاق (بتحرير إقليم تجراي) من سيطرة الامهرا ، فالعامل القومي هنا لعب دوره ، والشعور بالوحدة بين المتحدثين بالتجرينية غلب على الشعور الديني ، في وقت كان الامهرا يحاولون تعزيز سيادتهم على إقليم التجراي .



الفصل الحادي عشر

علاقة اريتريا مع الحبشة
في عهد ملوك غندر
(القرنان السابع عشر والثامن عشر)

الملك فاسيلاديس يتفق مع نائب مصوع
ضد المبشرين الكاثوليك

بعد الحروب التي نشبت بين الأتراك وصرصا دنقل ، تلت فترة من الهدوء النسبي بين أريتريا والحبشة ، وتمّت اتفاقات مع الأتراك ونائب مصوع لمنع تسلل المبشرين الجزويت إلى أثيوبيا .

فبعد انتهاء حروب الإمام أحمد والمناوشات التي أعقبتها ، أخذت بلاد الحبشة تعود إلى نوع من الهدوء الذي فرضه التعب من الحروب وسادت عوامل الضعف والانهاك. وعندئذ تحرك البرتغاليون يريدون كثلكة المسيحيين في الحبشة ومحق المذهب الأرثوذكسي ، وذلك بأن أرسلت البرتغال عدداً كبيراً من القساوسة الجزويت . وكان استقبال البلاد لهؤلاء القساوسة في بداية الأمر ودياً ، حتى أن الأب بدرو باييز (Pedro Paez) تمكّن من إقناع الأمبراطور سوسنيوس باعتناق المذهب الكاثوليكي ، وأخذ



الأمبراطور يحاول حمل شعبه على اعتناق هذا المذهب . وكانت النتيجة أن فقد ولاء الشعب ، وأثار عليه رجال الدين الأورثوذكس . وحدثت حروب طاحنة مات فيها عشرات الألوف من الناس ولجأ الامبراطور إلى العنف الماحق ، حتى وصل به الأمر إلى قطع لسان أخيه لرفضه اعتناق الكاثوليكية . وأخيراً حمله ابنه فاصل (فاسيلاداس ١٦٣٢ — ١٦٦٧) على اعتزال الملك وإصدار بيان يعتذر فيه عن اعتناقه للمذهب الكاثوليكي ويعلن عودته إلى مذهب آبائه وأجداده .

وترتب على ذلك طرد الجزويت من الحبشة . واهتزت كنيسة روما لهذه الحوادث ، فحاولت التدخل في هذا الصراع ، وأرسلت بعض الرسل الفرنسيين ، مما أزعج الأمبراطور فاسيلاداس ودفعه إلى عقد اتفاقية مع نائب مصوع والباشا التركي في سواكن لإعدام جميع القسس الذين يحاولون دخول الحبشة .

ولم يقتصر فاسيلداس على اعتماده على نائب مصوع وعلى العثمانيين ، بل عمد أيضاً إلى توثيق الصلة مع اليمن بأن أرسل مندوباً إلى الإمام الموحد بالله عام ١٦٤٢م يطلب منه أن يطرد أو يقتل أي برتغالي يمر ببلاده، وأرسل مندوباً آخر في عام ١٦٤٨م للإمام الذي تلاه على العرش، المتوكل على الله، يعرض عليه صداقته ويقترح تبادل السفراء . وكان ذلك بعد مائة عام من نجدة البرتغال ضد فتوحات المسلمين .

ويذكر أحمد حسن الحيمي ، مندوب الإمام إلى فاسيلداس في كتابه (سيرة الحبشة) ان قصد الملك كان فتح طريق تجاري عبر دنكاليا تحميها اليمن، وبعيدة عن المواقع التي يسيطر عليها الأتراك ونائب مصوع، الذي كان يفرض ضرائب باهظة على البضائع الواردة إلى الحبشة . وذكر الحيمي ان السلطان شحيم بن كامل ، سلطان بيلول في منطقة دنكاليا هو الذي أمدهم بالمرشدين للتوغل إلى هضبة الحبشة ، وأن السلطان وشعبه الدنكلي ليس لهم صلة بصاحب الحبشة إلاّ ما كان من علاقات التجارة .

وفي عودته مر الحيمي بإمارة دباروا . ويذكر أن منصب حاكمها كان



شاغراً بوفاة أميرها بحر نجاش ، وكانت تسود المنطقة الفوضى . وكاد وصحبه يقتلون على أيدي قطاع الطرق في منطقة خماسين الذين تجمع منهم في ليلة واحدة على ما يذكر الحيمي نحو من خمسمائة رجل سلاحهم الحراب والنشاب ، لو لم يسعفهم نائب مصوع بمائة جندي مسلحين بالبنادق .

وهكذا بدا وكأن أمبراطور الحبشة يعتمد على العرب المسلمين لحماية مملكته من التدخل الغربي ، وهو أمر يعتبر قلباً للأوضاع القديمة التي كانت الحبشة تعتمد فيها على البرتغاليين لحمايتها من المسلمين ، وذلك بواسطة استيلاء البرتغاليين على موانىء البحر الأحمر . وأصبحنا الآن نشاهد ظرفاً جديداً تقطع فيه علاقات الحبشة مع العالم الغربي ، ويصبح المسلمون حلفاء للحبشة المسيحية ضد من أخذ الأحباش يعتبرونه خطراً أكبر .ـ ذلك الخطر الذي يهددهم ويعمل على القضاء على مذهبهم الديني الذي تلتف حوله جميع الروابط القومية للشعب الحبشي المسيحي .

وطبق نائب مصوع الاتفاقية بدقة، وحز رؤوس الكثيرين من المبشرين وغير المبشرين الأوروبيين وأرسلها إلى ملوك غندر تأكيداً (للوفاء بالعهد) . ولم يكن تصرفه هذا يخلو من هوى في النفس ، إذ كان النائب يكره وجود هؤلاء القوم في بلاده ، ويتوجس منهم خيفة بعد أن ذاقت بلاده الأمرّين من الاحتلال البرتغالي .

النائب موسى يزور غندر

عرف الملك أياسو (١٦٨٢ ـ ١٧٠٦م) بالحنكة السياسية ومعالجة الأمور الصعبة بالطرق الديبلوماسية وعدم التسرع في شن الحروب ، ولهذا لم يستجب إلى نصائح مستشاريه بشن حرب على نائب مصوع وكان اسمه موسى من بيت (أمير قنع) البلوي . وقد فرض هذا النائب ضرائب باهظة على البضائع الخاصة بالحبشة. فلجأ الملك أياسو إلى منع نفاذ التجارة الحبشية عبر مصوع ، فكانت ان كسدت حركة التجارة وتضررت مصوع أكثر مما تضررت الحبشة التي كانت تعيش (في عزلتها المجيدة) مكتفية ذاتياً في معظم ما تحتاج إليه



إلاّ ما كان مطلوباً لترف القصور من حلي وحالل . عندئذ سافر النائب موسى على رأس وفد من قومه إلى غندر في عام ١٦٩٣ م ماراً بأكسوم حاملاً هدايا ثمينة . وتمت المصالحة والاتفاق على حركة التجارة والتعاون على إغلاق الباب أمام المبشرين الجزويت .

علاقة الهضبة الأريترية بملوك غندر ونظام حكمها

لم تكن إمارات الهضبة الأريترية وعلى رأسها حاكمها الملقب بـ (بحر نجاش) — ملك البحر — في وضع تقطع معه علاقتها بملوك غندر . فكان حكام المقاطعات يزورون غندر بحثاً عن مغنم أو تعزيزاً لمركز سياسي ، خاصة أن زعامات المقاطعات المختلفة لم تكن على وفاق . ويذكر أن زعامة سعد زقا وكانت المقر الرئيسي لإقليم حماسين حاولت مراراً تعزيز مركزها ، بالاستناد إلى دعم الأمبراطور الأثيوبي في غندر ، بينما زعامة أبناء عمومتها في هززقا رفضت الولاء لغندر ودفع الضريبة لرووس (تجراي) وفضلت الصراع المسلح معهم . وقد اشتهر أحد زعمائها ، وهو رأس ولد ميكائل بصراعه العنيف ضد الأمبراطور يوهنس حتى تمكّن الأمبراطور من أسره ، بعد أن خدعه عن طريق رأس الولا ، الذي كافأه يوهنس بإسناد حكم الهضبة الأريترية إليه .

وكانت زعامات عديدة في كرنشيم وفي حلاي وفي سقنيتي ودباروا لا تدين لبعضها بالولاء ، وإنما تحتفظ باستقلالها الذاتي معترفة بظل من النفوذ لرووس تجراي على غرار ما كانت تفرضه سلطنة سنار من نفوذ في زعامات وادي بركة والقاش في المنطقة الغربية .

وكان نظام الحكم في هذه الأقاليم شورى ، فلكل قرية مجلس يطلق عليه (بايتو) ، وتجتمع عدة قرى في المنطقة وفقاً لانتماءاتها العنصرية وروابطها المصلحية لتشكل مجلساً أكبر يناقش شؤونها المشتركة وخاصة في حالات الحرب .

وكانت الأحكام تستند إلى العرف المحلي ويطلق عليه (سرعت) — أي



شريعة — . ولم تكن تلك القوانين العرفية مكتوبة في بادىء الأمر ، ثم أخذوا يسجلونها تحرياً للدقة ووحدة الإدارة . وكان أول قانون كتب باللغة التجرينية هو قانون (لقو جوا) نسبة إلى المنطقة ، وذلك قبل نحو مائة وخمسين عاماً .

علاقة القاش وبركة بغندر

كانت قوافل التجارة المارة من سواكن إلى غندر حكرا القبائل البجة التي كانت تنتشر في حوض الدجن (البركة والقاش) ، ولم تكن هناك دوافع للنزاع ، إلاّ ما كانت تتبادله القبائل البجاوية مع سكان أقاليم التجراي وسمين من غارات النهب . وقد تعرضت المنطقة للاجتياح في عهد فاسيلداس الذي شملها بحروبه مع مملكة سنار . وفي ما عدا ذلك ، فإن العلاقة كانت عادية كما يذكر المبشر البرتغالي بابيز . (راجع حديثنا عن مملكة حوض الدجن في الفصل السابع) .

الدناكل يسيطرون على طرق القوافل التجارية إلى الحبشة

يعتبر شريط الساحل الأريتري ابتداء من شبه جزيرة بوري وإلى خليج أبوخ في الصومال الفرنسي المعروف حالياً بإقليم (عفر — عيسى) الموطن التاريخي للأقوام الحامية التي يعتبر الدناكل أحدها . وهذه الأقوام اليوم الساهو في أريتريا والصومال والغالا في أثيوبيا.فهم جميعاً من أرومة واحدة ويحترف معظمهم الرعي ، ولغاتهم وإن اختلفت الآن ، إلا أنها تتشابه كثيراً . وقد انتشر الدناكل (ويطلقون على أنفسهم عفر) كما يسميهم أهل الحبشة بـ (ادال) وهي كلمة اشتقت من (عدل) تسمية سلطنتهم في العصور الوسطى) من موطنهم الأصلي في شواطىء أريتريا إلى أطراف الهضبة الحبشية حتى احتلوا واحة أوسا وتوغلوا إلى أطراف إقليم شوا في قلب الحبشة .

وقد امتزجت بدمائهم الحامية الدماء السامية بفعل المصاهرات مع سكان جنوب الجزيرة العربية ونزوح عشائر عربية إلى موطنهم في بعض الأحيان ،



حتى أنّ عدداً من عشائرهم اليوم تدّعي نسبتها إلى العرب ، كما هو الحال بالنسبة إلى معظم العشائر الأريترية .

ولأهمية الرقعة التي يسكنونها والتي تطل على باب المندب ، فقد كانت للدناكل سيطرة كبيرة على حركة التجارة بالنسبة إلى أقاليم الحبشة الوسطى والشمالية الشرقية . فهم ، وبحكم كونهم يحترفون في غالبيتهم الرعي ، يمتلكون أعداداً وفيرة من الجمال ساعدتهم في اجتياز الصحراء والوصول إلى الهضبة الحبشية بما يحتاج إليه أهل الحبشة من واردات الهند ومصر وفارس من سيوف ونحاس وأقمشة ، بجانب الملح الذي كان يشكل عصب تجارتهم . وقد استخرجوا الملح من بحيرة أسال المرة ومن ملاحة بردولي وملاحة طلطال جنوبي مصوع ، وكانوا يقايضونه بمنتوجات الحبشة من الحبوب والعسل والزباد ، بجانب الرقيق. وكانوا يصنعون الملح على شكل قوالب ، ويسمّى القالب (عمولة) ويبلغ وزنه نصف كيلوغرام وسعره يراوح بين ريال واحد فضي لمائة عمولة ، إلى ريال واحد فضي لكل عشر عمولات ، وذلك حسب المسافة . ففي حين تباع العمولات رخيصة في هضبة تجراي واندرتا كانت تباع أغلى في إقليم شوا مثلاً . وقد بلغ عدد العمولات الملحية المصدرة من ملاحات دنكاليا في بوري وطلطال وأسال إلى الحبشة في القرن الثامن عشر معدل ٣٠ مليون عمولة في السنة .

وبذلك كان الملح يشكل مصدر ثروة كبيرة لعشائر الدناكل ، وبالتالي مصدر نزاع بعضها بين بعض ، وبينها وبين حكام التجراي الذين كانوا يفرضون ضرائب باهظة على الملح ، مما كان يثير الحروب والمنازعات . ونشاهد اليوم في منطقة دنكاليا عشرات المقابر المبنية على شكل اهرامات يصل ارتفاع بعضها إلى عشرة أمتار ، وهذه قبور فرسانهم الذين ماتوا في الحروب ضد غزوات الحبشة .

وكان الدناكل ، ولا يزالون قوماً شديدي المراس لا يخضعون لغريب ويتوجسون منه خيفة . وقد كان نصيب البعثات الأجنبية التي وطأت أرضهم القتل ، فأبيدت الحملة المصرية التي تزعمها موزنجر السويسري ، وكانت



عبارة عن أربعة بلوكات توجهت من مصوع عبر خليج أبوخ إلى أوسه قاصدة احتلال الحبشة في عام ١٨٧٥م. كما أباد الدناكل البعثة الإيطالية الكشفية برئاسة جيواويتي في ٣٠ مايو (أيار) ١٨٨١م بالقرب من بيلول، وكانت طليعة للاستعمار الإيطالي، وتحججت بها إيطاليا للاستيلاء على منطقة بيلول، ومن ثم احتلال السواحل الأريترية بحجة حماية الأمن والنظام.

وعرف الدناكل الأسفار في البحار، كما عرفوا قيادة القوافل في الصحاري، فهم كجيرانهم من عرب جنوب الجزيرة العربية اشتغلوا بالسفن منذ عهود بعيدة، وقد عملوا في الغوص من أجل استخراج اللآلىء وأصداف البحر والحيتان. ومع ذلك لم تنشأ في مراسيهم التي عرفت باستقلالها (عصب، رعد، بيلول، برعسولي، طيعو، معدر الخ)... مواقع لبناء السفن. ولعل سهولة الحصول عليها من مصادر الشراء من اليمن جعلهم يعزفون عن ذلك.

ومع ان الدناكل لم تحكمهم دولة مركزية واحدة، إلاّ أن سلطنة أوسا كانت تمثل رمزاً لسطوتهم. وقد تمكنت قبيلة موداعيتو (عسا مرا) من توطيد سلطانها في واحة أوسا في مستهل القرن الثامن عشر بعد أن طردت منها أئمة هرر الذين حكموا الواحة منذ عام ١٥٧٧ م. ونشر سلاطينها الأقوياء الأمن والاستقرار حتى اجتذبت التجار ورجال القوافل. وتعاقب على حكمها عدد من السلاطين الأقوياء، منهم قذافو ويايو (يحيى) وقذافو محمد وإيداحس وإيداحس محمد وحنفري الذي حكم السلطنة ٦٠ عاماً وتوفي في عام ١٨٦٢م. وتعرضت بعده إلى نزاعات داخلية حول السلطة، مما أضعف مركزها واستولت عليها عشيرة ويما. وبسبب عدم الاستقرار والأمن ضعف مركزها التجاري بنهاية القرن التاسع عشر، وتأثرت من جراء ذلك زيلع وتحولت تجارة مملكة شوا وممالك الغالا الجنوبية إلى تاجورة وأبوخ، وأنعش ذلك رجال القوافل.

وقد مثلت منطقة دنكاليا الأريترية قبلة للمطامع الأثيوبية منذ القرن التاسع عشر، واليها توجهت مشاريعهم للحصول على منفذ بحري دونما



نجاح . وتشكل دنكاليا اليوم إحدى المحافظات الأريترية التسع .

جيمس بروس في أريتريا

خص جيمس بروس ، الاسكتلندي المعروف بمكتشف منابع النيل الأزرق جزءاً من كتابه القيم (رحلات بروس لاكتشاف منابع النيل ١٧٦٨ – ١٧٧٣ م) (Travels to Discover the Source of Nile) لوصف المناطق الاريترية التي مر بها ، ومنها عرف المؤرخون ما كانت عليه أحوال تلك البلاد في الربع الأخير من القرن الثامن عشر .

وصل بروس إلى مصوع في عام ١٧٦٨ وظل فيها زهاء ستة أشهر ، وهو يحاول إقناع النائب عمر آغة بالسماح له بالسفر إلى أثيوبيا والنائب يماطله . فقد كان يخشى أن يكون خبيراً في صناعة الأسلحة فيعلم الأثيوبيين صناعتها ويمكنهم من غزو بلاده . وكان النائب يتعلل بمختلف الحجج ، مرة باختلال الأمن في في منطقة (سمهر) و (طروعة) و (حماسين) التي يقول بروس انها كانت خاضعة لسلطان النائب ، وأخرى باندلاع حروب داخلية بين مقاطعات الحبشة المختلفة ، مبدياً إشفاقه عليه . وهو يصف هذا الإشفاق بأنه حيلة ومكيدة . والواقع لقد أفرغ بروس بقلمه غضبه على النائب بما عرف عنه من حماقة ، حتى قال ان (حلة النيابة) لم ينسجم أي جزء من أجزائها مع جسم النائب القبيح) .

ووصف بروس نظام حكم النائب فقال عنه انه يستند إلى طبقة من العساكر يحكمهم سردار والي مليشيا يرئسها (كيخيا) ومجلس أعيان مؤلف من٣٨ شخصاً يطلق عليهم (بايتو) ، وهي تسمية تطلق على المجالس في الهضبة الأريترية .

أما التجارة فيقول عنها إنها كانت في درجة كبيرة من الكساد والانحطاط في كل منطقة البحر الأحمر وخاصة في مصوع بسبب انتشار الحروب بين أقاليم الحبشة وانقطاع أسباب الأمن وتفشّي الأمراض ، حتى أن مرض الطاعون في ميناء مصوع وحده قضى على ألف نفس أثناء تواجد بروس .



ولم يكن لتركيا وجود فعلي ، فقد كانت لها حامية صغيرة من ٣٦ جندياً تابعة لمشير مكة . ولا يأتمر النائب بأمر أحد .

وكانت تركيا تدفع مبلغ ١٠٥٠ ريالاً فضياً شهرياً للنائب في مقابل حماية قوافل التجارة في منطقة سمهر ، ومد الميناء بالمياه العذبة . وقد مد نفوذه حتى سواكن وأصبح أقوى حاكم في البحر الأحمر .

ولم تنقطع الصلة بين رأس ميكائيل سهول ، حاكم تجراي ، وبين النائب ، رغم ما كان بينهما من أسباب الجفاء والتوجس . ويشير بروس إلى أن أقاليم اكلي قوزاي وسراي كانت تحت حكم (بحر نجاش) في دباروا ، وكان نهر بليزا هو الحد الفاصل بين مملكة بحر نجاش ومملكة رأس ميكائيل سهول . والجدير بالملاحظة أن هذا النهر لا يزال هو خط الحد الفاصل بين أريتريا وأثيوبيا حالياً .

ERITREA

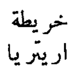
Scale 1/1000.000

SUDAN

RED SEA

YEMEN

ETHIOPIA



خريطة
اريتريا

مشهد من أسمرا عاصمة اريتريا

خريطة مملكة الحبشة حتى عام ١٨٨٢ ، قبل أن يوسع الامبراطور منيليك حدودها عن طريق الغزو والفتوح ، ويسميها الامبراطورية الاثيوبية ، لتشمل كل مناطق الغالا والصومال والدناكل وغيرها من الشعوب .



دير دبر بيزن الذي يعود تاريخ إنشائه إلى القرن ١٤ . ويعد أهم موضع للتعليم الديني المسيحي في اريتريا .

نهر سيتيت . ويسمى في أثيوبيا تكزي ، وفي السودان عطبرة . وهو أطول نهر في اريتريا .

نهر القاش بقرب تسني . ويسمى عند منبعه نهر مرب أو مأرب .

أشجار اليفوربيا . وهي تنبت كثيراً في الهضبة الاريترية .

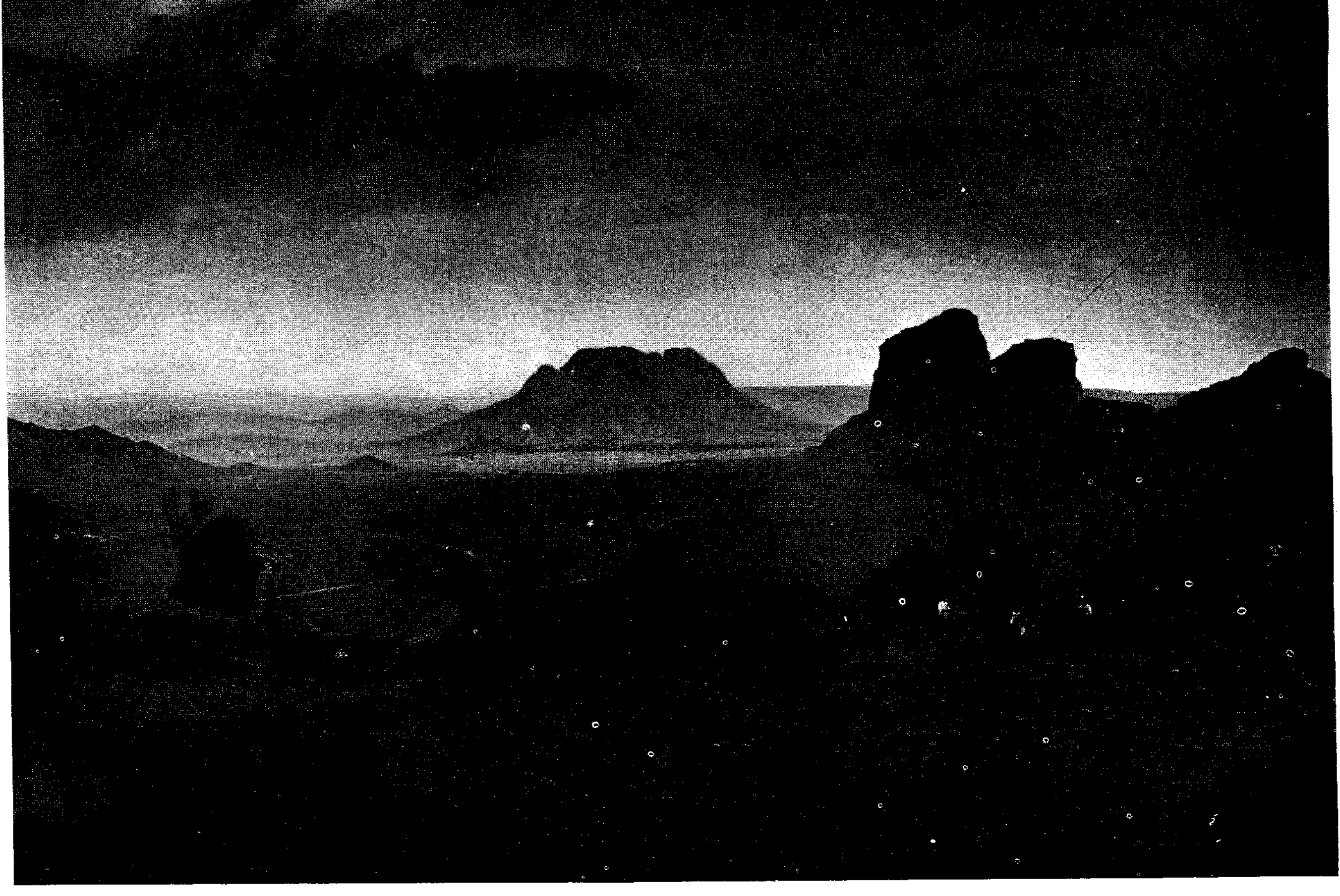


لوحة عربية يعود تاريخها إلى القرن الثامن الميلادي في جزيرة دهلك . وهي أقدم لوحة عربية وجدت في أريتريا .

قساوسة في رقصة دينية

مساكن في الهضبة الاريترية . ويظهر نوعان : الاسطواني والمستطيل .

مسلات أكسوم الشهيرة التي بناها النازحون الحميريون في القرن ١٤ الميلادي .



منطقة الحدود بين اريتريا وأثيوبيا في الهضبة . ويبدو بين الجبلين نهر مرب (مأرب) وهو الحدود الفاصلة .

الفصل الثاني عشر

الخديوية المصرية تبسط سيادتها على سواحل اريتريا وحكام اثيوبيا يجددون مطامعهم على السواحل

محمد علي باشا يمد نفوذه من الحجاز إلى مصوع

مثلت السواحل الاريترية وميناؤها مصوع منذ بداية القرن التاسع عشر، عصب الحياة التجارية في البحر الأحمر. وقد حاول الشريف غالب، والي مكة اخضاع المنطقة لسلطانه، فأرسل حملة عسكرية في عام ١٨٠٨ م، لكنها هزمت على أيدي قوات نائب مصوع. وفي عام ١٨١١ حاول اسطول وهابي صغير الاستيلاء عليها وكان مصيره الهزيمة، وحافظ الاهالي على استقلال منطقتهم.

وفي العام نفسه (١٨١١) قام محمد علي باشا، والي مصر بفتح الحجاز باسم السلطان العثماني بعد ان هزم الوهابيين. وبعد سنوات قليلة تمكن محمد علي من الاستيلاء على سواكن ومصوع وشواطىء البحر الاحمر



الغربي كلها ، وألحقها بالادارة المصرية . واقام ادارة فعالة وحقق قدراً كافياً من الأمن وفتحت المنطقة أمام التجارة مع اوروبا والشرق .

والحق محمد علي باشا ولاياة مصوع بالحجاز تحت أمرة ابنه احمد طوسون، وترك طوسون حامية عسكرية في مصوع تتألف من ٦٠ جندياً، ولكن النائب طرد الحامية في عام ١٨٢٦ بسبب خلاف نشب بينه وبين السلطات الخديوية حول تكاليف حماية الطرق التجارية ، ولم تعد الحامية ، التي كان يرى النائب ضرورة تواجدها للحد من اطماع حكام تجراي، إلا بعد ان سويت المسائل المالية .

وبانتشار الأمن اتسعت حركة التجارة وارتفع عدد سكان الميناء من ٢٠٠٠ نسمة إلى ٥٠٠٠ نسمة وقويت صلتها بالحجاز . ونقلت منها كميات ضخمة من الذهب والعاج والمسك والمنتوجات الزراعية التي كانت ترد اليها من الحبشة والرقيق . وامتلكت البيوتات التجارية المعروفة سفناً كبيرة كانت تجوب شواطئ فارس والهند وشرق افريقيا على ما كانت عليه ميناء عدوليس منذ الفي سنة .

وعندما اكرهت حوادث الشام (الحروب السورية) وتدخل الدول الاوروبية لتسوية المسألة المصرية — العثمانية ، باشوية مصر على اخلاء شبه جزيرة العرب واستقدام قواتها منها عام ١٨٤٠ م ، استعاد الباب العالي نفوذه المباشر على الاقاليم المطلة على البحر الاحمر في شاطئيه الاسيوي والافريقي. ولكن مرة اخرى عادت الادارة المصرية. ففي سبتمبر (أيلول) ١٨٤٦ وافق سلطان تركيا على وضع ميناءي سواكن ومصوع تحت ادارة خديوي مصر مدى حياته. وفي عام ١٨٤٩م اضطرت الخديوية المصرية إلى اعادة الميناء ين إلى الادارة التركية لاسباب اقتصادية .

وفي ١١ مايو (ايار) ١٨٦٥م اصدر السلطان العثماني فرماناً بمنح باشا مصر قائمقامتي مصوع وسواكن وملحقا تهما في مقابل دفع مبلغ سنوي قدره ١٧ الف جنيه ذهباً . وكلفت الحكومة المصرية جعفر باشا مظهر ، التوجه إلى ساحل البحر الاحمر لاستلام هذين الميناءين من السلطات



التركية . وفي مارس (اذار) ١٨٦٦م ابتاعت الحكومة المصرية من شركة اخوان باشتري حقوق ملكية اقليم عد في مقابل مبلغ ٥٨٣٤ جنيهاً ، وذلك « حتى يكون لمصر مطلق التصرف تماماً على ساحل البحر الأحمر الغربي » . وخصص جعفر باشا مظهر الذي مر في عام ١٨٦٧م على شواطىء اريتريا حتى باب المندب ، معاشات لمشايخ القرى المطلة على الشاطىء. كما قام بمصالحة القبائل المتخاصمة ووزع عليها « ارزاقاً واعلاماً » لاقامتها في مراكزهم . ونظر الاهلون إلى تلك الاعلام على انها رمز « سلطان الاسلام » .

واستمرت المنطقة تحت الادارة المصرية حتى عام ١٨٨٥م عندما احتلها الطليان كما بيناه في موضع آخر .

الأتراك يحرقون قرى مصوع

لم تكن علاقة النائب ، وكان هو الحاكم الفعلي للبلاد ، تتسم في كل الاوقات بالانسجام مع الاتراك ، فقد كانت هناك اسباب للخلاف ، خاصة ان تركيا كانت تستغل التنافس بين ابناء العمومة من اسرة البلو الحاكمة. ففي سبتمبر (ايلول) ١٨٤٤ رفضت الأسرة الحاكمة تنصيب حسن نائباً للبلاد إثر وفاة أخيه يحيي وطالبت بأن تسند النيابة لابنه محمد. وتطورت الازمة حتى ادت إلى القتال، وزحف الباشا التركي إلى القرى المجاورة، لكنه أجبر على التقهقر . واضطرت تركيا إلى ارسال لجنة قامت بالصلح ودفع التعويضات عن الخسائر التي لحقت بالأهل من جراء القتال ، كما تعهدت بعدم التدخل في شؤون البلاد الداخلية ، وبعدم اجراء اتصالات سرية مع حاكم تجراي .

وفي عام ١٨٤٦م تجدد الخلاف مرة اخرى، فكان ان اعدم ثلاثة فدائيين الباشا التركي في قصره بجزيرة طوالوت بعد ان وصلوا اليه سباحة. وواجه الباشا الجديد اسماعيل حقي التمرد بقسوة واحرق قرية حرقيقو، فاعتصم السكان بالجبال، واقام فيها قلعة نصب فيها ٥٠٠ جندي كما نصب



حامية اخرى في (ام كلو) قوامها ١٠٠ جندي ، واصبح النائب محمد دمية في يد الباشا .

حكام أثيوبيا يجددون مطامعهم في السواحل الأريترية

حاولت بريطانيا منذ مطلع القرن التاسع عشر ان تساعد حكام اثيوبيا على احتلال الساحل الاريتري . فقد عرض الرحالة البريطاني هنري سولت (Henri Salt) الذي عمل قنصلاً لبريطانيا في مصر (١٨١٦ — ١٨٢٧م) على رأس ولدسلاسي ، حاكم تجراي ، ان يغزو الساحل الاريتري بحجة فتح ابواب تجارة الحبشة امام اوروبا . وأقنع الحكومة البريطانية بأن تمده بكمية من الاسلحة . الا ان ولدسلاسي ادرك مخاطر هذه المغامرة ، فلم يتحمس للمشروع ، بل آثر ان يستفيد من شحنة السلاح البريطاني في اخضاع قبائل يجو الغالية في اقليمه .

اما دجزماتش سباقاديس فلم يكن من طراز ولدسلاسي . فقد رأى في طرد نائب مصوع للحامية المصرية في عام ١٨٢٦ فرصته الذهبية ، فكتب إلى ملك بريطانيا مطالباً مساعدته للاستيلاء على مصوع . ووجد ضالته في اللورد فالنشيا الذي عاش في الحبشة فترة طويلة، وعرف بحماسته للمشاريع الحبشية التوسعية على الساحل الاريتري ، فكان من طراز ستافورد الذي مثل الادارة البريطانية في أريتريا عام ٤٨ — ٤٩ — ١٩٥٠ وأدت مخططاته إلى ربط اريتريا في اتحاد فيدرالي مع اثيوبيا . وسرعان ما وافقت وزارة الخارجية البريطانية على مقترحات اللورد فالنشيا بمد الحبشة بكميات كبيرة من الاسلحة تمكنها من بسط هيمنتها على الساحل الاريتري ، وغلف دعاويه بضرورة حماية الحبشة من التوسع العثماني الاسلامي ، في وقت كانت الدولة العثمانية تحمل لقب (رجل اوروبا المريض) وتعيش ايامها الاخيرة تحت حماية الدول الاوروبية .

ووصلت شحنة الاسلحة البريطانية إلى ميناء مصوع ، فاحتجزها نائب مصوع مدركاً مخاطر مرورها إلى حاكم تجراي، بينما قتل سباقاديس،



حاكم تجراي في الصراعات الاقليمية التي كانت تمزق الاقاليم الحبشية في عام ١٨٣١ . ولم يسمح النائب لخلفه — دجزماتش ووبي — الا بقسط قليل من شحنة الأسلحة تحت ضغوط بريطانيا .

ولم تتخذ بريطانيا خطوة حاسمة لدعم حاكم تجراي الاثيوبي بسبب تضارب المصالح الفرنسية البريطانية . فقد أقام ووبي علاقات قوية مع فرنسا عن طريق المبشرين الفرنسيين الكاثوليك ، وأرسل وفداً إلى الملك فيليبي بتشجيع من المبشر ثيوفيل (Theophile Lefebvre) طالباً اسلحة لغزو الساحل الاريتري عارضاً خليج زولا على فرنسا في حالة نجاح الحملة . وعاد الوفد في عام ١٨٤١ بكمية محدودة من الاسلحة الفرنسية ، فلم تتحمس فرنسا للمشروع ، خشية ان تفقد صداقة محمد علي باشا ، والي مصر ، بينما قابلت وعوده بمنحها خليج زولا بنوع من السخرية ، إذ كان يعد بما لا يملك . كما رفضت ايضاً تنازل شركة (نانت بوردو) الفرنسية عن منطقة واسعة في اقليم (عد) يبلغ طولها ٩٠ ميلاً ، وعرضها تسعة اميال ، التي ادعت شراءها من حاكم تجراي بواسطة السائح الفرنسي (كومب) في سبتمبر (ايلول) ١٨٤٠ م . ولقد رفضت حكومة لويس فيليب الفرنسية قبول (تنازل) هذه الشركة الفرنسية ، لأن (كومب) في رأيها لم يشتر هذه المنطقة من صاحب السيادة الشرعية على امارة (امفيلا) ، وهي الاميرة (علية عتو) شقيقة امير (عد) الذي كان يحكم ولايته تحت حماية نائب مصوع .

وفي عام ١٨٤٣ م قام ووبي بتشجيع من المبشرين الكاثوليك بهجوم واسع على سهول سمهر بهدف الاستيلاء على مصوع ، وارسل وفداً إلى نائب حرقيقو يطلب تسليمه شحنة الاسلحة البريطانية المحتجزة، ولم يستجب النائب لطلبه . وفي العام التالي شن غارات اخرى في اقاليم بقوص (كرن) والحباب والبني عامر والباريا والبازا ، وعاد منها بغنائم كبيرة .

وامام النهب والتدمير الاثيوبي لم يكن بد من الاستعانة بالحديوية المصرية التي ارسلت قوة قوامها ٥٠٠٠ جندي و١٠٠٠ فارس بقيادة امين



بك . ومرت الحملة ببلاد الحباب واعلن حاكمها كنتيباي جاويد ولاءه لمصر ، وكان من قبل قد ناوأها موثراً استقلال منطقته . وساعدت وجود الحامية الخديوية على وقف الغارات الاثيوبية التي تجددت في عام ١٨٤٩ .

واحست الحكومة التركية بالنشاطات السرية لكل من فرنسا وبريطانيا للسيطرة على ساحل اريتريا ، فقررت ان تبسط نفوذها الفعال على الساحل من دون استعمال العنف . فارسلت إلى الباشا التركي في مصوع (بورتو افندي) تعليمات بشأن العمل . وبناء على هذه الخطة الجديدة استعان الباشا التركي باحد اسرة النواب وهو (احمد ارى) . وعمد هذا الاخير إلى اغراء الاهالي على التوقيع على عرائض يعلنون فيها خضوعهم للباب العالي مستغلاً التهديدات الاثيوبية . كما حثهم ايضاً على رفع الراية العثمانية على موانىء الساحل الاريتري كله . وعزز احمد ارى مركزه بمحاربته الناجحة لقطاع الطرق اينما كانوا وتأمينه البلاد ، وكان اعظمهم خطراً الفارس المعروف باسم (بلال) الذي نشر الرعب في اقليم زولا .

وبذلك تمكن الباشا التركي بمساعدة أحمد أرى من رفع الراية العثمانية من دون اية مشقة على الساحل الاريتري من زولا إلى آيت جنوب عد ، وعلى جزر دهلك .

وفي مارس (آذار) (١٨٦٢) أعلنت الاميرة (عليه عتو) التي كانت تتولى حكم (امفيلا) قبولها السيادة التركية ، وكذلك سلطان (عد) . اما سلطان بيلول وسلطان ارحيتا ، فقد أعلنا ولاءهما لسلطان اوسا .

موقف مصر والأريتريين من حملة اللورد نابير ضد ملك الحبشة

في عام ١٨٥٥ نصب كاسا الذي كان زعيماً لقطاع الطرق ، نفسه امبراطوراً على اثيوبيا في غندر باسم (تيودروس الثالث) (تيودور) بعد ان قضى على جميع الملوك والامراء المنافسين .

وفي عام ١٨٦٠ قتل القنصل البريطاني (بلاودن) على ايدي بعض



القبائل الحبشية ، فأرسل تيودروس رسالة إلى الملكة فكتوريا معزياً معتذراً بعد ان انتقم من تلك القبيلة بقتل ٢٠٠٠ من رجالها ، مشيراً إلى ضرورة التحالف مع بريطانيا للقضاء على الاتراك ، وانهى خطابه بقوله :

« إني اخشى اذا أنا ارسلت وفداً من عندي يحمل هداياي اليكم ان يقبض عليهم الاتراك المسيطرون على موانىء البحر الاحمر ، ولذلك أرجوكم ان تقوموا بالمحافظة على سلامة رسلي في جميع مراحل الطريق ، وأود أن أتلقى رداً على كتابي هذا عن طريق القنصل الجديد (كمرون) الذي يحمل رسالتي إلى انكلترا . انظري كيف يعامل الاسلام المسيحيين » .

وشاءت الظروف ان يهمل احد موظفي الخارجية البريطانية خطاب تيودروس ، فلم يصله الرد، مما اثار غضبه – وكان عصبياً حاد المزاج إلى درجة الجنون ، حتى قال عنه المترجم الارمني (رسام) بأنه يقوم بتصفية شعب الحبشة وليس بحكمهم – واعتبر ذلك اهانة. وزادت في نفسه خطورة الامر عندما علم ان كمرون عاد من لندن إلى شرقي السودان لكي يدرس امكان زراعة القطن فيها . وكانت السودان في ذلك الوقت العدو اللدود للامبراطور تيودروس بحكم وجود المصريين فيها، وتبلغه بين الحين والآخر اخبار استعداد المصريين وتأهبهم لغزو الحبشة . فانقض على الارساليات الاوروبية الموجودة في غندر وكبلها بالاغلال ووضعها في السجون ، وما ان عاد القنصل البريطاني كمرون في عام ١٨٦٤ م إلى الحبشة حتى قبض عليه ووضعه في السجن مع الآخرين .

ولما ايقنت بريطانيا فشل مساعيها لاطلاق سراح القنصل والرعايا الاوروبيين الآخرين بالسلم ، جهزت حملة حربية بقيادة اللورد نابير قوامها ٣٢٠٠٠ رجل و ٥٥٠٠٠ من الدواب و ٤٤ فيلا . ونزلت في عام ١٨٦٧ م في خليج زولا جنوب مصوع . واقامت في زولا معسكراً ضخماً ورصيفين لرسو البواخر، وكان اول رصيف يقام منذ ١٤ قرناً بعد زوال عدوليس، وجهازين من اجهزة تقطير مياه البحر لاعداده للشرب، وسكة



حديد طولها ٣٠ كيلومتراً من الساحل حتى مشارف الجبال ، وكانت اول سكة حديد اقيمت في اريتريا .

وكانت انكلترا طلبت من اسماعيل باشا ، خديوي مصر ، ان يأذن لها باجتياز السواحل الاريترية التي كانت تسيطر عليها . ولم يكتف اسماعيل باجابتهم إلى ذلك ، بل وضع الاسطول المصري الذي كان في هذا البحر تحت تصرفهم ، وارسل إلى مصوع زهاء ثلاثة الآف جندي . وكلف الباشا المصري في مصوع عبد القادر الطوبجي مساعدة الانكليز ، كما رحب نائب مصوع ومشايخ زولا والقبائل المجاورة بالتعاون مع نابير ، إذ لم يكن تيودروس صديقاً لهم على احسن الاحوال ، بل كانت مواشيهم تتعرض لنهب اعوانه كلما توغلت إلى هضبة اريتريا والتجاري في فصل الصيف . كما ان الحملة خلقت حالة من تشغيل الأيدي العاملة حتى ليقال أن أسراً بأكملها مع صغارها كانت تأتي للعمل ، وخاصة لنقل المؤن ورعاية الدواب ، وقد كان للمال سحره، ولم يبخل نابير بالعطاء طمعاً في النصر .

وصادف نابير التعاون من شعب اريتريا اينما حل . ففي صنعفي في الهضبة الاريترية رحب الاهلون بالحملة ، ولكنهم اشترطوا ألاّ تمس استقلالهم وسيادتهم .

ولم تصادف الحملة الا بعض المناوشات البسيطة من قوات تيودروس . فقد كان تفوقها العسكري ساحقاً علاوة على كسبها تعاون حكام الاقاليم الحبشية . وفي ابريل (نيسان) ١٨٦٨ قام نابير بهجومه الاخير على قلعة مجدلا . وعندئذ انتحر تيودروس ، بان اطلق النار على نفسه من مسدس كانت اهدته اليه الملكة فكتوريا .

وانسحب نابير بعدها إلى زولا ثم إلى بلاده انكلترا عبر قناة السويس في عام ١٨٦٩ ، وهو العام الذي افتتحت فيه القناة . وتمكن حاكم تجراي — راس كاسا ، من اعتلاء العرش باسم الامبراطور يوحنس (يوحنا) الرابع بعد ان اهداه نابير ١٢ مدفعاً و ٢٠٠٠ بندقية وكمية كبيرة من الذخائر



ومستشاره الحربي جون تشارلز كركهام . وقد ساعدته هذه الاسلحة في ما بعد على الحاق الهزيمة بالجيش الخديوي المصري الذي حاول غزو الحبشة .

الحروب المصرية الحبشية

اراد اسماعيل باشا ، خديوي مصر ، من مساعدة بريطانيا في حملتها العسكرية ضد تيودروس ، ان يستولي هو على بعض الاجزاء من الهضبة الاريترية والهضبة الاثيوبية ، بحجة تأمين ظهير للشواطئ الاريترية . ولهذه الغاية ارسل منزجر ،وهو سويسري عليم باحوال اريتريا والحبشة، بغية استمالة المشايخ والرؤوس تمهيداً للغزو ، حتى اذا كانت سنة ١٨٧٢ احتلت الجيوش المصرية اقليم (سنحيت) (كرن) .

وفي سنة ١٨٧٥ تنازل الباب العالي لاسماعيل عن ميناءي زيلع وبربرة في الصومال . ثم اراد ان يكون لهما ظهير يحميهما،فتطلعت انظاره إلى منطقة هرر ، ولا سيما أن اهلها كتبوا اليه يستنجدون به من سلطانهم الذي استبدّ بهم ، فأرسل اليهم حملة بقيادة رؤوف باشا احتلت هرر في اكتوبر (تشرين الاول) من السنة نفسها ، وقبضت على السلطان محمد بن شحيم وقتلته .

وكان هذا النجاح داعياً لاسماعيل لان تزيد اطماعه في هذا الركن من افريقيا ، فعول على ان يستولي على كل اقليم (سمين) في شمال الحبشة ، خاصة ان المناوشات التي جرت بين سلفه الخديوي سعيد باشا والامبراطور تيودروس على الحدود السودانية ، بمبادرة من تيودروس ، وفشل سعيد لحلها حتى بعد ان استعمل وساطة بطريرك الاسكندرية الذي سجنه تيودروس واهانه – كانت ماثلة في ذهن اسماعيل ، وكان يرى ان سيطرة مصر على منابع النيل في بحيرة تانا ضماناً لحاجتها الاقتصادية والسياسية .

وكان يوحنس غير غافل عن الاطماع المصرية ، فأرسل جيشه ليستقر في المرتفعات الاريترية يرقب مجرى الامور هناك . ولم تلبث الحملة المصرية



ان خرجت من مصوع في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٨٧٥ تقصد هضبة اسمرا حتى اذا استولت عليها بعد مقاومة يسيرة ، أطمعها ذلك فاتجهت صوب (عدوا) في هضبة التجراي المجاورة لاريتريا . وكان يوحنس يرقب هذا التقدم ويتظاهر بالضعف والتراجع ، لكنه لم يلبث ان تبين الساعة الحاسمة فهجم على المصريين واعوانهم من جنود النائب والسمهر الذين كانوا ينظرون إلى الصراع من زاويته الدينية، بقوة بلغت في تعدادها اضعاف القوة المصرية ، مع ما كان يصل اليها من سلاح من انكلترا ، فهزمت القوة المصرية وأبيدت عن آخرها ، مما دفع قائدها اراكيل نوبار — وهو فرنسي الاصل ، اذ كان معظم قادة الحملات المصرية من الجنرالات المرتزقة — إلى الانتحار فراراً من عار الهزيمة .

وحاول منزنجر ان يخفف من هول هذه الهزيمة بحملة صغيرة ، فقاد اربعة بلوكات عن طريق زيلع ، قاصداً الحبشة من جهة الشرق ، لكنه قتل بايدي الدناكل في اوسا في العام نفسه .

ووصلت اخبار هذه الهزيمة إلى القاهرة ، فاندفعت الحكومة إلى فكرة وجوب الانتقام لهذه الحملة الفاشلة ، فجهزت حملة جديدة بقيادة راتب باشا ، ومعه الجنرال لورنج الاميركي ، رئيساً لهيئة اركان الحرب . وكان التفكير في هذه الحملة واعدادها سريعاً بحيث لم تتعد المدة شهراً واحداً .

واتخذت هذه الحملة الجديدة مصوع قاعدة لها ، وبدأت بالزحف في يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٧٦ ، وجعلت ترسل الرسل إلى الزعماء الاحباش في محاولة استمالتهم إلى صفها ، بينما تقدم يوحنس بجيوشه نحو الشمال يسانده منيليك ملك شوا . وفي مارس (آذار) التقى الجيشان ودارت المعركة في (قرع) في الهضبة الاريترية . وكان هجوم الاثيوبيين دافقاً كأمواج البحر ، رغم اشتداد المدفعية المصرية . وكان الامير حسن بن اسماعيل يشهد المعركة ، فلم تلبث الحرب ان اقتربت منه ، واراد هو ومن معه ان يتفاداها ، فانسحب وشاهد الاحباش انسحابه ، فتابعوه واسروه ، وكانت هزيمة ثانية اشنع من الهزيمة الاولى . وخسرت مصر اكثر من



عشرة آلاف قتيل ، بينما شنع بالاسرى باستعراضهم عرايا . ورسم يوحنس صليبين على ذراعي الامير حسن بالوشم لتبقى في نفسه ذكرى الهزيمة ، وطالب بفدية مقدارها ٢٥ مليون ريال فضي دفعها اسماعيل عن طريق قروض جديدة . اما خسائر الحبشة من الارواح ، فقد بلغت خمسة آلاف قتيل ، واكثر من ستة آلاف جريح .

وتدخلت بريطانيا بعدما خضعت مصر لنفوذها لدى يوحنس لضمان انسحاب الحاميات المصرية من قلعتي (قرع) و (قندت) ، وكان قوامها ستة آلاف جندي ، وتمركزت في مصوع .

ويذكر المؤرخ المصري الكبير عبد الرحمن الرافعي ان حرب الخديوي للحبشة ، هي الحرب العقيم التي لم تكن مصر بحاجة إليها ولا مصلحة لها في خوضها ، وإنما ساقها إليها النزق ، وسوء التدبير ، فانتهت بالهزيمة والخسران .

وقد احتفظت مصر بعد هذه الحملة الفاشلة بالمناطق الإسلامية في أريتريا ، وهي سواحل البحر الأحمر ومرتفعات الحباب وكرن وحوض البركة والقاش ، حتى احتلها الطليان في عام ١٨٨٥ .

وقد كلفت هذه الحملة الخزينة المصرية التي كانت تعاني من الإفلاس مبالغ ضخمة من الأموال ، كما كلفتها آلاف الشباب ، إلى جانب الأضرار التي ألحقتها بسكان أريتريا الذين اشتركوا فيها مناصرين هذا الجانب أو ذاك حسب انتماءاتهم الدينية . ومن سوء الحظ أن الأطماع الاستعمارية للحكام طالما كلفت وتكلف الشعوب أثماناً باهظة من دمها وعرقها .

كل ما بقي من آثار الحملة ، أشجار النخيل الباسقة التي تظلل وادي (عدرسو) و (علي اقدى) و (سلد) و (عاله) في الهضبة الأريترية التي يشير إليها الأهلون بأنها من ثمرة بذور التمور التي جلبها الجيش المصري للتموين . وبجانب ذلك فإن آثار القلاع في قرع وقندت وبئر عرابي في (أم كلو) على مقربة من مصوع ، وهي البئر التي بناها عرابي باشا عندما كان مسؤولا عن الامداد ، لا تزال كلها تشهد على وقائع تلك الحملة .



الإدارة المصرية في أريتريا

ألحقت الأقاليم الأريترية التي خضعت لمصر الخديوية في بداية الأمر بمديرية (التاكا) في السودان ، وجعلت عاصمتها كسلا وفق تقسيم إداري لعموم السودان إلى ثلاثة أجزاء . على أن إسماعيل باشا لم يلبث ان عدل عن فكرة التقسيم هذه ، وفصل مصوع وسواكن، وعين لكل منهما محافظاً خاصاً . وكانت محافظة مصوع تشمل في إدارتها من مرسى (بلاطات) إلى (رأس دويدة) الواقعة في حذاء رحيتا بالقرب من باب المندب ، وفي طول قدره ٤٥٩ ميلاً ، متضمنة معظم السواحل الأريترية . أما مناطق بركة فقد اتبعت للالتاكا في السودان ، بينما اتبعت منطقة البغوص (كرن) إلى مصوع .

ثم فصلت محافظات مصوع وسواكن وبربرة وغيرها من الأقاليم السودانية المطلة على البحر الأحمر ومديرية التاكة عن حكمدارية السودان ، وشكل منها جميعاً محافظة عرفت بمحافظة سواحل البحر الأحمر ، وعين أحمد ممتاز باشا مديراً لعموم شرق السودان ومحافظاً لسواحل البحر الأحمر .

وقام ممتاز برحلة من مصوع إلى بربرة زار فيها كل بلاد السواحل التابعة لإدارته وقدم تقريراً مفصلاً عنها .

وذكر في تقريره أن مصوع جزيرة تقدر مساحتها بخمسين فداناً وسكانها نحو ٣٠٠٠ نسمة . وكانت معظم مبانيها بالقش ، وكثيراً ما تسببت عن ذلك الحرائق . وشجعت الإدارة المصرية الأهالي على بناء بيوتهم بالأحجار وتبييضها بالجير ، فكانوا يجلبون الحجر الجيري من جزيرة دهلك . وكان فيها صهاريج لحفظ المياه عند سقوط الأمطار .

وقسم ممتاز باشا عربان مصوع إلى قسمين ، كل قسم منهما يخضع لنفوذ ظاهر هما :

أ) نظارة دنكل ، من حرقيقو إلى آخر بلاد الدناكل تحت إشراف نائب حرقيقو .



ب) نظارة سمهر ، من حرقيقو إلى عقيق ، تحت إشراف نائب مصوع .

وكانت المهمة الرئيسية للنائب تحصيل الضرائب ومنع تجار الرقيق وحفظ الأمن بين القبائل عن طريق العمد والمشايخ . وكان سلفه ، حسن بك رفعت قد وضع بالتعاون مع النائب تصميماً يحدد أماكن القبائل المقيمة في الجهة الجنوبية من مصوع والجبال وأماكن المياه العذبة وبعدها عن الساحل حتى حدود الحبشة . ونظم طرق تحصيل العشور وحدد للنائب مرتباً قدره ٧٥٠ قرشاً في الشهر ، ومرتبات أخرى مناسبة لأقربائه إلى جانب حصته من إيراد الجمارك وهي ألف فرانسة شهرياً .

وقد اتجه تفكير ممتاز باشا إلى اتخاذ زولا مركزاً لمحافظة مصوع وطلب من عبد القادر باشا بحث هذا االموضوع قبل تنفيذه ، حيث أن في مقدوره أن يعطي فكرة صحيحة بعد معاينته شخصياً لتلك الجهات . على أن هذه الفكرة لم تنفذ إذ كان ردّ القاهره أن زولا لا تصلح لأن تكون مقراً للمحافظة . وقد نظر إليها من زاوية صلاحية مينائها الطبيعي الواقع في الخليج واحتمال تطوير الزراعة في سهولها التي ترويها مياه السيول صيفاً وشتاء .

وكان هناك أيضاً خلاف بخصوص ضم طوكر وعقيق إلى محافظة مصوع أو إلى محافظة سواكن . ثم صدر الأمر بضمهما إلى محافظة مصوع بالنظر إلى تجانس السكان ، وحتى يمنع تهربهم من دفع الضرائب . لكنهما أعيدتا بعد عامين إلى سواكن لأهميتهما الزراعية وقرب موقعهما .

وتميزت الإدارة المصرية بالتقلبات العديدة والسريعة التي لوحظت بتغيير الحكام والموظفين ، بالإضافة إلى التغييرات السريعة في التقسيم الاداري نفسه . فقد تغير الحكام والتقسيمات الإدارية خلال مدة لا تتجاوز خمس سنوات (١٨٧٠ ــ ١٨٧٥) خمس مرات . كما أن الإدارة المصرية ركنت إلى الموظفين الأجانب وأسندت إليهم المهام . فها هو موزنجر ، وهو سويسري ، وكان قنصلاً لفرنسا في مصوع ، عين محافظاً لسواحل البحر الأحمر ، حتى قتله الدناكل في أوسا سنة ١٨٧٥ ، كما عين غوردون ، وهو انكليزي حكمداراً عاماً للسودان ومحافظاً لسواحل البحر الأحمر ، حتى



قتله ثوار المهدية في الخرطوم في عام ١٨٨٥ . وقد جاء إلى مصوع في عام ١٨٨٢ واحتجزه أحد زعماء (البغوص) لمدة ثلاثة أيام في كرن ، بينما هو في رحلته التفقدية لهذه الأصقاع التي لا تجمعه بها سوى رابطة الاستعمار.

تقرير رضا باشا عن مصوع

في ١١ أغسطس(آب) ١٨٧٩ بدأ رضا باشا رحلته التفقدية من مصر إلى محافظات البحر الأحمر. وقد سجل رضا باشا في تقرير عن مصوع ما يلي :

« بندر مصوع عبارة عن جزيرة ممتدة من الشرق إلى الغرب كائنة في البر الغربي من البحر الأحمر بساحل إفريقيا ، وميناؤها الشرقي (رأس مدر) به طابية رباعية الشكل مقفلة بسور مبني في سنة ١٨٦٥ ، ومسلحة بالمدافع ، وبها ثمانون جندياً مع ثلاثة ضباط ، أحدهم برتبة يوزباشي (نقيب) والاثنان الآخران برتبة ملازم .

« وبالجهة الغربية من هذه الجزيرة بوابة يقال لها (بواب العشرات) مبنية بواسطة حائط به ثلاث فتحات للمدافع . وهذه البوابة بنيت سنة ١٨٧٩ وسميت بالعشرات لأن كل من يمر بها يدفع عشرة فضة عوائد لمروره ، وهي مسلحة بمدفعين. ويجد غرب هذه الجزيرة جزيرة ثانية تسمى (طوالوت) تمتد من قبلي إلى بحري وتتصل بالجزيرة الأولى بواسطة جسر طوله ٤٨٠ متراً كما تتصل بالأرض – القارة – بجسر آخر طوله ١٥٠ متراً ، وكلا هذين الجسرين مصنوع من الأحجار المستخرجة من البحر ومن الرمال .

» وبحري هذه الجزيرة توجد جزيرة ثالثة تسمى (جرار) تمتد من الشمال إلى الجنوب وتتصل في بعض الأحيان بالأرض القارة بواسطة برزخ ، وبالجهة القبلية من جزيرة مصوع جزيرة رابعة تسمى جزيرة الشيخ سعيد ، بها جبانة لدفن أموات الفقراء من الأهالي ، وبداخلها كثير من أشجار السنط .

« وبالبندر جامعان وكثير من الزوايا ، وبيوت مبنية مثل بيوت سواكن من دورين أو ثلاثة من أحجار ومونة مستخرجة من البحر ، وقائمة بغير نظام وحارات ضيقة خالية من التنظيم .



« وبه سوق كبير يتجرون فيه في الأقمشة الهندية مثل الحرير والمقصب والفوط وبعض الأمتعة الافرنجية والخرز وما أشبه ذلك .

« وبه كثير من القهاوي . وبندر مصوع بالأرض القارة (أي خلاف الجزيرة) يضم ثلاث قرى أو ضواح إحداها قرية حطملو على مسافة ساعة واحدة من البندر ، في طريق سنحيت وبها خمس آبار . والثانية قرية أم كلو ، وبها كنيسة للمبشرين البروتستانت ومنزل لبعض الفرنسيين ، وبها طابية مقامة من الأتربة ومعدة لمنع مرور العدو من بوغازين في الجبل ، ولحماية بئر كبيرة موصلة مياهها بواسطة برابخ من فخار إلى مستودع كبير مبني بجزيرة طوالوت تؤخذ منه مياه للشرب . والثالثة قرية حرقيقو ، وهي واقعة غربي البندر ، وبها قلعة لحماية البوغاز ، وبالقلعة صهريج وجامع .

« وهذه القرى الثلاث مساكنها بصفة عامة عبارة عن (تكولات) ما خلا ثلاثاً منها بقرية حطلوا .

« ويبلغ أهالي هذا البندر وضواحيه ٨٠٠٠ نفس ، وبها من الأجانب ٢١٦ شخصاً . ومحافظة مصوع مثل محافظة سواكن مشكلة من معاونين ومأمورين ، وإيراد المحافظة عبارة عن أموال مربوطة على عربان الحباب وعربان سمهر وزولا وغيرهم، ومن إيرادات الجمرك. والمصروفات عادة أزيد من الإيرادات .

« والعساكر المختصون بهذه المحافظة عبارة عن أفراد أربع بطاريات في (رأس مدر) و (طوالوت) و (أم كلو) ومنطقة (سنحيت) .

« وبالمحافظة مجلس لنظر القضايا مشكل من رئيس وثمانية أعضاء منتخبين من التجار ، ويتناوبون مع بعضهم في الجلسات ، أي أن كل أربعة منهم يؤدون وظيفة الأعضاء مدة ستة شهور في السنة ، ويلاحظ بهذه الجهة كثرة تعدي الحبشة على الحدود كل عام ، مما يتسبب عنه سلب أموال الأهالي العربان التابعين لها .

« وأما التحصينات الموجودة لغرض المحافظة على بندر مصوع من الهجوم الخارجي فهي قسمان :



« قسم في نفس البندر ، وهو عبارة عن الطابية التي برأس مدر وعن بوابة العشرات . والقسم الثاني خارج البندر ، وهو عبارة عن التحصينات التي بالأجزاء القريبة من البندر ، مثل طابيتي (جرار) و (طوالوت) وقلعتي (أم كلو) و (حرقيقو) ، وهي على بعد ساعة ونصف من البندر ». انتهى التقرير .

الإصلاحات والعمران في عهد الحكم المصري

لم تنظر المناطق الإسلامية في أريتريا ابتداء من خور بركة في الغرب حتى رحيتا في أقصى الشرق إلى الحكم المصري كنظام استعماري أجنبي ، وربما يعود ذلك إلى حاجتها إلى الحماية من غارات الحبشة المتكررة ، بالإضافة إلى العلاقة الدينية .

أما هدف الخديوية المصرية من بسط سيطرتها على سواحل أريتريا وعموم شمال شرقي إفريقيا ، فقد كان أمنياً واقتصادياً بدرجة أساسية . واكتسبت منطقة البحر الأحمر أهمية استراتيجية دولية ، بعد فتح قناة السويس ، فخشيت مصر أن تسبقها إلى هذه المنطقة القوى الغربية الكبيرة وتطوقها من الخلف . وكانت الخديوية المصرية تملك مطامح في بناء أمبرطورية مصرية تفوق متطلباتها حدود قدرة الاقتصاد المصري . ولهذا السبب كان الخديوي يتطلع إلى الحصول على بعض الميزات الاقتصادية ، وخاصة باستغلال معادن الذهب التي كان يقرأ عن وفرتها في شواطىء البحر الأحمر في طيات الكتب القديمة . ومن ثم أوفد لهذه الغاية بعثة برئاسة بويرمان الانكليزي إلى مصوع وبربرة ، لكنها لم تحصل على شيء .

وعموماً ، فإن مصر لم تجن من توسعها الإفريقي شيئاً سوى الخسائر المادية الباهظة التي أوقعتها في ديون . أما المناطق التي دخلت تحت الإدارة المصرية في حوض البحر الأحمر ، فقد استفادت كثيراً في المجالات التعليمية والعمرانية والاقتصادية . ففي مصوع مثلاً أنشأ المصريون مستشفى واعتنوا بالخدمات الصحية وجلبوا ممرضتين ، عندما امتنعت النسوة عن زيارة الأطباء



الرجال . واعتنوا عموماً بالحالة الصحية التي كانت في أسوأ الأحوال عند قدوم المصريين بسبب انتشار مرض الجدري . كما بنوا عدة دواوين حكومية، ولا يزال السراي قائماً في صورة جيدة ، وأنشأوا طاحونة وفرناً للخبز ووسعوا مرسى مصوع ، وبنوا فيه الأرصفة وفتحوا مدرسة ابتدائية ، وسهلوا وصول الطلبة إلى الأزهر ، وبنوا مراكز للشرطة في المدينة والقرى وجزيرة دهلك لحفظ الأمن .

ونظمت الحكومة المصرية البريد والمواصلات البحرية، فعينت وابورين من طرفها في السويس ، يرسل أحدهما للإقامة في ميناء سواكن ، والثاني في ميناء مصوع لإرسال وتسلم البريد من والي مصوع . ومدت خطوط التلغراف من كسلا إلى مصوع ومنها إلى سواكن ثم إلى رأس برانيس ، واستخدمت لهذه الغاية أشجار الدوم التي تكثر في وادي بركة في غرب أريتريا . وفي عام ١٨٧٣ م بدأت الحكومة المصرية بمشروع بناء سكة حديد لربط مصوع بكسلا مروراً بكرن التي بنت فيها مصر قلعة ومدرسة وديواناً للحكومة وبعض المصالح العامة . وأحضرت الديناميت لقطع أحجار الصوان التي تزخر بها جبال أريتريا ، ولكن المشروع لم يرَ النور بسبب أحداث السودان ، وتورطت مصر في حروب لا ضرورة لها مع الحبشة ، وما تلاذلك من انهيار الأمبراطورية المصرية .

كما شجعت الإدارة المصرية الزراعة ، وخاصة في وادي القاش ومرتفعات كرن ، حيث أدخلت زراعة القطن والفواكه . كما شغلت عساكر الأورطة في مصوع في غرس الأشجار وزرع الخضر حتى يقتدي بهم الأهالي ، واهتمت بالملاحات .



الفصل الثالث عشر

اريتريا تحت الاحتلال الايطالي

احتلال الطليان لميناء عصب

في مارس (أذار) ١٨٨٢ بدأت الحكومة الإيطالية تعمل لإبرام اتفاق مع شركة روباتينو الملاحية، تنازلت هذه بموجبه للدولة الإيطالية عن (حقوقها المزعومة) في ساحل خليج عصب ، في مقابل مبلغ ٤١٧ ألف ليرة إيطالية . وكان المبشر سابيتو قد عقد اتفاقاً مع السلطان إبراهيم بن أحمد ، سلطان عصب ، في عام ١٨٦٩ (أي العام الذي افتتحت فيه قناة السويس) ـ اشترى بمقتضاه منطقة صغيرة لاستخدامها « كمكان تحتمي فيه سفن شركة روباتينو ، وتتزود بالفحم في رحلتها إلى الهند » . وكان هذا المبشر بذلك رسول الاستعمار الإيطالي في أريتريا ، كما كان حال معظم المبشرين الأوروبيين في القرن التاسع عشر .

وقد وافق مجلس النواب الإيطالي في ٥ يوليو (تموز) ١٨٨٢ على هذا الاتفاق . فانتقلت ملكية « القطعة الصغيرة » من إقليم عصب ، من هذه الشركة إلى الحكومة الإيطالية . وأصدر مجلس النواب الإيطالي في التاريخ نفسه ـ ٥ يوليو ـ قانوناً بتحويل عصب إلى مستعمرة أطلق عليها « مستعمرة



عصب » دون أن يحس أهلها وحكامها الشرعيون بما جرتهم إليه الشبكات الخداعية التي نسجها المبشر سابيتو باسم الاتفاقيات .

وفي ١٠ يناير (كانون الثاني) ١٨٨٣ م غادر الكونت بيترو انتونللي عصب متجهاً إلى سلطنة (أوسا) ، مقر السلطان محمد حنفري ، زعيم الدناكل.وفي ٨ مارس (أذار) ١٨٨٣ انتهز انتونللي الفرصة، فعقد مع هذا السلطان في ١٥ مارس ١٨٨٣ معاهدة تجارية وطدت دعائم النفوذ الإيطالي في جهات أوسا والدناكل ، ووسعت أملاك الطليان فيها ، وفرضت نوعاً من الحماية على اتباع السلطان . فنصت المادة الثالثة على أن يضمن السلطان سلامة وأمن القوافل الإيطالية المارة بسلطنة أوسا بين عصب على الساحل شرقاً ، ومملكة شوا غرباً . ووافق السلطان في المادة الرابعة على إعفاء القوافل الإيطالية من الضرائب ، سواء كانت هذه القوافل وافدة من عصب أو متجهة إليها . ثم قبل السلطان في المادة الخامسة أن يتنازل للحكومة الإيطالية عن منطقة (إبليس) لاستخدامها محطة تجارية إيطالية . وأجازت المادة السابعة للطليان التنقل والسفر كيفما شاؤوا في كل المناطق التابعة لسلطان أوسا ، وان تتولى السلطات العسكرية الإيطالية على ساحل البحر الأحمر الغربي « صيانة الأمن في ساحل الدناكل » ، أو بمعنى أوضح أن تحتل إيطاليا ساحل دنكاليا وتخضعه لسيطرتها الاستعمارية . وقد تعمدت إيطاليا عقد هذه الاتفاقية مع سلطان أوسا حتى تعفي نفسها من عقد اتفاقيات متعددة مع سلاطين الشاطىء (رحيتا ، بيلول ، عد ، الخ) . . . مستندة الى ما كان للسلطان من نفوذ إسمي على بلاد الدناكل كلها .

احتلال سواحل أريتريا من بيلول إلى مصوع

تجلى ترحيب بريطانيا بمشروعات إيطاليا الاستعمارية التوسعية بشكل واضح ، عندما أبلغ اللورد جرانفيل ، وزير الخارجية البريطانية ، الكونت نيجرا في ٢٢ ديسمبر (كانون الأول) ١٨٨٤ « ان الحكومة المصرية عاجزة عن الاستمرار في التمسك بكل ساحل البحر الأحمر الإفريقي » . واستمر



يقول « إننا ليس لنا حق ولا ندعي أنّ لنا حقاً في إعطاء شيء لا نملكه ، فإذا شاءت الحكومة الإيطالية امتلاك بعض الموانىء موضوع المذكرة الإيطالية لبريطانيا (بيلول ، مصوع) ، فإن هذه المسألة بين إيطاليا وتركيا ، ولكن حكومة جلالة الملكة ليس لديها أية اعتراضات على احتلال إيطاليا ميناء بيلول ومصوع » .

وحينما اطمأنت الحكومة الإيطالية إلى موافقة بريطانيا على مشروعاتها التوسعية على ساحل البحر الأحمر الغربي ، صارت تسعى إلى خلق المبررات التي تسمح لها باحتلال مصوع ، فانتهزت فرصة مقتل الرحالة الإيطالي (جوستا فوبيانكي) الذي لقي حتفه في أكتوبر (تشرين الأول) ١٨٨٤ ، في أثناء مروره ببلاد الدناكل ، لتنفيذ مآربها .

وفي ٢٥ يناير (كانون الثاني) ١٨٨٥ احتلت فرقة من رجال البحرية الإيطالية مرسى بيلول الواقع شمال عصب ، وذلك بعد انسحاب الحامية المصرية منه . وأبرق مانشيني ، وزير خارجية إيطاليا في التاريخ نفسه إلى الكونت كورتي ، سفير إيطاليا في القسطنطينية يسوّغ احتلال بيلول بقوله : « إن مذبحة بعثة بيانكي التي وقعت بعد ثلاثة أعوام من نكبة جيوليتي ، هي التي اضطرتني إلى تدعيم نفوذنا وسلطتنا على ساحل البحر الأحمر الغربي بإرسال حامية إلى بيلول يكون في استطاعتها بطريقة مباشرة ، كبح جماح الدناكل ، وذلك لأن التغاضي عن الفوضى الضاربة أطنابها في بيلول ، معناه من ناحية ، خلق مصدر دائم للتهديدات والأخطار لمستعمرتنا في عصب ، ومن ناحية أخرى ، إيجاد مبرر قوي لتدخل دولة ثالثة (فرنسا) ، ومن ثم فقد عزمنا على إنزال فرقة صغيرة من رجال البحرية الإيطالية في بيلول لحفظ النظام والهدوء هناك » .

وفي ٣٠ يناير (كانون الثاني) ١٨٨٥ أبرق السنيور مانشيني الى الكونت كورتي يقول « إن حوادث البحر الأحمر اضطرته إلى النظر بعين الاعتبار إلى حالة مصوع ، وإنه يعرف من مصدر غير مباشر موثوق به أن خديوي مصر أحاط الباب العالي علماً منذ بضعة أسابيع بضرورة إخلاء مصوع ،



مثلما أخلى قبلاً الأماكن الأخرى الواقعة في أقصى الجنوب ، فإذا حدث وأخلت مصر مصوع ، فإنّ هذه المنطقة سوف تعمها الفوضى ، وعلى ذلك فإن الحكومة الإيطالية مستعدة لاحتلالها » .

وفي أول فبراير (شباط) ١٨٨٥ سلم دي مارتينو قنصل إيطاليا العام في مصر إلى نوبار باشا مذكرة جاء فيها : « إن حكومة جناب الخديوي لا يمكن أن تجهل الاضطرابات التي تظهر وتنتشر في مناطق ساحل البحر الغربي كله ، وتعتبر خطراً على مستعمرتنا في عصب ، وتهدد أمن رعايا صاحب الجلالة ملك إيطاليا ، الذين يقيمون في أماكن مختلفة على الساحل . لقد حزنت إيطاليا من قبل على مقتل بعثة جيولتي من دون أن تستطيع عقاب الجناة ، كما تأثرت أيضاً تأثراً عميقاً لمقتل بعثة بيانكي على حدود منطقة مصوع وبلاد الدناكل . إن حكومة صاحب الجلالة لا تستطيع أن تقف مكتوفة اليدين إزاء هذه الأحوال ، ولذلك فإني باسم حكومة صاحب الجلالة ملك إيطاليا أطلب من حكومة جناب الخديوي أن تتحمل تحملاً كلياً مسؤولية ضمان رعاية كل مصالحنا ، وتأمين رعايانا على الشاطىء إلى الجنوب من سواكن في ما وراء البحر الأحمر » .

وواضح إن هذه الحجج التبريرية كانت مجرد ذرائع استعمارية . وإلاّ فأيّ منطق يقبل أن يسمى مقتل رسول أو رسولين من رواد الاستعمار حالة عامة للاضطراب (تظهر وتنتشر) . فالبلاد كانت تعيش في حالة أمن وسلام وأهلها كانوا يرفضون الاستعمار وقضوا على طلائعه دفاعاً عن بلادهم .

وفي ٣١ يناير (كانون الثاني) أصدرت الحكومة الإيطالية أوامرها إلى الكولونيل سالينا باحتلال مصوع . وفي صباح ٥ فبراير (شباط) ١٨٨٥ وصلت السفينتان (جوناردو) و (فسبوتشي) إلى ثغر مصوع بقيادة الأميرال كايمي قائد القوات البحرية الإيطالية في البحر الأحمر .

ولقي الطليان معارضة من جانب الضابط المصري « عزت بك » محافظ مصوع وقائد القوات المصرية فيها الذي احتج احتجاجاً شديداً ضد نزول



أية قوات أجنبية في منطقة تخضع لسيادة الباب العالي ، كما اعتصم الأهالي بمنازلهم وأغلقوا محلاتهم التجارية ، وقطع النائب المياه عن الميناء حتى تتضح الحالة . وعمد الأميرال كايمي إلى تسليمه نسخة بالعربية من منشور أعده القائد الإيطالي لإعلانه على سكان مصوع ، وذلك بقصد التحايل لإنزال القوات الإيطالية إلى مصوع من دون قتال . أما نص هذا الإعلان فهو كما يلي :

« إلى سكان مصوع ، إن الحكومة الإيطالية بالاتفاق مع الحكومتين البريطانية والمصرية قد أمرتني باحتلال قلعة مصوع ، ذلك الاحتلال الذي أقوم بتنفيذه اليوم . إن الراية الإيطالية سوف ترفع بجانب الراية المصرية ، كما سيتولى رجال البحرية الطليان وجنود الجيش الذين نزلوا إلى مصوع المحافظة بشدة على النظام . ونحن مستعدون لدفع ثمن ما نحتاج إليه ونريده . وسوف نحترم عاداتكم وديانتكم ، ولن أضع أية عقبة في وجه تجارتكم ، بل على العكس ، فإن مجهودي سوف يتجه إلى رواجها. وإني أطمئنكم إلى نوايا الحكومة الإيطالية الطيبة ، وعلى ذلك فنحن نطمع في صداقتكم وان تستمروا في أداء أعمالكم التي كنتم تقومون بها وأن تشعروا بالطمأنينة والأمن » .

وقد صيغ البيان ليلائم نفسياً بيئة مصوع التجارية ، تلك البيئة التي تهتم بالاستقرار وازدهار التجارة ، أكثر مما تهتم بهوية الحاكم ، خاصة ان الإدارة المصرية كانت في حالة ضعف وتضعضع بعد الهزائم التي منيت بها في حروبها مع الحبشة، ومع المهدية في السودان، ووقوع مصر ذاتها تحت النفوذ البريطاني . وكان مجتمع مصوع التجاري الذي كان يتحكم بمصير المنطقة يتمنى زوال الوجود الإسمي للإدارة المصرية التي لم يكن بمقدورها حتى الحفاظ على ممتلكات السكان وأرواحهم من غارات الحبشة ، الأمر الذي دفع عدداً من الفرسان أظهرهم آدم محمد بك ، من أسرة النائب البلوية الحاكمة ، إلى التصدي لغارات الحبشة والرد عليها الصاع صاعين ، مما سجلته ذاكرة المواطنين شعراً ونثراً بالتجري .



احتلال أسمرا وكرن والمناطق الأخرى

في ٣١ مايو (أيار) ١٨٨٧ مدت إيطاليا نفوذها على طول الشاطىء الأريتري إلى (رأس قصار) شمالاً على حدود السودان بالاتفاق مع بريطانيا . وفي ٢ يونيه (حزيران) ١٨٨٩ احتلت القوات الإيطالية بقيادة الميجر دي مايو مدينة كرن ورفعت عليها العلم الإيطالي ، بعد أن أنزلت منها العلم المصري . كما استولى في ١٧ أغسطس (آب) ١٨٨٩ على (قرع) في اكلي قوزاي ، واستولى على أجزاء كبيرة من أقاليم سراي واكلي قوزاي ، بينما استمرت مقاومة المواطنين بزعامة دجياش حقوس بهتا وغيره للاحتلال الإيطالي فترة من الوقت .

وفي ٤ أغسطس (آب) ١٨٨٩ دخل الجنرال باليسير ا أسمرا ، وكانت عبارة عن أربع قرى صغيرة يطلق عليها (أربعتي أسمرا) بالتجرينية (١) . وقد نقلت الإدارة الاستعمارية الإيطالية مكاتبها من مصوع إلى أسمرا لتصبح عاصمة البلاد بعد وصول خط السكة الحديدية إليها في ٦ ديسمبر (كانون الأول) ١٩١١ بالنظر لموقعها الممتاز المتوسط للبلاد وجوها الدائم الربيع .

اعلان تسمية (أريتريا) في يناير ١٨٩٠

المقاومة الشعبية

في أول يناير (كانون الثاني) ١٨٩٠ أصدر الملك همبرت الأول ملك إيطاليا مرسوماً ملكياً بتأسيس مستعمرة أريتريا بعد توحيد الأقاليم المختلفة على البحر الأحمر والمرتفعات التي احتلها الجيش الإيطالي وأجزاء من المنطقة الغربية حتى أغردات ، وسعت لتشمل حوض القاش عند تخطيط الحدود .

---

١ – تقول الرواية المحلية في تسمية أسمرا ، إن القرى الأربع في تلك الهضبة كانت تعيش في حالة نزاع واقتتال إلى أن وفقت أربع نسوة صالحات في إحلال السلام والوئام محل الحروب والخصام، فسمي عملهن بالعمل (المثمر) وبالتجرينية (أسمرت). وقد جاء ذكر اسم أسمرا في مخطوطات تجار البندقية في القرن الرابع عشر ، مما يدل على أنها مدينة قديمة .



وعينت الحكومة الإيطالية الجنرال (أوريرو) أول حاكم عام لاريتريا . وسميت البلاد باسم (أريتريا) بهذا المرسوم احياء للتسمية الرومانية (ماري أرثريان) الذي ورثه الرومان بوراثة النفوذ اليوناني في البحر الأحمر في القرن الأول الميلادي بعد احتلال يوليوس قيصر لمصر .

وباحتلال البلاد أعلن الطليان ما أطلق عليه (قانون التهدئة العامة) ومنح الجيش الإيطالي بموجبه (كرتا أبيض) لمدة عام لاتخاذ الإجراءات الكفيلة باستتباب الأمن ، وهي عبارة مطاطة يستعملها المستعمرون لإخفاء أعمال القتل والتعذيب والنفي من دون اللجوء إلى الإجراءات القانونية كما هو معروف في كل مكان . وقد قتلت السلطات الإيطالية المئات من زعماء البلاد بموجب قانون الطوارىء ، الذين عارضوا الاحتلال أو خشيت إيطاليا من تمرداتهم . واشتهرت جزيرة (نخرة) الرطبة الموبوءة بالأمراض كمأوى للزعماء الوطنيين المعارضين للاحتلال الإيطالي . وسنفرد كتاباً خاصاً لحركة المقاومة الأريترية إن شاء الله .

من دوقلي إلى عدوا :
صراع من أجل السيطرة على أريتريا

حاولت إيطاليا أن تستفيد من التنافس الذي كان قائماً بين الأمبراطور يوحنس (يوحنا) أمبراطور أثيوبيا ، وكان من إقليم تجراي ، ومنيليك ، ملك إقليم شوا (إذ كانت الحبشة ممالك صغيرة لكل منها ملك وكلهم يخضعون للأمبراطور — ملك الملوك) . وكان منيليك يطمح لانتزاع عرش ملك الملوك لنفسه . ففي ٢١ مايو (أيار) ١٨٨٣ عقد المبعوث الإيطالي كونت انتونللي معاهدة صداقة مع منيليك في عاصمته (انكوبر) تكونت من ١٨ مادة، وبموجبها وطد الطليان دعائم نفوذهم على شوا. وعزز الطليان هذه المعاهدة بمعاهدة أخرى أبرمت في نابولي في أول أكتوبر (تشرين الأول) ١٨٨٩ ووقعها جريسبي عن ملك إيطاليا ومكونن — والد هيلاسيلاسي — عن منيليك ، ملك شوا . وفي هذه المعاهدة يعترف مينليك بسيادة ملك إيطاليا على أريتريا . كما وافق الإيطاليون على اقراض منيليك ٤ ملايين



فرنك بضمانة إيرادات جمارك هرر ، وفي حالة عدم السداد تصبح كل مقاطعة هرر ملكاً لإيطاليا . وكان منيليك قد غزا هرر واستولى عليها بعد أن هزم جيشها بقيادة الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الشكور في معركة (شلنقو) عام ١٨٨٧ ، وضمها إلى أملاكه بعد صراع بينها وبين مملكة الحبشة استمر أكثر من ستة قرون . وقد جلا المصريون عن هرر قبلها بعامين فقط .

وساء الأمبراطور يوحنس أن يتصل الطليان بمنافسه منيليك الثاني ، صاحب شوا ، فوجه رأس الولا – وكان حاكماً لإقليم تجراي ويتمتع بظل من النفوذ على الهضبة الأريترية بعد أن غدر بأقوى حكامها ، رأس ولد ميكائيل ، وسلمه أسيراً للأمبراطور يوحنس – وجّهه إلى سهول (سمهر) الأريترية لمحاربة الطليان قبل أن يتوغلوا إلى مملكته ، كما فعل المصريون من قبلهم . فاصطدم بحملة إيطالية في (دوقلي) على بعد ٢٥ كيلومتراً غربي مصوع وتمكن من القضاء عليها وقتل أكثر من ٥٠٠ من رجالها وبينهم بعض المليشيا من عساكر نائب مصوع الذي رأى في الحملة الأثيوبية استمراراً لحملات النهب القديمة على مناطق (سمهر وبركة والحباب) ، وخاصة ان رأس الولا نفسه كان يقوم بهذه الغارات للنهب والسلب ويجد المقاومة العنيفة من سكانها . وقد اشتهر آدم محمد بك وهو من أسرة النواب الحاكمة بغاراته المعاكسة لغارات رأس الولا حتى لم تسلم منه أماكن العبادة مثل دير دبر بيزن ، عندما أغارت قوات رأس الولا على ضريح الشيخ محمد بن علي في أمبيرمي مستعنياً بقبائل الطروعة والاساورته الشديدة المراس .

والواقع ان غارات الأريتريين بعضهم على بعض – (وكان هذا أمراً مألوفاً في الجزيرة العربية وفي مناطق عديدة من العالم) – لم تنته إلاّ بعد أن بسط الطليان سلطانهم على الجميع وأوقفوا الغارات التي كانت تتبادلها المناطق والقبائل والأديان المختلفة سعياً وراء سلطان أو مغنم . واشتهر في هذه الفترة عدد من الفرسان أمثال (هروب) و (قناد) و (محمد نور نائب أبا طبس) الذين عبروا عن بطولاتهم بالشعر بلغة التجري التي عرفت



بخصوبتها وكثرة مفرداتها . وكان هؤلاء مثل الفئة التي عرفت في الجزيرة العربية قبل الإسلام بصعاليك العرب ، الذين كانوا فرساناً خرجوا عن قبائلهم وجعلوا همهم الانتصار للمظلوم ، يأخذون الحق من الظالم بقوة أيديهم . ينهبون ويسلبون كلما رأوا ذلك ضرورياً ومفيداً .

لم يواصل رأس الولا زحفه نحو مصوع ، بل اكتفى بالانتصار الذي حققه . ولا يعود ذلك إلى قوة الحامية الإيطالية في مصوع بقدر ما يعود إلى تدخل الانكليز الذين كانوا عقدوا حلفاً مع الأمبراطور يوحنس لمساعدتهم في حروبهم ضد الدولة المهدية في السودان ، وهي الحرب التي كان يخوضها الانكليز باسم حكومة مصر (الدمية) . وكان الطليان حليفاً آخر لبريطانيا ضد المهدية ، ولم يكن من مصلحة بريطانيا والحالة هذه أن يتصاعد النزاع بين حلفائها ، فأرادت أن توجه جهود الاثنين نحو محاربة قوات المهدية التي كانت متوغلة في غرب أريتريا . وهزمت في النهاية على أيدي رأس الولا والإيطاليين ، في مشارف كرن ، وواصل الطليان زحفهم حتى انتزعوا كسلا من الحكومة المهدية .

وبسبب اختلاف الولاء للطرق الصوفية ، فقد حارب الأريتريون في المنطقة الغربية ضد القوات المهدية ، في وقت كانت المنطقة تتبع إدارياً لمديرية (التاكا) السودانية إبّان الحكم المصري. ويعود ذلك إلى ولاء السكان للطريقة الختمية التي كان ينكر زعماؤها (مهدية) المهدي من الناحية الدينية ، ويعارضونه سياسياً ويعلنون ولاءهم للخديوية المصرية . والواقع ان السيد علي الميرغني زعيم الطائفة الختمية المشهور في السودان ، قد تمكن من الفرار إلى مصر ، وهو فتى يافع مع والده السيد أحمد الميرغني الذي جرح في معركة كسلا عندما دخلتها قوات المهدية بزعامة الأمير عثمان دقنا ، بمساعدة أتباعه في أريتريا وسافر عن طريق مصوع . وقد خلق هذا الانقسام الطائفي في السودان مناخاً سياسياً ينقسم فيه ولاء السكان في السودان بين المهدية — حزب الأمة — والختمية — حزب الشعب الديموقراطي والوطني الاتحادي .



وعرف سكان القدين والبني عامر بتعصبهم للختمية وقاتلوا القوات المهدية قتالاً مريراً قاسياً ، ليس هذا فحسب، بل شنوا عليها حرباً «عقائدية» بأن أطلقوا على أنصارها لفظة (القوم) وتعني عندهم كافر أو من لا دين له . وأصبحت هذه الكلمة اليوم تطلق على كل من يخالف طريقتهم الختمية ، ويسمون الشخص (قومياي) .

لم تف بريطانيا بوعدها للأمبراطور يوحنس بتمكينه من استلام مصوع وكرن ، وكانت خاضعة للحكم المصري بعد أن خضعت مصر نفسها للحكم البريطاني . وفضلت تشجيع الطليان على احتلالها ، للحد من تعاظم النفوذ الفرنسي في البحر الأحمر . وقتل يوحنس على أيدي المهديين في معركة (المتمة) المشهورة في ٢٩ مارس (آذار) ١٨٨٩ .

كانت المقاومة الأريترية تعرقل في الوقت نفسه مشاريع إيطاليا التوسعية. واشتهر دجياش بهتا حقوس ، حاكم سقنيتي في اكلي قوزاي في الهضبة الأريترية بمقاومته البطولية حتى استشهد . كما برز زعماء آخرون .

وأراد الطليان استعمال سياسة فرّق تسدْ ، لإضعاف نفوذ الزعماء الأريتريين . فسلموا إدارة جمارك مصوع لكنتيباي حامد – زعيم منطقة الحباب ، بعد أن انتزعوها من أصحابها التقليديين – أسرة النائب التي كان يمثلها النائب إدريس الذي يصفه فردناندو دي مارتيني – الحاكم العام الإيطالي في مذكراته بـ (العاجز المتكبر) . ولكن هذا الأسلوب لم ينجح ونفت السلطات الإيطالية كنتيباي حامد إلى عصب وخلد منفاه شعراً جميلاً بالتجري . كما انتقل كنيتباي محمود بكامل عشيرته من الحباب إلى منطقة طوكر ، واحتمى بالإدارة البريطانية (السودان الانكليزي – المصري) بعد أن اختلف مع الطليان ورفض الخضوع لإدارتهم .

معركة عدوا وقصاص منيليك من الأريتريين

استمر الطليان في مساعيهم لبسط نفوذهم على كل أقاليم الحبشة . فأهدت إيطاليا إلى منيليك مزيداً جديداً من الأسلحة مقداره ٣٨٠٠٠



بندقية و ٢٨ مدفعاً (١) وعقدت معه في مايو (أيار) ١٨٨٩ معاهدة عرفت بمعاهدة (أوتشيالي) ، وبموجبها فهمت إيطاليا ان الحبشة أصبحت تحت حماية إيطاليا .

وأدى الاختلاف في تفسير المادة ١٧ من هذه المعاهدة إلى حرب (عدوا) الشهيرة بين الحبشة وإيطاليا . وكان النص الإيطالي لهذه المادة يقول : « يجب على الحبشة أن تكون اتصالاتها مع الدول الأخرى عن طريق إيطاليا »، بينما النص الأمهري يقول : « يمكن الحبشة أن تتصل بالدول الأخرى عن طريق إيطاليا » ، ورفض منيليك التفسير الإيطالي وألغاها . وكانت الحرب .

جمع الإيطاليون شمل قواتهم وبدأوا الزحف الى تلال (عدوا) في تجراي بجيش بلغ تعداده ٢٧٠٠٠ جندي تحت قيادة الجنرال باراتيري (Barateire) الذي حارب من قبل المهدية في غرب أريتريا واستولى على كسلا ، وكان نحو عشرة آلاف منهم أريتريين ، جنّد معظمهم عن طريق الإجبار .

ولم تكن للطليان خرائط واضحة عن منطقة القتال ، وكانوا يعتمدون

---

١ – تنافست الدول الاستعمارية – إيطاليا ، فرنسا ، بريطانيا – في توريد السلاح إلى منيليك طمعاً في كسب وده، حتى اشتغل في صناعة الموت هذه شاعرهم المشهور –رنبو– الذي اتخذ هرر مقراً له . وتمكن منيليك بفضل هذه الأسلحة من توسيع مملكة الحبشة القديمة على حساب استقلال جيرانه من ممالك الغالا والصومال والدناكل وغيرهم . ويصف جون بوخلزر (John Bucholzer) في كتابه : بلاد الوجوه المحروقة (The Land of the burnt face) فتوحات منيليك بأنها كانت كأسراب جراد يقضي على الأخضر واليابس . كما يصفها أرنست لوثر (Ernest Luther) في كتابه : أثيوبيا اليوم (Ethiopia today) بقوله «ضم الأمبراطور منيليك الثاني أراضي واسعة إلى مملكته عن طريق الفتوحات في نهاية القرن التاسع عشر . وقسم تلك الأراضي بين أسرته وأتباعه وجنوده ولم يبق لأهل الأرض إلا اليسير » . أما اسبنسر ترمنجهام (Trimingham) فيقول في كتابه : الإسلام في أثيوبيا (Islam in Ethiopia) إن منيليك أعدم ثلثي سكان ولاية جومو واستعبد الباقين ، وفعل ذلك في عدد من مناطق الغالا التي احتلها . ويذكر التاريخ أن منيليك استرق سكان مملكة ولامو بعد أن هزمهم ووزعهم كالدواب على أتباعه في كل أنحاء البلاد . وقد ألغى منيليك تسمية الحبشة وسمى البلاد باسم (الأمبراطورية الأثيوبية) . ولكن الشعوب لا تنقرض ، فهناك اليوم حركات تحرير تمثل هذه الشعوب وتتطلع إلى الانعتاق من الاستعباد الأمهري .



على الدليل الأريتري (أرعدوم) الذي كان على صلة بمنيليك كرهاً للاستعمار الإيطالي . فكان أن أوردهم موقعاً جعل قوات منيليك تحيط بهم من كل جانب . وكانت مذبحة للجيش الإيطالي إذ بلغت خسائره ١٢٠٠٠ قتيل وجريح ، ثلثهم أريتريون و ٧٠٠٠ أسير و ٣٢٠ مدفعاً وكميات كبيرة من الذخيرة وجميع معدات المعسكر .

وتصرف منيليك تجاه الأسرى بوحشية ، إذ خصى الطليان منهم ، وقطع أرجل وأيدي الأريتريين من خلاف (اليد اليمنى والرجل اليسرى) ، الأمر الذي زاد من المرارات التاريخية وعمق العداوات بين أريتريا والحبشة ، وكان القطع يتم بالسكاكين والفؤوس العادية من دون أن يتبعه دواء ، إلاّ ما كان من غمس موضع البتر في زيت يغلي لوقف النزيف . وقد مات معظم الأسرى تحت وطأة هذا التشويه الوحشي .

وقد حقق منيليك نصراً ساحقاً على الطليان ، لكنه لم يحاول ملاحقة فلول الجيش الإيطالي وطردهم من أريتريا ، بل انتهت هذه المعركة الفاصلة بمعاهدة وقعها الطرفان في أديس أبابا في ٢٦ أكتوبر (تشرين الأول) ١٨٩٦ ، اعترف فيها منيليك بحق إيطاليا في البقاء في أريتريا . وفضل استثمار نصره مادياً ، فاستلم من إيطاليا مبالغ مالية طائلة .

معاهدات تخطيط الحدود الأريترية

كعادة الاستعمار في كل مكان ، لم يراع عند تخطيطه الحدود الأريترية الاعتبارات السلالية والثقافية والقومية والتاريخية والجغرافية والاقتصادية ، بل حط رحاله حيثما اصطدمت أقدامه بمستعمر آخر سبقه إلى تلك البقعة . وهذا سر ما نشاهده اليوم من نزاعات حدودية بين بعض البلدان الإفريقية وغيرها ، حيث نجد العشيرة الواحدة وقد قسمت بخط وهمي من الحدود إلى قطرين لا اتصال بينهما إلاّ عبر إجراءات معقدة لم يألفها الراعي والفلاح الإفريقي منذ أن وجد في هذه الأرض . وتعد مشكلة الصومال مع جيرانها — أثيوبيا ، كينيا ، فرنسا ، مثالاً صارخاً للتقسيم الاعتباطي الذي أجراه الاستعمار في البلاد الإفريقية .



وبالنسبة إلى أريتريا ، فإن هذه المشكلة لم تنشأ ـ على الأقل حتى الآن ، وبالنظر لخضوع أريتريا لاحتلال أجنبي ـ إلا أن تخطيط الحدود قد تم بطريقة أبعد ما تكون عن مراعاة الوحدة السلالية للسكان . ولا توجد بقعة من بقاع أريتريا الحدودية إلا وترتبط بشرياً وجغرافياً بالبقعة المجاورة خلف الحدود . ومن الصحيح أن يقال إن هذه الظاهرة مألوفة عند كل مناطق الحدود في العالم ، ولا تختص بها أريتريا ، ولكن الذي يدرس الوضع الحدودي الأريتري يكتشف ظاهرة ذات تأثير أعمق نأمل أن تكون منطلقاً لتعزيز علاقة أريتريا بجيرانها غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً ، وليس سبباً للخلاف والمشاكل في عصر تقتضي فيه مصلحة الشعوب التجمع والاتحاد والتعاون .

الحدود بين أريتريا والسودان

في ١٥ ابريل (نيسان) ١٨٩١ أبرم الطليان مع انكلترا في روما (بروتوكولاً) لتعيين مناطق النفوذ في شرق إفريقيا من عند (رأس قصار) على ساحل البحر الأحمر الغربي لغاية النيل الأزرق . وقد نصت المادة الأولى من هذا (البروتوكول) على أن تحدد منطقة النفوذ الإيطالية في الشمال وفي الغرب ، بخط يرسم من (رأس قصار) على البحر الأحمر ، إلى نقطة تقاطع الخط السابع عشر من خطوط العرض الشمالي مع الخط السابع والثلاثين من خطوط الطول شرق غرينتش ، إلى أن يلتقي مع خط عرض ٣٠ ١٦ من خطوط العرض الشمالي . ويرسم خط الحدود من نقطة الالتقاء هذه في خط مستقيم إلى (سبدرات) ، بحيث يترك هذه القرية في جهة الشرق . ومن هذه القرية (سبدرات) يرسم خط الحدود في الاتجاه الجنوبي إلى نقطة على خور (القاش) تبعد عن كسلا عشرين ميلاً انكليزياً ، يتصل بنهر عطبرة عند خط عرض ٥٢ درجة ١٤ درجة من خطوط العرض الشمالي . ثم يذهب خط الحدود مع مجرى نهر عطبرة إلى أن يلتقي مع خور كاكاموت أو (حاصا موت) ، ومن هناك يتجه خط الحدود غرباً حتى يلتقي مع خور (لمسن) ، ثم يتبع خور (لمسن) حتى التقائه مع نهر الرهد ، إلى مسافة



قصيرة بين ملتقاه مع خور لمسن وتقاطعه مع الخط الخامس والثلاثين من خطوط الطول شرق غرينتش . ثم يتبع خط الحدود خط الطول هذا (٣٥ شرق غرينتش) ، حتى يلتقي مع النيل الأزرق .

ولم يلبث ان عقد اتفاق بين الحكومتين الإيطالية والمصرية لتخطيط الحدود بين خور بركة والبحر الأحمر . وقد أمضى هذا الاتفاق في القاهره سردار الجيش المصري السير (هربرت كتشنر) وهو انكليزي! بتاريخ ٢٥ يونيه (حزيران) ١٨٩٥ ، كما أمضاه في اسمرا حاكم أريتريا ، الجنرال (أوريستي باراتيري) بتاريخ ٧ يوليه (تموز) ١٨٩٥ . وقد نصت المادة الأولى من هذا الاتفاق على (أن خط الحدود بين مصر وأريتريا في الإقليم الواقع بين البحر الأحمر وخور بركة ، سوف يتبع خطاً يبدأ من (رأس قصار) على ساحل البحر الأحمر الغربي ، حتى يلتقي بالفرع الرئيسي لخور (قرورة) على مسافة ٢ كيلومتر تقريباً من الساحل . ثم يسير خط الحدود صاعداً مجرى (قرورة) إلى نقطة (قرورة) . ومن هذه النقطة يتبع خط الحدود سلسلة الجبال التي تفصل خور (عايت) عن خور (مرب) في الشمال ، وخور (فلكت) عن خور (سالا) في الجنوب ، لغاية نقطة على هضبة (هقر نوأوش) . ومن هذه النقطة الأخيرة ، سوف يسير خط الحدود حتى يلتقي بخور بركة . ومن خور بركة يذهب خط الحدود في اتجاه مستقيم حتى تقاطع الخط السابع عشر من خطوط العرض الشمالي ، مع الخط السابع والثلاثين من خطوط الطول شرق غرينتش .

وفي ٧ ديسمبر (كانون الأول) ١٨٩٨ أبرم محافظ سواكن وقائد حامية كسلا ، الكولونيل شارلس بارسونز ، بالنيابة عن الحكومة المصرية ، والحاكم المدني في مستعمرة أريتريا السنيور فرديناود مارتيني بالنيابة عن الحكومة الإيطالية ، اتفاقاً في أسمرا لتخطيط الحدود الشمالية لمستعمرة أريتريا ، بين مصر وإيطاليا (على اعتبار الحكم الثنائي المصري الانكليزي للسودان) . فنصت المادة الأولى من هذا الاتفاق على أن ترسم الحدود بين الأراضي المصرية والأراضي الإيطالية الواقعة شمال مستعمرة أريتريا بخط



يبدأ من نقطة رأس قصار ، ويتجه غرباً على طول أكمة (حليباي) و(جابي هيلي) حتى يلتقي بمجرى نهر قرورة ، ثم يذهب صاعداً حتى هضبة (تيجلانيت) . ومن هذه الهضبة الاخيرة يسير خط الحدود متتبعا جبل (ابايندو) حتى يلتقي بسلسلة الجبال التي تفصل وادي (قرورة طبح) في الجنوب عن وادي (عيترا — عريرب) في الشمال . ثم يتبع خط الحدود سلسلة هذه الجبال في الاتجاه الغربي ، ثم يلتقي بتل (شيباتكولت) . ومن هذا التل الأخير يذهب خط الحدود متتبعاً سلسلة جبال (سقاد طليم) حتى يلتقي شمال جبل (روريبت) بمسافة قليلة ، مع هضبة (هجر نووش) ، ثم يتبع خط الحدود الحافة الشمالية لهذه الهضبة الأخيرة حتى قمة جبل (حامويت) . ومن هذا الجبل الأخير يسير خط الحدود متتبعاً مجرى خور آفتا لغاية آبار آفتا ، ومنها يذهب إلى جبل (حار) عبر إقليم جبلي يفصل بين مجرى خور امباكتا الأوسط وخور لوري . ومن هذا الإقليم الجبلي يسير خط الحدود صوب خور بركة ، ويلتقي به عند ملتقى الأخير مع خور امباكتا متتبعاً سلسلة الجبال التي تحيط شمالاً بالوادي المنخفض لخور امباكتا .

وبعد حوالي خمسة أشهر من إبرام الاتفاق السابق ، أمضي في أول يوليو (تموز) ١٨٩٩ اتفاق آخر في سبدرات بشأن تخطيط الحدود بين السودان المصري وأريتريا ، نص على أنه (من نقطة التقاء خور امباكتا مع خور بركة ، يذهب خط الحدود صاعداً مع مجرى الأخير (خور بركة) حتى ملتقاه مع نهر (دادا) . ومن نقطة التقاء خور بركة مع نهر دادا يتجه خط الحدود صوب الناحية الشمالية الغربية ، متتبعاً مجرى نهر دادا عند سفح سلسلة تلال اسكينيا أو (اسكيني) . ثم يتجه خط الحدود صوب الجنوب متتبعاً حاجز الجبال الذي يفصل المسيلات التي تصب مباشرة في خور بركة في الشرق ، عن تلك التي تصب في خور القاش ولانجويب في الغرب . ويتكون حاجز الجبال هذا من سلسلة تلال (اسكينيا) و (كوريب) و (تاياي) و (تايت) وجبل (ميسات) . وأخيراً جبل (بنيغير) . ومن



هذا الجبل الأخير يتجه خط الحدود في خط مستقيم تقريباً متتبعاً سلسلة تلال سبدرات التي تتكون من تل تيديلاي وجبل افابجا مبيب وجبل كليمانيا وجبل دوبا دوب . ومن هذا الجبل الأخير يتجه خط الحدود إلى جبل (كواسانا) . ثم يعبر خط الحدود سلسلة سبدرات إلى قرية سبدرات نفسها تاركاً السفوح الغربية لجبل شيابابيت في أراضي السودان المصري .

وفي ١٦ أبريل (نيسان) ١٩٠١ وقع كل من حاكم عموم السودان (تالبوت) والقائم بأعمال حاكم مستعمرة أريتريا (جيزبي كولي دي فليزانو) اتفاقاً في (تودلك) لتخطيط الحدود بين السودان المصري — الانكليزي وأريتريا ، من سبدرات إلى تودلك . فنص هذا الاتفاق على أن يتجه خط الحدود من سبدرات في اتجاه مستقيم صوب الجنوب إلى جبل اندارياب الذي يقع على مسافة ٣ كيلومترات تقريباً من الضفة اليمنى لخور القاش . ومن جبل اندارياب يسير خط الحدود في الاتجاه الغربي إلى نقطة على خور القاش تقع جنوب جبل (قلسا) الذي يترك كلية في الأراضي السودانية . ومن هذه المنطقة التي تقف على الضفة اليمنى لخور القاش ، يسير خط الحدود في اتجاه مستقيم إلى أعلى نقطة في جبل أبو جمل . من هذا الجبل الأخير يذهب خط الحدود في اتجاه مستقيم إلى نقطة تقع على خط عرض ٥٢ درجة ١٤ درجة شمالاً على الضفة اليمنى لنهر عطبرة في الإقليم الصغير المسمى (الايجيري) والذي يقع بين إقليمي اليويا أو السويا والرميلة شمالاً ، وإقليم العالم جنوباً . ومن هذه النقطة الأخيرة يذهب خط الحدود صاعداً مع مجرى نهر عطبرة الرئيسي حتى يصل إلى النقطة التي يلتقي فيها العطبراوي مع نهر سيتيت . ويترك خط الحدود عند هذه النقطة الأخيرة مجرى نهر عطبرة ويذهب صاعداً مع نهر سيتيت إلى نقطة تقع بين إقليمي (الجريشي) و (ايودا) . ثم يذهب خط الحدود من هذه النقطة في اتجاه مستقيم صوب الناحية الشمالية الشرقية إلى (تودلك) تاركاً مجموعة الآكام المعروفة باسم جبل (ايلاكلاي) داخل الأراضي الأريترية .

على أن خط الحدود بين أريتريا والسودان ، المحدد بموجب اتفاق ١٦



أبريل (نيسان) ١٩٠١ بين السودان المصري الانكليزي وأريتريا ، لم يلبث أن تعدل بموجب مذكرة ملحقة بمعاهدة ١٥ مايو (أيار) ، ١٩٠٢ بين بريطانيا وأثيوبيا لتخطيط الحدود بين السودان وأثيوبيا . وفي ما يتعلق بالمذكرة الملحقة بهاتين المعاهدتين ، فقد نصت المادة الثانية منها على أن (خط الحدود بين السودان وأريتريا والمحدد بواسطة المندوبين الانكليز والطليان بموجب اتفاق ١٦ أبريل (نيسان) ١٩٠١ من سبدرات إلى تودلك سوف يستبدل بخط آخر يسير بين سبدرات إلى جبل أبو جمل ثم إلى ملتقى خور أم حجر مع نهر سيتيت .

وفي ١٨ فبراير (شباط) ١٩٠٣ اتفقت لجان الحدود الإيطالية البريطانية في (أميريجا) على تصحيح الحدود بين السودان المصري الانكليزي ومستعمرة اريتريا بالصورة التالية : (يذهب خط الحدود بين اريتريا والسودان المصري ـ الانكليزي من أعلى قمة في جبل أبو جمل إلى أعلى نقطة في مجموعة الآكام المعروفة باسم (البوارق) والتي تبعد عن أبي جمل مسافة ١٤ كيلومتراً . من البوارق سوف يسير خط الحدود في اتجـــاه مستقيم إلى الحافة الشرقيـــة لتلال (كورايتيب) ماراً بأعلى تل في هذه الحافة ، وأعلى تل في هذه المجموعة وبشكل يجعل التجاويف المائية في تلال (كورايتيب) تقع الى الغرب من خط الحدود أي داخل الأراضي السودانية . ومن كورايتيب سوف يذهب خط الحدود في اتجاه مستقيم إلى غيضة الأشجار المشهورة التي تحوطها الأحجار عند الطرف الغربي للتل المعروف باسم جبل (توار) . ومن هناك يسير خط الحدود صوب الطريق الواقع بين (امبريجا) و (الحفرة) ويلتقي خط الحدود بهذا الطريق عند الحافة الواقعة بين (ودمزمل) والحفرة على مسافة ٥٢٠ متراً تقريباً من النقطة التي يعبر عندها أقرب مجرى مائي إلى الغرب مباشرة من الحافة السالفة الذكر . ومن النقطة الأخيرة على طريق (أميريجا) الحفرة ، سوف يذهب خط الحدود في اتجاه مستقيم إلى حنية نهر سيتيت التي تواجه مباشرة مصب خور (رويان) .



وفي ١٩ يناير (كانون الثاني) ١٩٠٤ أمضى مندوبون عن السودان المصري الانكليزي ومستعمرة أريتريا محضراً في (قرورة) لتصحيح الحدود بين (قابي هيلي) و (تيفانيت) ، فنص هذا المحضر على إقامة شارات على شكل بنايات مخروطية الشكل على طول هذه الحدود ، تبدأ عند جبل (قابي هيلي) وتنتهي عند جبل تيفانيت . فيسير خط الحدود من الإشارة الأولى عند جبل قابي هيلي في اتجاه مستقيم إلى إشارة (بعريتاي) . ثم يتبع خط الحدود مجرى نهر قرورة حتى منتصفه (تبلغ المسافة من إشارة بعريتاي إلى منتصف مجرى قرورة ٩٧ متراً) . ومن منتصف مجرى نهر قرورة يذهب خط الحدود صعداً متتبعاً الفرع الأوسط لنهر قرورة ومخترقاً جزيرتين صغيرتين تقعان في الناحية الجنوبية الغربية من بعريتاي . وبعد ذلك يسير خط الحدود متتبعاً مجرى الفرع الأوسط لنهر قرورة حتى المكان الذي يقع فيه خط الإشارات الواصل بين فوقاي وكيرباجا ، ومجرى فرع قرورة الأوسط ٦٨ متراً . ثم يسير خط الحدود من نقطة التقاطع هذه كما كان قبلاً في اتجاه مستقيم إلى إشارة فوقاي ثم إلى إشارة جبل كيرباجا ، ومن هذا الجبل الأخير يذهب خط الحدود إلى إشارة جبل تيفانيت .

الحدود بين أريتريا وأثيوبيا

في ١٠ يوليو (تموز) ١٩٠٠ أمضى أمبراطور أثيوبيا منيليك الثاني والكابتن فيديريكو تشيكو ديكولا ممثل إيطاليا في أثيوبيا في أديس أبابا معاهدة بين إيطاليا وأثيوبيا لتخطيط الحدود بين أريتريا وأثيوبيا . واتفق الطرفان المتعاقدان بموجب المادة الأولى من هذه المعاهدة على أن يكون خط تومات تودلك ــ مارب ــ بيلسا ــ موتا ، هو خط الحدود بين أريتريا وأثيوبيا.

على أن خط الحدود الأخير بين أريتريا وأثيوبيا لم يلبث أن تعدل بموجب المذكرة الملحقة بمعاهدة ١٥ مايو (أيار) ١٩٠٢ بين بريطانيا وإيطاليا وأثيوبيا . فنصت المادة الأولى من هذه المذكرة على أن « يسير خط الحدود بين أريتريا وأثيوبيا من ملتقى خور أم حجر مع نهر سيتيت متتبعاً مجرى الأخير (سيتيت) حتى التقائه مع نهر (مايتيب) . ثم يذهب خط الحدود



مع مجرى مايتيب تاركاً جبل (ولاكاتاكورا) أو (آلاتاكورا) داخل أريتريا لغاية التقاء نهر المارب مع نهر (ماي امبسا) . إن خط الحدود بين ملتقى سيتيت ومايتيب وملتقى مارب وماي امبسا سوف يترك تحديده لمندوبين من الطليان والأثيوبيين ، على أن تبقى قبيلة كوناما داخل الأراضي الأريترية » .

وفي ١٦ مايو (أيار) ١٩٠٨ أمضى منيليك الثاني وممثل الحكومة الإيطالية في أديس أبابا جيزبي كولي دي فيليزانو معاهدة بين إيطاليا وأثيوبيا لتخطيط الحدود بين مستعمرة أريتريا وأثيوبيا . فنصت المادة الاولى من هذه المعاهدة على أن يسير خط الحدود بين مستعمرة اريتريا وإقليم تجراي من أقصى نقطة شرقي نهر موتا في الاتجاه الجنوبي الشرقي في خط مواز للساحل ، وعلى مسافة ٦٠ كيلومتراً منه حتى يتقابل مع حدود الأملاك الفا نسية في الصومال .

وبذلك تكون حدود مستعمرة أريتريا قد استقرت نهائياً من ناحية السودان المصري الانكليزي وأثيوبيا .

الإدارة الايطالية في أريتريا

بدأت الإدارة الإيطالية في اريتريا عسكرية. فقد أخذ الاحتلال الذي أطلق عليه (عهد التهدئة) أشكالاً حربية . وكان أول حاكم إيطالي لأريتريا عسكرياً واسمه الجنرال (أوريرو) . واستمر الحكم العسكري حتى عام ١٨٩٦ عندما مني العسكر بالهزيمة الماحقة في (عدوا) على أيدي قوات الأمبراطور منيليك ، وقدم القائد الإيطالي الجنرال باراتيري للمحاكمة بتهمة التقصير . وكان آخر حاكم عسكري إيطالي .

ثم أحيل الحكم إلى إدارة مدنية وعين فردناندو دي مارتيني حاكماً عاماً لأريتريا ليضع أسس الإدارة العصرية للبلاد . فقسم أريتريا إلى تسع محافظات ، لكل منها عاصمة إقليمية هي أسمرا ، كرن ، نقفة ، بارنتو ، اغردات ، عدي قيح ، عدي وقري ، مصوع عصب ، كما هي عليه الآن . وعين محافظين يساعدهم مفتشان اثنان أحدهما للريف والآخر للمدينة .



وأقام جهازاً قضائياً مستقلاً . كما أقام إدارات للمالية والضرائب، والزراعة والغابات ، والتعليم والممتلكات الحكومية ، والأمن والصحة الخ . . .

ولم يتعرض إلى النظام الداخلي للبلاد ، بل ترك أمرها لزعماء العشائر والمحاكم الشرعية والكنيسة ، ولهذا فإن الريف الأريتري لم يتأثر كثيراً بإدارة إيطاليا العصرية التي ظلت في معظم نشاطاتها تخدم أغراض الحكومة الإيطالية الاستعمارية وجالياتها النازحة .

وقد قامت السياسة الإيطالية على تسخير الإنسان الأريتري في أغراضها العسكرية ، فلم تشجع لا تحسين أحوال الزراعة ولا بناء الاقتصاد بل عمدت إلى أساليب خبيثة لاقتلاع جذور الحياة التقليدية الأريترية من دون إيجاد بديل . فسلطت الأوبئة على الماشية ، وخاصة مرض طاعون البقر الذي لم تعرفه البلاد من قبل ، فأبيدت المواشي بالجملة ، كما قاصت مساحة الأراضي الزراعية بتشجيع الفلاحين على هجر أراضيهم والانضمام إلى الجندية متخذة شتى الوسائل لتحقيق هذه الغاية كاستيراد الحبوب والمواد الغذائية من الخارج وبيعها للمواطنين بأسعار رخيصة ، وتخصيص معاشات عالية نسبياً للجنود ، واللجوء إلى التجنيد الإجباري في بعض الأحيان . وباختصار ، فإن السياسة الايطالية قد حددت هدفها منذ البداية وحصرته في تسخير الشباب الأريتري لخدمة حروبها الاستعمارية في الصومال وليبيا والحبشة .

وتعمد الإيطاليون إبقاء الشعب الأريتري أسير الجهل لتسهل عليهم قيادته . فبعد ستين عاماً لم يترك الطليان عند خروجهم من أريتريا في عام ١٩٤١ ، بهزيمتهم في الحرب العالمية الثانية ، سوى ٢٤ مدرسة ابتدائية . وكان مستوى التعليم محدوداً بصفة متعمدة . فقد أصدر السنيور فيستا ، مدير المعارف في أريتريا في عام ١٩٣٨ كراسة تضمنت تعليمات إلى مديري المدارس الإيطاليين جاء فيها : « عند انتهاء عامه الدراسي الرابع ينبغي أن يلم الطالب الأريتري بلغتنا بقدر يمكنه من التفاهم معنا ، وأن يعلم من الحساب القواعد الأربع في حدود تمكنه من معرفة مبادىء الحساب ، ومن التاريخ يجب أن يعرف أولئك الرجال الذين جعلوا إيطاليا عظيمة » .



وفرض الفاشيست قوانين التمييز العنصري في مختلف مرافق الحياة ، حتى وصل السوء بهذه الأنظمة اللاإنسانية إلى أن قررت أفضلية شرب الماء لبغال الطليان على الجنود الأريتريين الذين يموتون من أجل أغراض إيطاليا الاستعمارية، مما دفع أحد الأحرار الأريتريين إلى قتل قائد القوات الإيطالية في معركة (طنقلحس) الشهيرة ، مما أدى إلى انهيار المقاومة الإيطالية ودخول الحلفاء أسمرا عاصمة أريتريا . وقد دامت المعركة أكثر من ٣٦ يوماً في جبال طنقلحس الحصينة ، تكبدت فيها قوات الحلفاء خسائر جسيمة .

وعلى رغم المساوىء الكثيرة للاستعمار الإيطالي ، فإنّ الطليان ، انطلاقاً من مصالحهم — كسائر المستعمرين — برعوا في تشييد الطرق والجسور والمدن والموانىء والمطارات ، حتى عدت أسمرا (روما صغيرة) (بيكلو روما) كما كان يسميها الطليان بمبانيها الجميلة وشوارعها المشجرة العريضة .

وتجلت روعة الفن المعماري الإيطالي في شبكة المواصلات التي بناها الطليان وربطوا بها كل المدن الأريترية وقراها . وأقاموا عدداً من المستشفيات العصرية. ونظموا بعض المشاريع الزراعية العصرية لزراعة الفواكه والخضروات ، كمزارع كاسبريني على ضفاف نهر القاش في علي قدر . ووسعوا ميناء مصوع وجهزوه بأحدث الآلات الرافعة ، كما أقاموا شبكة تلفونات وتلغراف ربطة العاصمة بالمحافظات وبالعالم .

وهكذا فإن الطليان ، قد خلفوا من الناحية العمرانية ، وبالقياس إلى بعض الأقطار المجاورة ، ما يمكن أن نسميه تقدماً كبيراً ، ولو أنهم من الناحية التعليمية تركوا البلاد خراباً يباباً . واستتب الأمن في عهد الاحتلال الإيطالي كما لم يستتب من قبل . فتوقفت النزاعات المحلية كما توقفت غارات النهب الأثيوبية التي طالما أذاقت شعب أريتريا ألواناً من الإرهاب طيلة قرون طويلة .



الفصل الرابع عشر

اريتريا تحت الاحتلال البريطاني

(١٩٤١ - ١٩٥٢)

نشوء الأحزاب السياسية في أريتريا

بهزيمة إيطاليا في الحرب العالمية الثانية احتلت قوات الحلفاء أريتريا في عام ١٩٤١ ، وأحيلت إدارتها إلى بريطانيا التي عينت حاكماً عسكرياً لإدارة البلاد وفق أنظمة عسكرية ، حتى انتهت الحرب العالمية الثانية بإلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما في اليابان واستسلام دول المحور (ألمانيا - إيطاليا - اليابان) في عام ١٩٤٥ .

وقد دفعت الحاجة إلى الكتبة وصغار الموظفين الإداريين ، الحكومة البريطانية ، إلى الاهتمام بالتعليم ، فشجع الكولونيل اسنيل ، مدير المعارف البريطاني تأسيس المدارس الابتدائية والإعدادية . وأقامت إدارة المعارف معهداً للمعلمين في أسمرا واستعانت بمدرسين من السودان ، وجعلت العربية والانكليزية بالنسبة إلى المناطق الإسلامية والتجرينية، والانكليزية بالنسبة الى المناطق المسيحية ، لغات التعليم .

ولم يكن هذا التقسيم الثقافي بلا مرامٍ سياسية ، فقد كانت السياسة



البريطانية محددة مصير أريتريا سلفاً ، بتقسيمها على أساس ديني ، وذلك بضم المحافظات الإسلامية الثلاث التي كان الانكليز يطلقون عليها (المنطقة الغربية) ، وهي اغردات وكرن ونقفة ، إلى السودان (الذي كان يسمى حينئذ بالسودان الانكليزي المصري) ، وضم الهضبة الأريترية والشواطىء ، بما فيها العاصمة أسمرا ومنياءا مصوع وعصب ، إلى أثيوبيا . وظهرت هذه السياسة في مشروع البريجادير جنرال لونجرج ، الحاكم العسكري البريطاني كما ورد في كتابه (مختصر تاريخ أريتريا ــ ١٩٤٥) . (Short History of Eritrea) .

وما ان وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها حتى طلب الحاكم العام البريطاني من الشعب الأريتري عن طريق الزعماء والأعيان أن يقرروا مصير بلادهم .

وكانت بوادر النشاطات الوطنية قد ظهرت في عام ١٩٤٣ ، بتأسيس بعض الشبان المثقفين في أسمرا جمعية أطلقوا عليها (محبر فقري هجر) أي (جمعية حب الوطن) . وكانت تضم الأريتريين بمختلف طوائفهم وأقاليمهم . وعلى ما روى لي ولدآب ولدماريام الذي عايش تلك الفترة وساهم على ما يقول في تأسيس تلك الجمعية ، فقد كان المؤسسون ١٢ شخصاً ، ستة منهم مسلمون وستة مسيحيون ، تعاهدوا في ما بينهم للعمل معاً لخدمة قضايا الوطن دونما تمييز . وتأكيداً لعزمهم قرروا إلغاء مشكلة ما كان يسمى بذبيحة المسلم وذبيحة المسيحي بالنسبة الى اللحم ، بأن أكلوا وليمتين ، إحداهما في منزل مسلم وكان الثري المعروف صالح أحمد كيكيا باشا ، والثانية في منزل مسيحي .

وركزت هذه الجمعية اهتمامها بالإصلاحات الاجتماعية والثقافية . وكان من بين منجزاتها إلغاء قانون التمييز العنصري الإيطالي ، وتشجيع الحركة التعليمية والثقافية وتشجيع وحدة الشعب الأريتري بمختلف طوائفه .

ولم تكن هذه الحركة الوطنية الناشئة التي كانت تفتقر إلى التجربة بمنأى عن المؤامرات البريطانية الأثيوبية . فقد كانت أثيوبيا تطمع في ضم أرتيريا



إليها وفقاً لأحلامها التاريخية التوسعية . ويذكر ان الإدارة البريطانية وزعت منشورات في عام ١٩٤١ تعد فيه شعب أريتريا (وبشكل طائفي) العودة إلى (وطنه الأم – أثيوبيا) وتحت قيادة الأمبراطور هيلاسيلاسي إذا ما تعاون معها في طرد الطليان .

وفي الوقت نفسه كانت أثيوبيا ترسل عملاءها إلى أريتريا منذ الاحتلال البريطاني ومعهم الأموال . كما كانت تستغل بعض رجال الكنيسة الأورثوذكسية للدعاية لأهدافها التوسعية بضم أريتريا إليها ، وعلى رأس هؤلاء (أبونا مرقص) الذي عرف أيضاً بولائه لإيطاليا .

أما المخابرات البريطانية فكانت تدبر المكائد التي تثير العداوات الدينية لتحول دون وحدة الشعب الأريتري في مطالبته بالاستقلال . وتجلت هذه المكائد في مذبحه أسمرا البشعة التي قتل فيها نحو ٥٠ مواطناً مسيحياً بأيدي فرقة من القوات السودانية التابعة للجيش البريطاني ، والتي كانت ترابط في أسمرا . فقد قتل أحد الجنود السودانيين اثر شجار في مائدة قمار ، وسرعان ما خرجت الفرقة من معسكرها إلى الشوارع لتقتل كل من لا يقول (لا إله إلاّ الله محمد رسول الله) . ولم يشك أحد أن المذبحة كانت من تدبير بريطانيا لتعميق الخلاف بين المواطنين الأريتريين وتكريس الانقسام لتمرير مخططاتها بتمزيق وحدة التراب الأريتري .

وقد طوق زعماء الطائفتين هذه الفتنة بأن اعتبروا القتلى شهداء الوطن ووضع المفتي والبطريرك أكاليل الزهور على قبور الضحايا معاً .

وأفلحت في النهاية مساعي أثيوبيا ممثلة في ضابط ارتباطها الذكي – الكولونيل نقا هيلاسيلاسي ، وخلقت حزباً موالياً لها باسم (حزب الاتحاد مع أثيوبيا) قاعدته العريضة مسيحية ، وذلك على ما روى لي ولدآب ولدماريام ، بعد فشل اجتماع (بيت جرجيس) في عام ١٩٤٦ ، وهو اجتماع ضم زعماء جمعية حب الوطن. وجاء الفشل بالتدخل الأثيوبي عن طريق عملائها. فقد أحاطت المجتمعين بعناصرها الإرهابية حاملة مختلف أنواع الأسلحة من مسدسات وقنابل يدوية وسيوف وسكاكين وعصي ،



ووجه هؤلاء إنذاراً إلى المجتمعين ، وكان من بينهم زعيم حزبها (جبر مسقل) بارتكاب مجزرة، ما لم ينصرف المجتمعون فوراً دون عرض مقترحاتهم بإقرار صيغة تدعو إلى الاستقلال، مع الارتباط مع أثيوبيا، في شكل تحالف كونفيديرالي يشابه ارتباط كندا مع بريطانيا . فانصرف الحاضرون تصحبهم خيبة أمل . وبرز تدلابايرو سكرتيراً عاماً لحزب الاتحاد بدلاً من جبر مسقل. ويقول ولدآب ولدماريام معلقاً: (لو لم تتدخل أثيوبيا في اجتماع بيت جرجيس لضمنا وحدة شعب أريتريا واستقلاله وعلاقة حسن الجوار مع أثيوبيا ، ولما حدثت الحروب الراهنة ومآسيها المفجعة) .

لم يعدم زعماء المسلمون في أريتريا حجة قوية لإنشاء حزب يمثلهم، وقد سبقهم إلى ذلك إخوانهم المسيحيون بإنشاء حزب يعلن ولاءه لأثيوبيا . فكان ان عقد زعماء المسلمين اجتماعاً لهم في كرن في ديسمبر (كانون الأول) ١٩٤٦ . وفي مستهل ١٩٤٧ أعلن المؤتمرون تأسيس (حزب الرابطة الإسلامية الأريترية) . وحدد الحزب الجديد هدفه بالاستقلال التام والحفاظ على وحدة التراب الاريتري (أي ضد مشروع التقسيم البريطاني) ، على أنه لم يرفض الوصاية الدولية لمدة محددة أقصاها عشر سنوات، إذا ما رُئي أن الشعب الأريتري يحتاج إلى فترة تأهيل للاستقلال . وفي حالة الوصاية فضل حزب الرابطة أن يكون الإشراف لبريطانيا طمعاً في كسب تأييدها وتجنباً للاضطراب الذي سينشأ من جراء تغيير الادارة المشرفة ولا سيما ان بريطانيا كانت تشرف على إدارة أريتريا آنذاك .

واستغل أنصار حزب الاتحاد مع أثيوبيا اقتراح حزب الرابطة الإسلامية بتفضيل الإشراف البريطاني ليطعنوا في الرابطة كصنيعة بريطانية ، كما اتهم البعض منهم علاقة الرابطة بمشاريع التقسيم البريطانية مشيرين إلى أن الاسم نفسه أوحت به بريطانيا ونقلته من شبه القارة الهندية التي مزقتها على أساس طائفي إلى جمهوريتي الهند والباكستان ، واعتبروا اختيار كرن مقراً للحزب بدلاً من أسمرا العاصمة دلالة على القبول بمشروع التقسيم .



ولكن اشتراك كل مسلمي أريتريا ، بمن فيهم مسلمو الهضبة والمناطق الشرقية التي كانت ستؤول إلى أثيوبيا ، في حال نجاح مشروع التقسيم البريطاني ، دحض هذه المزاعم عملياً. وفوق ذلك فإن بريطانيا قد وقفت أمام هيئة الأمم المتحدة ضد أهداف الرابطة الإسلامية وعرضت مشروعها الرامي إلى تقسيم البلاد ، مما أقام دليلاً آخر على صدق نوايا الرابطة في دعوتها للاستقلال وعدم ارتباطها بأية مخططات أجنبية .

واختير السيد محمد أبو بكر بن جعفر الميرغني ، زعيم الطائفة الختمية في أريتريا ، رئيساً شرفياً للرابطة ، كما اختير إبراهيم سلطان علي ، سكرتيراً عاماً وأصبح قائدها الفعلي .

وهكذا انقسم الأريتريون على أساس انتماءاتهم الطائفية ، وانطلت عليهم حيل الاستعمار الأثيوبي والبريطاني . وكان الشعب الأريتري في نهاية المطاف هو الخاسر كما برهنت الأيام .

وعلى كل ، لم يكن الانقسام طائفياً بصفة حادة ، فقد كانت هناك تداخلات تتمثل في أحزاب صغيرة منها الحزب التقدمي الحر بزعامة (رأس تسما) وهو من الأسر الحاكمة القديمة في أكلي قوزاي ، وكان أعضاؤه كلهم مسيحيين . وقد تحالف هذا الحزب وستة أحزاب أخرى صغيرة هي : ١) حزب أريتريا الجديدة ، ٢) الجمعية الأريترية الإيطالية ، ٣) حزب المحاربين القدماء ، ٤) حزب المثقفين ، ٥) حزب أريتريا المستقلة ، ٦) الحزب الوطني ، مع حزب الرابطة الإسلامية ، وشكلوا في عام ١٩٤٩ ما أطلقوا عليه (الكتلة الاستقلالية الأريترية) ، مع احتفاظ الأحزاب بكياناتها القديمة .

ولم تكن هذه الأحزاب الصغيرة بمنأى عن أيد أجنبية . فقد كانت إيطاليا تمول معظم هذه الأحزاب (١) ، كما كانتً أثيوبيا تمول حزب

---

١ – يستثنى من هذه الأحزاب الستة « الحزب الوطني » الذي كان نشاطه ينحصر في مصوع ، ويضم عدداً من موظفي الحكومة البريطانية برئاسة محمد نور حسن نائب الذي عين في ما بعد وزيراً للشؤون الاجتماعية في حكومة أريتريا . ولم يكن سراً حينذاك ان بريطانيا كانت وراء هذا التجمع الصغير بهدف أضعاف حزب الرابطة الإسلامية .



الاتحاد وتدعمه سياسياً . وان كثيراً من زعمائها كانوا من المولدين (من أمهات أريتريات وآباء إيطاليين) ، أو كانوا عساكر قدماء فقدوا وظائفهم وعصفت بهم العطالة بعد زوال الاستعمار الإيطالي . ولكن هؤلاء تحالفوا مع حزب الرابطة الإسلامية عندما أيدت إيطاليا دعوة الاستقلال نتيجة توافق المصالح ، إذ كانت الرابطة بحاجة إلى مساندة سياسية أمام هيئة الأمم المتحدة ، كما كانت تطمح إيطاليا أن تجني من وراء تأييدها للاستقلال بعض الفوائد الاقتصادية والاستراتيجية ، خاصة ان جاليتها الكبيرة في أريتريا كانت تتحكم باقتصاد البلاد ، صناعة وزراعة وتصديراً وتوريداً ، وكان أفرادها يتعرضون في الوقت نفسه إلى الهجمات والاغتيالات من قبل حزب الاتحاد .

وشهدت الأعوام الستة (٤٦ ــ ١٩٥٢) صراعات سياسية حادة ، وأنشأت الأحزاب السياسية صحفها الخاصة (جريدة الاتحاد ، جريدة صوت الرابطة الإسلامية ، جريدة الاتحاد والتقدم ، جريدة الوحدة الخ...) وكانت كلها تصدر بالعربية والتجرينية ، وأصبحت منبراً للأقلام الناشئة تتبارى لتأييد وجهة نظر معينة أو معارضتها بأسلوب ما ، كان لا يخلو في بعض الأحيان من الشتائم الرخيصة ، مع ركاكة في التعبير وبخاصة العربية .

وبعد الكبت الإيطالي الطويل انفجر الناس يعبرون عن مشاعرهم وآرائهم (مع انخفاض في مستوى الوعي السياسي والثقافي) بمختلف الوسائل ، كالمظاهرات والمنشورات والصحف والندوات والمحاضرات وأحياناً العنف . فما أكثر الدماء التي سالت ضحية الخصومات السياسية ، ولكنها فترة اتسمت بالحيوية والنشاط ، نتيجة إباحة الحريات العامة من قبل السلطات البريطانية .

ولم تكن فترة الاحتلال البريطاني (٤١ ــ ١٩٥٢) فترة ازدهار اقتصادي ، بل ان البلاد عاشت حالة من الركود الاقتصادي نتيجة ظروف الحرب العالمية الثانية ، وانتشار البطالة ، نتيجة تسريح أعداد كبيرة ممن كانوا جنوداً في الجيش الإيطالي . ولكن الجماهير الأريترية بدأت تعود



إلى استصلاح أراضيها التي هجرتها في عهد الاحتلال الإيطالي ، فانتعشت الزراعة ، كما ساهمت الخبرة الإيطالية في بناء بعض الصناعات الاستهلاكية والمزارع المتخصصة بالمحاصيل النقدية للتصدير. وبدأ الشعب يبني اقتصاده وسط موجة من الإرهاب الأثيوبي واضطراب حبل الأمن .

ولخص أحد الناس عهود الاحتلال الثلاثة في كلمات قليلة ساخرة : فالطليان عملوا بسياسة « اشبع واسكت » ، والانكليز « تكلم وجع » ، والأثيوبيون « جع واسكت » .

وأسست الإدارة البريطانية عدداً من المكتبات العامة والمعاهد الليلية لتعليم اللغات والضرب على الآلة الكاتبة والاختزال . ولوحظ أن المكتبات العامة لم تحظ إلاّ بعدد قليل من الرواد ، فقد كانت الأمية تسود الجماهير ، وأطلق البعض عليها بشيء من السخرية (فيشو عوالت) (مكتب العطالة) ، إشارة إلى أن معظم روادها كانوا من العاطلين عن العمل الذين كانوا يتخذون منها استراحاتهم .



الفصل الخامس عشر

قضية اريتريا أمام هيئة الامم المتحدة

(١٩٤٨ - ١٩٥٢)

كيف أحيلت قضية أريتريا إلى الأمم المتحدة

بموجب المادة ٣ ، ٢٣ من معاهدة السلام مع إيطاليا المؤرخة في ١٠ فبراير (شباط) ١٩٤٧ ، فإن حكومات الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا وفرنسا ، وهي دول الحلفاء الأربع الكبرى المنتصرة في الحرب العالمية الثانية ، كان عليها أن تعين مشتركة في مدى سنة واحدة من وضع المعاهدة موضع التطبيق ، التصفية النهائية لممتلكات إيطاليا الإقليمية في إفريقيا ، بما فيها أريتريا ، هذه الممتلكات التي تنازلت إيطاليا عن كل حق وملكية فيها بموجب المادة ١ ، ٢٣ .

وكونت الدول الأربع الكبرى لجنة للتحقيق في مستعمرات إيطاليا السابقة . وزارت هذه اللجنة أريتريا ومكثت فيها من ١٢ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٧ إلى ٣ يناير (كانون الثاني) ١٩٤٨ . ولكن الحلفاء الأربعة لم يتفقوا حول مصير المستعمرات الايطالية السابقة بالنظر الى اختلاف مصالحهم ، وانقضت المهلة المحددة وهي سنة ، فقرروا تطبيق الملحق ١١



بمعاهدة الصلح ونصه كالآتي :

(إذا لم تتمكن الدول الأربع من الوصول إلى اتفاق حول تصفية أي من هذه الأراضي خلال سنة واحدة من وضع معاهدة الصلح مع إيطاليا موضع التطبيق ، فإن الأمر يحال عندئذ إلى الجمعية العمومية للأمم المتحدة لإصدار توصية بشأنه ، وتوافق الدول الأربع على قبول التوصية وعلى اتخاذ التدابير الكفيلة بتطبيقها) .

وبناء على ذلك أحيلت قضية تصفية المستعمرات الإيطالية السابقة (أريتريا ، ليبيا ، الصومال) إلى الجمعية العمومية في دورتها العادية الثالثة في عام ١٩٤٨ .

توصية عام ١٩٤٨

إن الخلاف بالنسبة إلى أريتريا كان أشد مما هو بالنسبة إلى قضية ليبيا والصومال . ولقد كان ممثلو الهند وغواتيمالا وهندوراس وهايتي يرون أنه لا ممكن تقرير أي شيء حتى يتم تأليف لجنة من الأمم المتحدة لإجراء تحقيق على الطبيعة في أريتريا . ونادت الأرجنتين بالاستقلال الفوري لأريتريا وأيد ذلك مندوب المملكة العربية السعودية الذي أعلن أنه ليس على استعداد الآن لتأييد حل قائم على غير أساس حق تقرير المصير ، نظراً لأن غالبية الحجج التي قدمت تزكية لتقسيم أريتريا لا يمكن تأييدها والدفاع عنها . وإلى جانب ذلك ، أوصت لبنان ويوغوسلافيا والصين وفنزويلا والاتحاد السوفياتي وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا وروسيا البيضاء وأوكرانيا السوفياتية والباكستان ، منح الإقليم الاستقلال . وطالب مندوب الاتحاد السوفياتي إضافة نص يقضي بمنح أثيوبيا ممراً إلى البحر الأحمر عن طريق ميناء عصب .

واستمعت اللجنة الخاصة التابعة للجمعية العامة للأمم المتحدة إلى آراء ممثلي الأحزاب السياسية .

أما المشروع البريطاني بتقسيم أريتريا فقد هزم بأغلبية صوت واحد . وكان الصوت المرجح صوت هايتي .



ولما لم تصل الجمعية العامة إلى قرار أجلت القضية الأريترية للدورة العادية المقبلة .

توصية عام ١٩٤٩

اقترح مندوب الاتحاد السوفياتي أن تصبح أريتريا دولة مستقلة بعد فترة خمس سنوات من التحضير والإعداد تحت وصاية الأمم المتحدة ، مع وضع نص مناسب بشأن دعاوى أثيوبيا ، واقترح أن تتخذ أريتريا قراراً بصدد هذه المسألة بعد حصولها على الاستقلال . واقترح مندوب بولونيا استقلال أريتريا بعد مدة ثلاث سنوات تحت وصاية الأمم المتحدة والتنازل لأثيوبيا عن منفذ في البحر الأحمر عن طريق ميناء عصب .

أما مندوب نيوزيلندا فحبذ تقسيم أريتريا بين أثيوبيا والسودان (الأنكليزي المصري آنذاك) وهو المشروع البريطاني الذي هزم في العام الماضي .

وبعد مداولات طويلة توصلت الجمعية العامة إلى قرار يدعو الى تأليف لجنة تقصي الحقائق مؤلفة من خمس دول تزور أريتريا وتطلع على رغبات السكان . وقد تم إقرار مشروع القرار الذي عرف بالقرار (٢٨٩ — أ — ٤) بأغلبية ٤٨ صوتاً ضد صوت واحد (صوت أثيوبيا) وامتناع تسعة أعضاء عن التصويت على رأسهم الاتحاد السوفياتي وفرنسا ، وذلك في الاجتماع العام الـ ٢٥٠ للجمعية العامة الذي انعقد في ٢١ نوفمبر (تشرين الثاني) من عام ١٩٤٩ . وفي ما يلي نص مشروع القرار :

« إن الجمعية العامة :

« طبقاً للملحق الحادي عشر ، الفقرة الثالثة ، من معاهدة الصلح مع إيطاليا ١٩٤٧ ، حيث وافقت الدول المعنية على قبول توصية الجمعية العامة الخاصة بالتصرف بالمستعمرات الإيطالية السابقة واتخاذ الإجراءات المناسبة لتنفيذه .

« وبعد أن أخذت علماً بتقرير لجنة التحقيق المؤلفة من ممثلي الدول الأربع واستمعت إلى المتحدثين باسم المنظمات التي تمثل جوانب وأقساماً



هامة من الرأي في الأقاليم المعنية ، وبعد أن أخذت بعين الاعتبار رغبات ومصلحة سكان الأقاليم ، وكذلك مصالح السلام والأمن ، ووقفت على آراء الحكومات التي يهمها الأمر ونصوص الميثاق الخاصة :

توصي بالنسبة الى اريتريا :

١ – يتم تشكيل لجنة من ممثلي دول لا تزيد عن خمس من الدول الأعضاء، وهي بورما وغواتيمالا والنرويج وباكستان واتحاد جنوب إفريقيا ، للتأكد تماماً من رغبات سكان أريتريا ، وأفضل الوسائل الكفيلة بتحقيق رعايتهم ومصلحتهم ، وفحص مسألة التصرف بأريتريا ، وإعداد تقرير لرفعه إلى الجمعية العامة مع اقتراح أو اقتراحات قد تراها ضرورية لحل مشكلة أريتريا .

٢ – إن على اللجنة وهي تضطلع بمسؤوليتها أن تتأكد من جميع الحقائق المتعلقة بالمشكلة ، بما في ذلك الحصول على معلومات مكتوبة أو شفوية من الدول القائمة بالإدارة ومن ممثلي سكان الإقليم ، بما فيها الأقليات ، ومن الحكومات والمنظمات والأفراد حيثما ترى ذلك ضرورياً . وعلى اللجنة بصفة خاصة أن تأخذ بعين الاعتبار :

أ – رغبات ومصلحة سكان أريتريا بما فيها آراء ووجهات نظر الجماعات الجنسية والدينية والسياسية المختلفة في ولايات الإقليم ومقدرة الشعب على تقرير المصير .

ب – مصالح السلام والأمن في شرق إفريقيا .

ج – حقوق ودعاوى أثيوبيا المبينة على أساس الأسباب الجغرافية والتاريخية والجنسية ، أو لأسباب اقتصادية ، بما في ذلك بصفة خاصة حاجة أثيوبيا الشرعية إلى مرور كاف للبحر .

٣ – إن اللجنة وهي تبحث مقترحاتها ، عليها أن تأخذ بعين الاعتبار الاقتراحات المختلفة الخاصة بالتصرف في أريتريا ، وهي المقترحات التي قدمت في الدورة العادية للجمعية العامة .



٤ ـ على اللجنة أن تجتمع في مقر الأمم المتحدة في أسرع وقت ممكن ، وعليها أن تسافر إلى أريتريا . ويجوز لها أن تزور من المناطق الأخرى ما تراه في حكمها ضرورياً للاضطلاع بمسؤولياتها ، وعلى اللجنة أن تقرر القواعد الإجرائية الخاصة بها . ويجب أن يرفع تقريرها واقتراحها أو مقترحاتها إلى السكرتير العام في مدة لا تتجاوز ١٥ يونية (حزيران) من عام ١٩٥٠ ، لتوزيعه على الدول الأعضاء حتى يتسنى إجراء بحث نهائي أثناء الدورة العادية الخامسة للجمعية العامة . وعلى اللجنة الموقتة للجمعية العامة أن تدرس تقرير واقتراح أو اقتراحات اللجنة ، وان ترفع تقريراً بالنتائج إلى الدورة العادية الخامسة للجمعية العامة .

د ـ وبالنسبة إلى النصوص الآنفة الذكر :

١ ـ تدعو السكرتير العام للمطالبة بالتسهيلات اللازمة من السلطات المختصة لكل من الدول التي ترى اللجنة أن زيارة أراضيها أو الاجتماع بهذه السلطات أمراً ضرورياً .

٢ ـ تخول السكرتير العام طبقاً للمبادىء الثابتة :

ب ـ تسديد نفقات السفر للجنة في أريتريا .

ج ـ تعيين موظفين للجنة الأمم المتحدة لأريتريا وتوفير التسهيلات التي يرى السكرتير العام أنها ضرورية لتنفيذ شروط مشروع هذا القرار .

تقرير لجنة الأمم المتحدة لأريتريا

عقدت لجنة الأمم المتحدة المؤلفة من وفود غواتيمالا والباكستان والنرويج وجنوب إفريقيا وبورما عدة اجتماعات في أريتريا من ١٤ فبراير (شباط) إلى ٨ أبريل (نيسان) ١٩٥٠ ، وبعد أن حصلت على معلومات من الإدارة البريطانية [١] ومن ممثلي السكان بمن فيهم الأقليات الإيطالية ،

١ ـ مثل بريطانيا أمام لجنة التحقيق فرانك استافورد ، اليهودي البريطاني الذي كان مستشاراً لوزارة التجارة الأثيوبية ، وقدم تقارير مغلوطة للجنة لمصلحة أثيوبيا .



وبعد استشارة حكومات مصر (١) وأثيوبيا وفرنسا وإيطاليا (٢) والمملكة المتحدة، وضعت مسودة تقريرها ورفعتها إلى الأمين العام في يونيه (حزيران) ١٩٥٠ .

وكان لكل عضو من أعضاء اللجنة وجهة نظر مختلفة ، فقد اقترحت النرويج ضم أريتريا إلى أثيوبيا ، على أساس أن تبقي المديرية الغربية من أريتريا تحت الإدارة البريطانية الحالية لمدة محدودة ، ثم تمنح لها الفرصة في في ما بعد لكي تقرر إلى أي من البلدين ترغب في الانضمام، وهما أريتريا وأثيوبيا أو السودان ، وهو نفس مشروع التقسيم البريطاني في جوهره .

واقترحت بورما (٣) واتحاد جنوب إفريقيا اتحاداً « بشروط تتلاءم وكرامة البلدين وسيادتهما المحلية » ، في حين أوصت غواتيمالا والباكستان بأن تستقل أريتريا استقلالاً تاماً بعد مدة أقصاها عشر سنوات تبقى خلالها تحت وصاية الأمم المتحدة . وقالتا انه ليس هناك صلة عامة أو هامة بين أثيوبيا وأريتريا ، على أن أريتريا يساورها شعور من الاستياء بل والعداء نحو هذا البلد المجاور لها وهو أثيوبيا . وكان في رأي هذين الوفدين أن الأسباب الاقتصادية والجنسية والسلالية والتاريخية وأسباب الأمن وغيرها من الأسباب التي قدمت تأييداً لضم البلدين ، ليست كافية لتبرير قيامهما بالتقدم بتوصية بهذا الحل للأمم المتحدة . كما أنهما أعلنا أنهما غير مقتنعين بأن غالبية السكان ترغب في ذلك ، أو أن هذا هو أفضل سبيل لكفالة مصلحة السكان .

---

١ – اتسمت شهادة الدكتور محمد صالح الدين ، وزير خارجية مصر بعدم الوضوح والتحفظ، وأرجىء تقديم رأي حكومته لحين تنتهي اللجنة من تحقيقاتها في أريتريا .

٢ – كان تقرير وزير خارجية إيطاليا ، كونت أسفورزا المؤرخ في ١٩٥٠/٤/١٧ إيجابياً وشهادة لمصلحة الاستقلال .

٣ – روى لي محمد شيخ وكان عضواً في الوفد الباكستاني في لجنة الأمم المتحدة لأريتريا عندما قابلته في الكويت في عام ١٩٦٦ ، بعد أن أصبح سفيراً لبلاده « أن مندوب بورما كان حتى اللحظة الأخيرة مؤيداً لمقترحات وفدي الباكستان وغواتيمالا ، وأسهم في كتابة تقريرهما ، وانضم أخيراً إلى وفد جنوب إفريقيا لتأييد الاتحاد الفيدرالي ، اثر ورود تعليمات مشددة عليه من حكومته بضغط من بريطانيا .



الوفدان الباكستاني والغواتيمالي
يؤكدان الإرهاب الأثيوبي

من الحقائق التي لا تقبل الجدل ان الكثيرين من المسيحيين الأريتريين أجبروا في إبان الاضطرابات السياسية التي امتدت من ١٩٤٥ إلى ١٩٥٢ على تأييد الاتحاد مع أثيوبيا بواسطة الإرهاب والاغتيال وغير ذلك من الطرق غير المشروعة ، وان حكومة أثيوبيا نظمت عصابات مسلحة عرفت باسم (شفتا) ، وارتكبت سلسلة من أعمال الإرهاب والفتك ضد الأريتريين المناضلين من أجل حرية بلادهم .

وكان من أقبح الجرائم التي ارتكبتها هذه العصابات ، إقدامها على اغتيال عبد القادر محمد صالح كبيري ، أحد زعماء حزب الرابطة الإسلامية في عام ١٩٤٩ في أحد شوارع أسمرا، وهو يتأهب للسفر ضمن وفد حزبه إلى هيئة الأمم المتحدة . كما تعرض ولدآب ولدماريام ، وكان أحد زعماء الكتلة الاستقلالية إلى سبع محاولات اغتيال بالرصاص والقنابل اليدوية والسم، أصيب في كلها ونجا بأعجوبة ، حيث لا يزال يواصل النضال في إطار جبهة التحرير الأريترية .

وفي عام ١٩٤٨ ، بعد أسبوعين من مغادرة اللجنة الرباعية أريتريا ، بدأت هذه العصابات الإرهابية سلسلة من الهجمات على أنصار الاستقلال ، فاغتالت واحداً وعشرين ، بعد أن قيدت خمسة منهم واحتزت رؤوسهم بالسيوف على مرأى من نسائهم وأطفالهم (١) . كذلك أغارت هذه العصابات على المزارع ومناجم الذهب ، وكانت الصحافة الأثيوبية تصف الإرهابيين بالوطنيين وتمنحهم علناً حق اللجوء السياسي في مقاطعة (عدي أبو) في إقليم تجراي (٢) . واغتالت هذه العصابات في الفترة الواقعة بين أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٤٩ وفبراير (شباط) ١٩٥٠ ثمانية عشر مناضلاً

---

١ و ٢ – المرجع : كتاب كندي ترفاسكس (اريتريا مستعمرة في مرحلة انتقال)
Eritrea a colony in transition, K. N. Trevaskis.



أريتريا ، وألقيت القنابل اليدوية على مراكز حزب الاستقلال في أسمرا ومصوع وعدي وقري ، ومات وجرح عدد كبير من الناس في هذه الحوادث (١) . ويقول ترفاسكس ان أثيوبيا لجأت إلى العنف بعدما رأت ان العنف في فلسطين حقق لليهود ما كان يستحيل عليهم تحقيقه بالسلم ، خاصة بعدما تجمعت أحزاب الاستقلال في حزب الكتلة الاستقلالية ، ومثلت بذلك أغلبية ساحقة .

وقد شهدت لجنة الأمم المتحدة أعمال العنف في أسمرا ، وجاء في تقرير وفدي الباكستان وغواتيمالا ما يلي :

فقرة ١٨٥ — أثناء إقامة اللجنة في أسمرا ، تناهى إلى علم اللجنة بكل أسف ، وقوع العديد من الاغتيالات والمداهمات في الطرق الرئيسية وجرائم الحرق المتعمدة ، وغيرها من أعمال العنف التي كان ضحاياها أنصار الكتلة الاستقلالية . وامتدت محاولات قتل الإيطاليين وغيرهم خلال فترة إقامة اللجنة في أريتريا وبعد مغادرتها إلى جنيف .

فقرة ١٨٦ — وفي ٢١ فبراير (شباط) ١٩٥٠ علمت اللجنة بالصراع الدموي الرهيب الذي وقع بين المسلمين والمسيحيين في مدينة أسمرا نتيجة إلقاء قنبلة بالقرب من مركز (حزب الاتحاد) على موكب جنائزي ضم رفات (٢) احد المسلمين المعارضين للاتحاد مع أثيوبيا ، والذي اغتيل في يوم سابق بيد عصابات (شفتا) . وكلمة (شفتا) في أريتريا تعني الإرهاب السياسي . ودام هذا الصراع المسلح ثلاثة أيام ، وأسفر عن مقتل ما يزيد عن خمسين شخصاً بجانب أعداد كبيرة من الجرحى .

وأضاف تقرير اللجنة : (لقد تفضلت الإدارة البريطانية على أعضاء

---

١ — المرجع السابق : كندي ترفاسكس (اريتريا مستعمرة في مرحلة انتقال) .

٢ — عند استفسار المؤلف من عدد من زعماء الحركة الوطنية عن مصدر القنبلة، استبعدوا كلهم أن يكون مصدرها مقر الحزب الاتحادي، ورجحوا أن تكون من عمل الدوائر الاستعمارية الأجنبية لخلق فتنة طائفية تمكنها من تمرير مخططاتها بتقسيم أريتريا .



اللجنة بتقارير سرية تتعلق بنشاطات (شفتا) ، وهذه التقارير التي لا يمكن الإعلان عنها ، بالنظر إلى سريتها ، تدل بوضوح على أن معظم هذه العصابات قادمة إلى أريتريا من أثيوبيا ، وإن جرحاها يعالجون في المستشفيات الأثيوبية) .

ولم تكتف الحكومة الأثيوبية بتنظيم أعمال الإرهاب بل استخدمت الدين أيضاً كوسيلة لتحقيق مطامعها الاستعمارية في أريتريا . فقد حملت الكنيسة الأورثوذكسية في أريتريا على أن تصدر في صحيفة (أثيوبيا) إنذاراً بأنها لن تجري مراسيم المعمودية أو الزواج أو الدفن أو الغفران لا لأعضاء الكتلة الاستقلالية ولا لأفراد عائلاتهم . وهكذا وجد المسيحيون الأريتريون أنفسهم أمام أحد خيارين: أما العضوية في الكتلة واما هجر معتقدهم الديني .

توصية عام ١٩٥٠

قرار الاتحاد الفيديرالي بعد نقاش حاد طويل

قدمت إلى الجمعية العامة في دورتها العادية الخامسة تقارير لجنتها لأريتريا. كما قدمت مشروعات مقترحة من قبل الدول الأعضاء لحل المشكلة الأريترية أهمها :

أ ــ مشروع قرار مقدم من الاتحاد السوفياتي يطالب الجمعية العامة بأن توصي بمنح أريتريا الاستقلال فوراً ، وسحب قوات الاحتلال البريطانية من أريتريا في مدة ثلاثة أشهر ، ابتداء من اليوم الذي توافق فيه الجمعية العامة على هذا القرار ، وضم جزء من الأراضي الأريترية إلى أثيوبيا لضمان مرور أثيوبيا إلى البحر عن طريق ميناء عصب .

ب ــ مشروع قرار مقدم من العراق ويوصي من بين أشياء أخرى ، بأن مسألة ما إذا كانت أريتريا ينبغي أن تدخل في إطار شكل من الاتحاد مع أثيوبيا تحت التاج الأثيوبي أو أن تصبح دولة ذات سيادة ، ومنح أثيوبيا ممراً مناسباً إلى البحر الأحمر ، يجب أن تقرها جمعية وطنية تمثل شعب أريتريا تمثيلاً صحيحاً ، وذلك في مدة لا تتجاوز أول يوليو



(تموز) من عام ١٩٥١ . ونص مشروع القرار إلى جانب ذلك على تعيين مندوب للامم المتحدة في أريتريا ومجلس يعاونه ويرشده ويساعد الشعب الأريتري على تقرير المسألة الآنفة الذكر والعمل على تنفيذها.

ج ــ وقدمت الولايات المتحدة الأميركية تؤيدها في ذلك البرازيل وبورما وكندا والدانمارك وأكوادور واليونان وليبريا والمكسيك وبناما وباراغواي وبيرو وتركيا ، مشروعاً يوصي بوضع مشروع مفصل يقضي بتحويل أريتريا إلى وحدة تتمتع باستقلال ذاتي متحدة مع أثيوبيا تحت سيادة التاج الأثيوبي .

د ــ مشروع قرار قدمته بولونيا ويوصي بمنح أريتريا الاستقلال بعد ثلاثة أعوام ، وأن توضع خلال هذه المدة تحت حكم مجلس مؤلف من ستة أعضاء : عضو من أثيوبيا وعضوين من البلاد العربية وثلاثة أعضاء من أريتريا ، على أن يكون عضوان من الأعضاء من السكان الوطنيين وعضو من سكان الإقليم الأوروبيين . ويقوم المجلس برفع تقرير كل سنة إلى الجمعية العامة ويتولى تعيين إداري يتمتع بسلطة تنفيذية ويكون مسؤولاً أمامه . وإلى جانب ذلك أوصى مشروع القرار بأن تنسحب قوات الاحتلال البريطانية بعد ثلاثة أشهر من الموافقة على مشروع القرار ، وأن تمنح أثيو بيا تلك المنطقة التي تكفل لها منفذاً إلى البحر عن طريق ميناء عصب .

هـ ــ قدمت باكستان مشروع قرار يوصي بإعلان أريتريا دولة مستقلة ذات سيادة في مدة لا تتجاوز الأول من شهر يناير (كانون الثاني) عام ١٩٥٣ ، وان يتم عقد اجتماع لجمعية وطنية في مدة لا تتجاوز أول أكتوبر (تشرين الأول) من عام ١٩٥١ ، لكي تتولى هذه الجمعية وضع دستور لأريتريا وتأليف حكومة موقتة مع الأخذ بعين الاعتبار أن يحدد اليوم الأول من شهر أبريل (نيسان) عام ١٩٥٢ كموعد نهائي. وأوصى مشروع القرار بأن يتم تسليم جميع السلطات التي تمارسها الدولة القائمة بالإدارة إلى هذه الحكومة



الموقتة تدريجاً ، على أن تتم عملية نقل السلطة في مدة أقصاها أول يناير (كانون الثاني) من عام ١٩٥٣ . وإلى جانب ذلك نص مشروع القرار على تعيين مندوب للأمم المتحدة لمساعدة شعب أريتريا على تشكيل جمعية وطنية ووضع دستور وتأليف حكومة أريترية مستقلة . ويتم تشكيل مجلس من ممثلي خمس دول وثلاثة ممثلين عن الشعب الأريتري لتوجيه مندوب الأمم المتحدة وإسداء النصح والمشورة للاضطلاع بمهامه وأعماله . وأوصى مشروع القرار بعد تضمنه مقترحات أخرى تتعلق بالإجراءات التي ينبغي اتباعها في الفترة الموقتة بضم أريتريا، بعد إعلانها دولة مستقلة إلى الأمم المتحدة طبقاً للمادة الرابعة من الميثاق .

ومن هذه المشاريع يتضح أن عدداً كبيراً من الدول كانت تؤيد استقلال أريتريا .

وقد تصدى مندوب بريطانيا ضد مشاريع الاستقلال ذاكراً أن سكان أريتريا يتألفون من أجناس مختلفة ذات لغات وتقاليد وأديان مختلفة ، وأن أريتريا فقيرة تستورد ثمن حاجياتها من الحبوب من الخارج ، (ونسي أن بريطانيا تستورد ثلاثة أرباع حاجياتها من الحبوب من الخارج) .

وقد تصدى له المندوب السوفياتي وقال إنه أينما تكون هناك مسالة تتعلق بمنح مستعمرة استقلالها ، فإن الدولة الاستعمارية المعنية تزعم دائماً أن السكان ليسوا بعد على استعداد للاضطلاع بمسؤوليات الحكم . أوليس غريباً ان أريتريا ظلت تحت السيطرة الإيطالية مدة ستين عاماً لم تصل إلى درجة الوعي الوطني التي وصلت إليها الدول المتحررة الأخرى . وقال إن الجنس البشري مع ذلك يعيش الآن في عصر التحرر من الدول الاستعمارية ، وليس مسموحاً بأن تواصل دولة أجنبية الحكم كدولة استعمارية .

وبينما أعرب مندوب الاتحاد السوفياتي عن إعجابه بالشعب الأثيوبي لمقاومته عدوان دولة استعمارية ، وبينما أقر حق أثيوبيا في أن يكون لها ممر إلى البحر الأحمر ، إلا أنه قال انه لا يمكن أن تكون هناك دولة حرة



إذا كانت تريد استعباد دولة أخرى . وأعلن أن الاقتراح السوفياتي ينسجم مع أغراض الأمم المتحدة التي يجب أن تعمل على تحرير الشعوب المغلوبة على أمرها ، بدلاً من أن تعمل لخدمة مصالح الدول الاستعمارية .

وبناء على اقتراح غواتيمالا منحت الأحزاب السياسية الأريترية حق التحدث عن وجهات نظرها . فتحدث السيد تدلابايرو السكرتير العام لحزب الاتحاد مع أثيوبيا، فنادى بالاتحاد مبرراً ذلك بالروابط الثقافية والتاريخية والجغرافية والاقتصادية والبشرية ، واتهم الكتلة الاستقلالية بالولاء لإيطاليا.

وأدلى السيد إبراهيم سلطان متحدثاً باسم الرابطة الإسلامية والكتلة الاستقلالية ببيانات أمام اللجنة الأولى التابعة للجمعية العامة ، أوجز فيها مواقف الشعب الأريتري وأمانيه ، وقال ان الأريتريين يريدون الاستقلال العاجل ، وتشكيل حكومة ديموقراطية ، وصيانة وحدة أريتريا الإقليمية في إطار حدودها الراهنة . وتساءل قائلاً إذا كانت أثيوبيا وأنصارها مقتنعين بأن غالبية الأريتريين تريد الوحدة مع أثيوبيا ، فلماذا لم يقبلوا المشروع العراقي بدلاً من محاولة فرض الاتحاد على الأريتريين دون السماح لهم بتقرير مصيرهم وفق الأساليب الديموقراطية ؟

نتائج الاقتراع على المشاريع الخمسة أمام اللجنة الأولى

أ ـ المشروع السوفياتي ـ ٣٦ صوتاً ضد ٨ أصوات وامتناع ١٤ عن التصويت .

ب ـ المشروع العراقي ـ ٢٨ صوتاً ضد ٢١ صوتاً وامتناع ١١ عن التصويت .

ج ـ المشروع الأمريكي ـ ٣٨ صوتاً ضد ١٤ صوتاً وامتناع ٨ عن التصويت .

د ـ المشروع البولوني ـ ٣٧ صوتاً ضد ٥ أصوات وامتناع ١٣ عن التصويت .



هـ ـــ المشروع الباكستاني ـــ ٢٠ صوتاً ضد ١٦ صوتاً وامتناع ١٤ عن التصويت .

الجمعية العامة تصادق على المشروع الأميركي

على رغم تقارب عدد الأصوات عند التصويت في اللجنة الأولى ، فإن المشروع الأميركي كان الفائز ، وبالتالي عرض على الجمعية العامة للتصويت النهائي . وألقت أميركا ثقلها السياسي لضمان نجاح مشروعها . وبعد جلسة عاصفة استمرت حتى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل أقرت الجمعية العامة مشروع القرار الأميركي بأغلبية ٤٦ صوتاً في مقابل ١٠ أصوات وامتناع ٤ عن التصويت ، وأصدرته بتاريخ ٢ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٥٠ باسم القرار الفيديرالي الرقم ٣٩٠ (أ) (٥) . وهذا نصه :

(أ)

نظراً لأنه بمقتضى الفقرة الثالثة من الملحق الحادي عشر من معاهدة الصلح مع إيطاليا ١٩٤٧ ، وافقت الدول المعنية على قبول توصية الجمعية العامة بشأن التصرف بالمستعمرات الإيطالية السابقة في إفريقيا واتخاذ الإجراءات المناسبة لتنفيذها .

ونظراً لأنه بمقتضى الفقرة الثانية من الملحق الحادي عشر الآنف الذكر يجب إنجاز عملية التصرف في ضوء رغبات ومصالح السكان ومصالح الأمن والسلام ، مع الأخذ بعين الاعتبار وجهات نظر الحكومات المعنية .

لذلك كله ، فإن الجمعية العامة في ضوء تقارير لجنة الأمم المتحدة لأريتريا واللجنة الموقتة :

أ ـــ رغبات ومصلحة سكان أريتريا بما في ذلك وجهات نظر الجماعات الدينية والجنسية والسياسية المختلفة في ولايات الإقليم ومقدرة الشعب على الحكم الذاتي .

ب ـــ ومصالح السلام والأمن في شرق إفريقيا .

ج ـــ وحقوق مطالب أثيوبيا على أساس أسباب جغرافية وتاريخية وجنسية



واقتصادية ، بما في ذلك بوجه خاص حاجة أثيوبيا المشروعة إلى مرور كاف إلى البحر . وتأخذ بالاعتبار أهمية ضمان استمرار تعاون الطوائف الأجنبية في التنمية الاقتصادية لأريتريا .

واعترافاً منها بأن التصرف بمسألة أريتريا يجب أن يقوم على أساس ارتباط الإقليم السياسي والاقتصادي الوثيق بأثيوبيا ، ورغبة منها في أن يكفل هذا الارتباط لسكان أريتريا الاحترام التام والضمانات اللازمة لمؤسساتهم وتقاليدهم ودياناتهم ولغاتهم مع أكبر قدر ممكن من الحكم الذاتي ، مع احترام الدستور والمؤسسات والتقاليد والوضع الدولي وسلامة أمبراطورية أثيوبيا . أ) توحي :

١ ــ بأن تصبح أريتريا وحدة متمتعة بحكم ذاتي فى إطار اتحاد مع أثيوبيا تحت سيادة التاج الأثيوبي .

٢ ــ يكون للحكومة الأريترية سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية في حقل الشؤون المحلية .

٣ ــ يمتد اختصاص الحكومة الاتحادية إلى المسائل الآتية :

الدفاع والشؤون الخارجية والنقد والمالية والتجارة الخارجية والمحلية والمواصلات الخارجية والداخلية ، بما في ذلك الموانيء . ويكون للحكومة الاتحادية السلطة لصيانة سلامة الاتحاد ، ويكون لها الحق في فرض ضرائب موحدة في الاتحاد ، لمواجهة نفقات الوظائف والخدمات الاتحادية ، على أن يكون مفهوماً أن تقدير هذه الضرائب وجبايتها في أريتريا من اختصاص الحكومة الأريترية، شريطة أن تتحمل أريتريا نصيبها العادل في هذه المصروفات . ويمتد اختصاص الحكومة الأريترية إلى المسائل التي لم تخول للحكومة الاتحادية ، بما في ذلك السلطات الخاصة ، بالاحتفاظ بالبوليس الداخلي وجباية الضرائب ومواجهة مصروفات الوظائف والخدمات المحلية ، وان تقرر ميزانيتها الخاصة بها .

٤ ــ تتألف منطقة الاتحاد من منطقة واحدة لأغراض جمركية ، وسوف



بالتجنس ، وذلك طبقاً للقوانين الاتحادية . ان الأشخاص الذين لا يحصلون على جنسية الاتحاد يسمح لهم بالإقامة وممارسة مهنهم القانونية في أريتريا .

وتكون حقوق ومصالح المواطنين الأجانب المقيمين في أريتريا مضمونة طبقاً للنصوص الواردة في الفقرة السابقة .

٧ – تكفل الحكومة الاتحادية وكذا حكومة أريتريا التمتع بحقوق الإنسان والحريات الأساسية دون أي تمييز من حيث الجنسية والجنس واللغة أو الدين ، ومن هذه الحقوق :

أ – حق المساواة أمام القانون وعدم ممارسة أي تمييز ضد المشروعات والمؤسسات الاجنبية التي تعمل في أريتريا ، في الحقول الصناعية والتجارية والزراعية والتعليمية أو الهيئات التي تمارس نشاطاً خيرياً أو ضد المؤسسات المصرية أو شركات التأمين العاملة في أريتريا .

ب – حق الأشخاص في الحياة والحرية والأمن .

ج – حق اقتناء الممتلكات والتصرف فيها ، ولن يحرم أي شخص من ممتلكاته بما في ذلك الحقوق التعاقدية بطرق غير قانونية وبدون دفع تعويض عادل فعال .

د – حق ممارسة حرية الرأي والتعبير وحق اعتناق أي ملة أو دين .

ه – حق التعليم .

و – حق ممارسة حرية عقد الاجتماعات والجمعيات السلمية .

ز – حق صون المراسلات والمساكن إلاّ في الحالات التي تتطلبها مقتضيات القانون .

ح – حق ممارسة أية مهنة حسب القانون .

ط – عدم إلقاء القبض على أي شخص أو حجزه بدون أمر من السلطة المختصة ، اللهم إلاّ في حالة انتهاك صارخ للقانون المعمول به ، ولا يجوز إبعاد أي شخص إلاّ في حدود القانون .

ي – الحق في محاكمة عادلة والحق في رفع الالتماسات إلى الأمبراطور وحق



الاستئناف إلى الأمبراطور لتخفيف أحكام الإعدام .

ك – يستثنى العمل بقانون العقوبات بأثر رجعي. إن احترام حقوق الآخرين وحرياتهم ومتطلبات النظام العام والمصلحة العامة ، هي وحدها التي تبرر أية قيود على الحقوق الآنفة الذكر .

٨ – الفقرات من ١ إلى ٧ الواردة في مشروع القرار الراهن ستمثل القانون الفيديرالي الذي ينبغي عرضه على أمبراطور أثيوبيا لتصديقه.

٩ – تكون هناك فترة انتقال لا تتجاوز ١٥ سبتمبر (أيلول) من عام ١٩٥٢ يجري خلالها تنظيم الحكومة الأريترية واعداد الدستور الأريتري وتنفيذه .

١٠ – يكون هناك مندوب للأمم المتحدة في أريتريا تعينه الجمعية العامة ، وسيتولى خبراء يعينهم السكرتير العام للأمم المتحدة لمساعدته .

١١ – تواصل الدولة القائمة بالإدارة تصريف الأمور والشؤون في أريتريا خلال فترة الانتقال . وستتولى بالتشاور مع مندوب الأمم المتحدة إعداد تنظيم حكومة أريتريا في أسرع وقت ممكن ، وتأهيل الأريتريين لجميع مستويات الوظائف الحكومية ، واتخاذ التدابير والترتيبات اللازمة لعقد جمعية تمثل الشعب الأريتري ومن اختياره . ويجوز للدولة القائمة بالإدارة، بالاتفاق مع مندوب الأمم المتحدة، أن تجري مفاوضات نيابة عن الأريتريين بشأن إقامة اتحاد جمركي موقت مع أثيوبيا ووضعه موضع التنفيذ متى يكون تنفيذه ممكناً عملياً .

١٢ – على مندوب الأمم المتحدة بالتشاور مع الدولة القائمة بالإدارة وحكومة أثيوبيا وسكان أريتريا أن يعد مشروعاً للدستور الأريتري لعرضه على الجمعية الأريترية ، ويسدي النصح والمشورة للجمعية الأريترية ويساعدها في سن الدستور . وينبغي أن يوضع الدستور على أساس مبادىء حكومة ديموقراطية، وأن يشمل الضمانات المنصوص عليها في الفقرة السابقة من القانون الفيديرالي ، وأن يكون متمشياً مع نصوص القانون الفيديرالي ، وأن يتضمن النصوص التي تتعلق



بإقرار وتصديق القانون الفيديرالي نيابة عن شعب أريتريا .

١٣ — يصبح القانون الفيديرالي ودستور أريتريا نافذَي المفعول بعد أن يصدق أمبراطور أثيوبيا على القانون الفيديرالي ، وبعد أن يقر مندوب الأمم المتحدة والجمعية الأريترية الدستور ويصدقه أمبراطور أثيوبيا .

١٤ — تتولى حكومة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا الشمالية، وبصفتها الدولة القائمة بالإدارة ، اتخاذ الترتيبات الخاصة بتسليم الإدارة للسلطات المعنية ، ويجب أن يتم تسليم الإدارة حالما يصبح الدستور الأريتري والقانون الإداري نافذَي المفعول ، وذلك طبقاً لنص الفقرة ١٣ الآنفة الذكر .

١٥ — على مندوب الأمم المتحدة أن يحتفظ بمقره في أريتريا حتى يتم تسليم الإدارة ، وعليه أن يرفع تقارير مناسبة إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة بشأن اضطلاعه بوظائفه وتأديتها ، ويجوز للمندوب أن يتشاور مع اللجنة الموقتة للجمعية العامة ، بالنسبة إلى تأدية وظائفه في ضوء التطورات ، وفي إطار بنود مشروع القرار الراهن . وعليه أن يرفع تقريراً إلى الجمعية العامة ويعرض عليها نص الدستور الأريتري بعد انتهاء عملية تسلم الإدارة والسلطة .

ب — تخول السكرتير العام للأمم المتحدة طبقاً للنظام القائم :

١ — أن يتخذ الترتيبات المتعلقة بدفع مكافأة مناسبة لمندوب الأمم المتحدة .

٢ — تزويد مندوب الأمم المتحدة بالخبراء والموظفين والتسهيلات التي يعتبرها السكرتير العام لازمة لتنفيذ نصوص مشروع القرار الراهن .

ب — تساعد الجمعية العامة في تعيين مندوب الأمم المتحدة في أريتريا .

وتقرر أن تقوم لجنة مؤلفة من رئيس الجمعية العامة ونائبين للرئيس (استراليا ونيوزيلندا) ورئيس اللجنة الرابعة ورئيس اللجنة السياسية الموقتة، بتعيين مرشح . وفي حالة عدم التوصل إلى اتفاق على ترشيح واحد ، تعين



مرشحين اثنين أو ثلاثة مرشحين لمنصب مندوب الأمم المتحدة في أريتريا .

تعيين مندوب لأريتريا :

اجتمعت اللجنة الوارد ذكرها في مشروع القرار طبقاً لذلك في ١٢ ديسمبر (كانون الأول) للنظر في تعيين مرشحين لمنصب مندوب الأمم المتحدة في أريتريا . ورفعت تقريراً (١٧١٥ ـ أ) في ١٣ ديسمبر (كانون الأول) بأنها وافقت على تعيين المرشحين الآتية أسماؤهم :

ـ فكتور هو (مساعد السكرتير العام لإدارة الوصاية والمعلومات من الأقاليم التي لا تحكم نفسها بنفسها) .

ـ أوانج حين (بورما) وادواردو انزى ماتنزو (بوليفيا) .

وانتخبت الجمعية العامة في الاجتماع العام الـ ٣٢٥ المنعقد في ١٤ ديسمبر (كانون الأول) من عام ١٩٥٠ انزي ماتنزو في اقتراع سري كمندوب للأمم المتحدة في أريتريا .

تعليق الاتحاد السوفياتي على القرار الفيديرالي

علق مندوب الاتحاد السوفياتي وهو يعرب عن آرائه النهائية حول هذا القرار : (إن مشروع الاتحاد يعتبر زواجاً ضد إرادة أحد الطرفين ، وإنه زواج لا يسمح بالطلاق . وذكر أن كثيراً من الوفود أعربوا عن تأييدهم للاستقلال ولم يختلفوا إلاّ بالنسبة إلى الوسائل وفترات الانتظار) .

وأعربت الكتلة الاستقلالية عن معارضتها للقرار في بادىء الأمر ، ولكن اضطراب حالة الأمن في أريتريا وضغوط الإدارة البريطانية بشتى الوسائل ، جعلها تقبل به على مضض . وعقدت الأحزاب السياسية كلها اجتماعاً للمصالحة في سينما أمبيرو في أسمرا ، وقررت العمل بصدق وإخلاص على تطبيق القرار الفيديرالي .

وهكذا ربطت أريتريا على رغم معارضة أغلبية شعبها بالأمبراطورية الأثيوبية لتحقيق المطامع الأمبريالية للولايات المتحدة الأميركية التي قبضت



ثمن اقتراحها على شكل معاهدات أميركية – أثيوبية ، بموجبها أقامت القواعد العسكرية في الأراضي والشواطىء الأريترية .

دخول القرار الفيديرالي حيز التنفيذ

كان على ادوارد انزي ماتنزو (بوليفيا) الذي انتخبته الجمعية العامة في ١٤ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٥٠ مندوباً للأمم المتحدة في أريتريا أن يساعد في إنجاز تسوية سياسية . وكانت مهمته الأساسية صياغة دستور لأريتريا بالتشاور مع الحكومة الأثيوبية ومع سكان أريتريا والإدارة البريطانية.

وفي ٩ فبراير (شباط) ١٩٥١ وصل مندوب الأمم المتحدة إلى أريتريا وبدأ مشاوراته . ثم عاد في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥١ وقدم تقريره الأولي عن سير أعماله للجمعية العامة في دورتها السادسة .

وحدثت خلافات حادة بين مختلف الأطراف الأريترية والأثيوبية . وكانت معظم الخلافات تدور حول تأليف الحكومة الفيديرالية – كيف تتألف وهل تعتبر حكومة ثالثة ؟ (غير الحكومتين الأريترية والأثيوبية) ونوع العلاقة بين أمبراطور أثيوبيا ورئيس وزراء أريتريا ، وحول تعيين ممثل للأمبراطور في أريتريا ، وطريقة الانتخابات ، ومسألة اللغة والعلم .

ورضخ مندوب الأمم المتحدة في نهاية الأمر إلى الضغوطات الأثيوبية – الأميركية ، وفسر القرار الفيديرالي الذي هو بالأصل يتسم بالغموض والتعميمات المبهمة لمصلحة أثيوبيا . ففرض منصباً لممثل للأمبراطور في أريتريا لم ينص عليه القرار ، وفسر الحكومة الفيديرالية بأنها الحكومة الأثيوبية حتى « لا تفقد اثيوبيا شخصيتها الدولية » ، ولم ينشىء أية مؤسسات اتحادية إلا ما سمي بالمجلس الاتحادي الأمبراطوري من عشرة أعضاء ، خمسة منهم أريتريين وخمسة آخرين أثيوبيين دون صلاحيات محددة . كما أقر رفع العلم الأثيوبي في أريتريا إلى جانب العلم الأريتري باعتباره علم دولة الاتحاد .

وجعل نظام الانتخابات الأريترية نوعين :

١ – انتخابات مباشرة في مدينتي أسمرا ومصوع فقط (وقد مثلهما تسعة



نواب من أصل ٦٨ نائباً في البرلمان الأريتري) .

٢ ـ انتخاب غير مباشر في المناطق الريفية ، بهدف التمكن من حشد أغلبية موالية من زعماء العشائر والطوائف .

وأعد المندوب الدستور الأريتري بمساعدة المستشارين القانونيين الذين عينهم السكرتير العام للأمم المتحدة ، وأجريت الأنتخابات غير المباشرة على مرحلتين ، المرحلة الأولى تمت فيها انتخابات المرشحين لدوائر انتخابية. كأن تنتخب قبيلة أو مجموعة قرى عدداً من الناخبين الذين يحق لهم في مرحلة ثانية انتخاب أحد المرشحين بالاقتراع السري . وفي هذه الحالة فإن عدد الناخبين الفعليين لا يتجاوز أصابع اليد ، وغالباً هم عمد القرى ومشايخ القبائل .

وأجريت الانتخابات للجمعية التمثيلية الأريترية (البرلمان) في ٢٥ و٢٦ مارس (آذار) من عام ١٩٥٢ . وهي أول انتخابات تتم في أريتريا وكانت النتائج كما يلي :

حزب الاتحاد مع أثيوبيا وحزب الاتحاد الحر	٣٢
الجبهة الديموقراطية والمستقلة (الرابطة الإسلامية وأحزاب الكتلة الاستقلالية الأخرى)	١٩
الرابطة الإسلامية للمديرية الغربية	١٥
الحزب الوطني	١
الرابطة الإسلامية المستقلة	١
المجموع	٦٨

وكان الانكليز على عادتهم في العمل بمبدأ (فرّق تسدْ) قد خلقوا من زعماء العشائر الموالين لهم بزعامة على موسى راداي ـ السيىء الصيت ـ ما سمّوه بحزب الرابطة الإسلامية للمديرية الغربية وكانت عناصره صنائع بريطانية ، تطالب بتقسيم البلاد وفق المشروع البريطاني . وتمكن الانكليز من إدخال تلك العناصر عن طريق نظام الانتخابات غير المباشرة إلى البرلمان الجديد . وبذلك أصبح راداي زعيماً لكتلة تألفت من ١٥ نائباً . وبتحالف



هذه المجموعة المصلحية مع أنصار حزب الاتحاد مع أثيوبيا تمكنت الإدارة البريطانية والحكومة الأثيوبية من إكمال الطبخة ، يساعدهم في ذلك مندوب الأمم المتحدة الذي استسلم للمطالب الأثيوبية ، حتى أنه لم يقبل باقتراح حزب الكتلة الاستقلالية بإقامة مكتب مراقبة تابع للأمم المتحدة في أريتريا لضمان صيانة النظام الفيديرالي .

واجتمعت الجمعية التمثيلية الأريترية لأول مرة في ٢٨ أبريل (نيسان) ١٩٥٢ وألقى الحاكم العام البريطاني ومندوب الأمم المتحدة وممثل أمبراطور أثيوبيا الخطب الافتتاحية .

وفي الثالث من مايو (أيار) ١٩٥٢ عرض مندوب الأمم المتحدة مشروع الدستور على الجمعية ، مؤكداً أهمية الاحترام المتساوي للمبدأين الأساسيين من مشروع الجمعية العامة للأمم المتحدة — الحكم الذاتي لأريتريا وسيادة التاج الأثيوبي .

وبحثت الجمعية التمثيلية مشروع الدستور في ٤٠ اجتماعاً في المدة بين ١٢ مايو (أيار) و ١٠ يوليو (تموز) من عام ١٩٥٢. وفي ٢٤ مايو (أيار) وافقت الجمعية بالإجماع على المادة الأولى الخاصة بإقرار وتصديق القانون الفيديرالي الذي يتألف من الفقرات الأولى إلى السابعة ، بما في ذلك مشروع قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الرقم ٣٩٠ .

وفي الثاني من شهر يوليو (تموز) ١٩٥٢ أقرت الجمعية المسادة المتعلقة بشعارات اريتريا التي يجب ان يقررها القانون . وفي العاشر من يوليو (تموز) تم إقرار الدستور المعدل ككل بالإجماع .

ونص الدستور الأريتري على إنشاء شكل ديموقراطي من الحكم الذي يمكن وصفه شبه رئاسي ، وتضمنت المادة الأولى تعهداً من جانب الشعب الأريتري لاتباع نصوص القانون الفيديرالي. ونص الدستور كذلك على ضمانات للمؤسسات الثقافية وأديان سكان أريتريا ولغاتهم . وأقر الدستور العربية والتجرينية لغتين رسميتين لأريتريا .

ونص الدستور على أن يكون لأريتريا مجلس تشريعي لا يقل عدد أعضائه



عن ٥٠ عضواً ولا يزيد عددهم عن ٧٠ عضواً يتم انتخابهم لمدة تبلغ أربع سنوات بواسطة الانتخابات المباشرة وغير المباشرة . ويقر المجلس القوانين والميزانية ، وينتخب الرئيس ويشرف على نشاطه ويتولى محاسب عام ينتخبه المجلس ، ويكون مستقلاً عن الرئيس ويلخص التقارير عن الحسابات السنوية .

ونص الدستور على أن لممثل الأمبراطور الحق في المطالبة بإعادة النظر في مشروعات القوانين الأريترية إذا رأى أنها تعتدي على المسؤولية الدولية للاتحاد .

ويجوز للمجلس بعد تلقيه مثل هذا الطلب أن يقر مشروع القانون بأغلبية ثلثي الأصوات بعد دراسته .

وتكون لأريتريا حسب الدستور هيئتها التشريعية المستقلة . والسلطة القضائية تمارسها محكمة عليا يتضمّن اختصاصها النزاعات المتعلقة بدستورية القوانين . ويمكن تعديل الدستور بأغلبية ثلاثة أرباع الجمعية ، ولا يمكن تقديم تعديلات لا تتمشى مع القانون الفيديرالي . وتصبح هذه التعديلات نافذة المفعول بعد أن يصدق عليها الأمبراطور .

وفي ١١ أغسطس (آب) ١٩٥٢ صادق الأمبراطور الأثيوبي على الدستور الأريتري . وفي ١١ سبتمبر (أيلول) ١٩٢٥ صادق على القانون الفيديرالي في حفل أقيم في أديس أبابا ، وتم بذلك دخول القرار الفيديرالي حيز التنفيذ . وأعطى تعهداً باحترام الفيديرالية .

وفي ٢٨ أغسطس (آب) ١٩٥٢ انتخبت الجمعية التمثيلية الأريترية تدلا بايرو ، السكرتير العام لحزب الاتحاد مع أثيوبيا ، رئيساً للهيئة التنفيذية (مجلس الوزراء) بعد أن استبعد مرشح الكتلة الاستقلالية : صالح حنيت ، (لعدم بلوغ السن القانونية ، وقد عينته أثيوبيا في ما بعد سفيراً لها !!) ، وانتخبت علي موسى راداي (السكرتير العام لحزب التقسيم) رئيساً للجمعية التمثيلية . واستبعدت الكتلة الاستقلالية عن السلطة .

وفي ١٥ سبتمبر (أيلول) ١٩٥٢ سلمت الإدارة البريطانية السلطة رسمياً



إلى الحكومتين الأريترية والأثيوبية . ورفع العلم الأريتري الذي صممته الجمعية الأريترية ، وهو مؤلف من أرضية زرقاء اللون إشارة إلى البحر الأحمر الذي اكتسبت منه أريتريا اسمها ، وفي وسط إكليل من زهور غصن زيتون ، يرمي إلى الزيتون البري الذي ينبت بكثرة في الهضبة الأريترية . وهو على كل حال يشبه علم الأمم المتحدة ، بل إنه من تصميم مندوب الأمم المتحدة بعد أن اختلف أعضاء البرلمان على شكل العلم. كما رفع إلى جانبه العلم الأثيوبي.

وتضاربت مشاعر الأريتريين حول هذه المناسبة ، فأنصار الاستقلال اعتبروا إعلان الاتحاد وقيام حكومة محلية عرجاء ، هزيمة لنضالهم ، بينما اعتبره أنصار الاتحاد نصف نصر . ولكن الإيام برهنت أن الاتحاد كان كارثة على الجميع ، وخاصة على صانعيه الذين جازتهم الحكومة الأثيوبية جزاء سنمار وقذفت بزعمائهم في نهاية المطاف في السجون ، حتى لم يسلم من هذا المصير زعيم حزب الاتحاد — تدلا بايرو — الذي انتهى به الأمر إلى لاجيء سياسي في السويد . فالغدر شيمة تلازم حكام الأمهرا الأثيوبيين في عهود تاريخهم كلها .

واستهل تطبيق الاتحاد بما يدعو إلى التشاؤم . ففي الخامس عشر من أغسطس (آب) ١٩٥٢ أي قبل أن يقر الأمبراطور القانون الفيديرالي ، وقبل انتقال السلطات إلى الحكومة الأريترية ، سلمت الإدارة البريطانية جميع الممتلكات الأريترية إلى الحكومة الأثيوبية ، واستولى الجيش الأثيوبي على المطارات والموانىء والبرق والبريد والسكك الحديدية وكل وسائل المواصلات والمباني الحكومية ، ولم يترك للحكومة الأريترية ما يمكن أن تؤسس منه دولتها . وهكذا نشأت حكومة أريترية محتضرة منذ ميلادها .

وفي ١٢ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٥٢ ألقى مندوب الأمم المتحدة تقريره النهائي أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة ، أعلن فيه انتهاء مهمته في تطبيق الاتحاد الفيديرالي بين أريتريا وأثيوبيا . وصادقت الجمعية العامة على التقرير دون أدنى نقاش .

وأكد مندوب الأمم المتحدة الثقة التي أبدتها الأمم المتحدة في الحكومة



الأثيوبية ، وقال انها اضطلعت بمسؤوليات جسيمة ، وخاصة في الحفل الدولي ، ومن أهمها صيانة سلامة وحدة أراضي الاتحاد التي قد تهدد اما بحركة انفصالية واما بالضم إلى أثيوبيا .

ولكن هذه الثقة لم تكن في موضعها . فقد عطل قرار الاتحاد عشية تنفيذه ، وبات حبراً على ورق ، وقامت أثيوبيا ذاتها بالضم بدلاً من صيانة الاتحاد .



الفصل السادس عشر
الحكومة الاثيوبية
تلغي الاتحاد الفيديرالي

الدمج التدريجي لأريتريا

شهدت السنوات العشر التي تلت دخول الاتحاد حيز التنفيذ (٥٢ — ١٩٦٢) الإلغاء التدريجي لأسس الاتحاد التي قامت على مبدأ احترام السيادة الأريترية في كل ما يخص الشؤون الداخلية، مع نظام حكم ديموقراطي، واضطلاع الحكومة الفيديرالية المؤلفة بنسب متساوية من الأريتريين والأثيوبيين، بالشؤون الخارجية والدفاع الخ ...

والواقع ان أثيوبيا لم تعترف مطلقاً بسيادة أريتريا رغم تعهدات الامبراطور عند تصديقه القرار الفيديرالي، بأن يطبق تطبيقاً صادقاً مبادىء قرار الأمم المتحدة المدمجة في الدستور الأريتري والقرار الفيديرالي، بل ان ممثل الأمبراطور وصهره (اندلكاتشو ماساي) اكد نية حكومته بعدم الاعتراف بالاستقلال الذاتي لأريتريا عندما قال:

« ليست هناك شؤون داخلية ولا خارجية بالنسبة إلى مكتب ممثل جلالة الأمبراطور، ولن يكون هناك شيء من هذا في المستقبل. إن شؤون أريتريا تعني أثيوبيا كلها والأمبراطور ».



وكان ممثل الأمبراطور يرد على انتقاد أعضاء البرلمان الأريتري القائل بأن الحكومة الأثيوبية اغتصبت ثروة أريتريا واعتدت على حقوق الشعب الأريتري بتدخلها في شؤون أريتريا الداخلية .

وتدخل ممثل الأمبراطور في كل شأن من شؤون أريتريا، بما في ذلك تقديم الصحافيين الأريتريين أمام المحاكم الأثيوبية التي أطلق عليها المحاكم الفيديرالية . كما أوقف الصحف وحل الأحزاب السياسية والاتحاد العام لنقابات العمال الذي كان يتزعمه ولدآب ولدماريام بعد أن أطلق عليه الرصاص للمرة السابعة ، وأصيب إصابة بالغة لجأ بعدها إلى القاهرة .

وبموجب الأمر الرقم ٦ لسنة ١٩٥٢ وسع الأمبراطور الأثيوبي مفعول الدستور الأثيوبي والقوانين الأثيوبية الأوتوقراطية ، بحيث أصبحت تشمل أريتريا . أما الأعلان الرقم ١٣٠ لسنة ١٩٥٢ ، فقد وسع صلاحيات المحاكم الأثيوبية في أريتريا .

واستولت الحكومة الأثيوبية على حصة أريتريا من الجمارك وخنقت الاقتصاد الأريتري بكل الوسائل حتى أنها أمرت أصحاب المصانع الأجانب بنقل مصانعهم إلى أديس أبابا .

وإزاء التدخلات الأثيوبية المتزايدة على الشؤون الأريترية ، اتخذ البرلمان الأريتري بأغلبية ساحقة قراراً في جلسته الثلاثين بتاريخ ٢٥ مايو (أيار) ١٩٥٤ طلب فيه من رئيس الوزراء الأريتري أن ينذر الحكومة الأثيوبية بوجوب إعطاء الضمانات اللازمة لسيادة الدستور الأريتري . وإذا فشل رئيس الوزراء في أن يحصل خلال عشرين يوماً على وعد من الحكومة الأثيوبية بالتعاون المخلص في تطبيق قرار الأمم المتحدة ، فإن على رئيس الوزراء الأريتري عندئذ أن يطلب إلى الأمم المتحدة أن تتدخل فوراً .

ولكن رئيس الوزراء – تدلا بايرو – الذي كان سكرتيراً عاماً لحزب الاتحاد مع أثيوبيا، وكان قد دخل في صراع حول السلطة مع ممثل الأمبراطور، خضع لأوامر الامبراطور وقدم استقالته ، فعينه سفيراً في السويد ، ليسحبه في ما بعد ويعينه عضواً في مجلس الشيوخ



الذي يضم كل العناصر المغضوب عليها ، حيث خرج من البلاد بعدها لاجئاً سياسياً . كما استقال معه حليفه على موسى راداي من رئاسة البرلمان وعينه الأمبراطور مستشاراً لممثله . وانتخب البرلمان (في لعبة مساومة خاسرة مع نواب الكتلة الاستقلالية) أسفها ولد ميكائيل ، رئيساً للوزراء ، مع احتفاظه بمنصب مساعد ممثل الأمبراطور في مقابل انتخاب إدريس محمد آدم ، وكان من نواب الكتلة الاستقلالية ، رئيساً للبرلمان . وقد أقيل إدريس بعد عشرة أشهر واستبدل بشخص موال للسلطة هو حامد فرج ، بينما لجأ إدريس إلى القاهرة في عام ١٩٥٩ مع زميله إبراهيم سلطان الذي كان يتزعم كتلة المعارضة في البرلمان .

وتمكنت الحكومة الأثيوبية عن طريق رئيس ووزرائها الجديد من ضم أريتريا إليها نهائياً بعد سلسلة من الإجراءات القمعية .

وفي عام ١٩٥٧ أرسلت الأحزاب السياسية (المنحلة) رسمياً وفداً إلى هيئة الأمم المتحدة برئاسة المحامي محمد عمر قاضي لتقديم شكوى ضد خرق أثيوبيا قرار الأمم المتحدة ، ومطالباً بالتدخل ، استناداً إلى بيان المستشارين القضائيين للأمم المتحدة الوارد في التقرير النهائي لمندوب الأمم المتحدة — الفقرة ٢٠١ — ونصها :

نص الفقرة ٢٠١

(من البين أن المهمة التي أنيطت بالجمعية العامة للأمم المتحدة بموجب معاهدة الصلح المعقودة مع إيطاليا ، تعتبر منتهية متى دخل الميثاق الفيديرالي والدستور الأريتري حيز التنفيذ . ومع ذلك ، فإن هذا لا يعني عدم حق الأمم المتحدة بإعادة النظر في القضية الأريترية . إن الميثاق الفيديرالي والدستور الأريتري قائمان على مبادىء قرار الأمم المتحده . وإن هذه الوثيقة الدولية تظل محتفظة بقوتها القانونية الملزمة . وانطلاقاً من هذا ، فإنه إذا اقتضت الضرورة تعديل أو تفسير الميثاق الفيديرالي ، فإن الجمعية العامة للأمم المتحدة التي أصدرت تلك الوثيقة الدولية تظل السلطة الوحيدة المخولة اتخاذ تعديل



أو تفسير . وبالمثل ، فإنه إذا نقض القرار الفيديرالي ، فإن القضية الأريترية يمكن عندئذ أن تصبح من اختصاص الجمعية العامة للأمم المتحدة) .

ولكن الأمم المتحدة تجاهلت شكوى الشعب الأريتري ، فاضطر الوفد إلى العودة إلى البلاد بعد أن تعهد الوفد الأثيوبي برئاسة يلما درسا بواسطة وفد السودان ، بعدم التعرض له . ولكن سرعان ما تنكرت الحكومة الأثيوبية لتعهداتها وحكمت على الوفد بالسجن لمدة عشر سنوات بعد محاكمات صورية لم يسمح للمحامي جبرلول بالترافع القانوني خلالها ، بل نقل من قاعة المحكمة مقيداً إلى السجن . كما حكم على الشيخين المسنين امام موسى والحاج سليمان أحمد عمر بالسجن أربعة أعوام مع مجموعة أخرى وتظاهر عمال أريتريا في تلك الفترة فبراير (شباط) ١٩٥٨ مطالبين بإلغاء القوانين المجحفة التي أعدها أصحاب الأعمال بالاتفاق مع ممثل الأمبراطور ، وكانت موضع نقاش في البرلمان الأريتري (الصوري). فقوبلت تظاهراتهم بالرصاص وسقط العشرات قتلى وجرحى في شوارع أسمرا والمدن الأريترية الأخرى .

ثم أنزل رئيس الوزراء الجديد العلم الأريتري وألغى الشارات الأريترية مستغلاً البرلمان الصوري في قراراته .

وقد استبعدت السلطات الأثيوبية من البرلمان بعد انتهاء مدة ولايته الأولى كل العناصر الوطنية . وأجرت الانتخابات بموجب الإعلان الرقم ١٢١ الذي انتهى مفعوله بدخول الدستور الأريتري حيز التنفيذ في ١٥ سبتمبر (أيلول) ١٩٥٢ .

وكانت المحكمة العليا التي ترأسها القاضي البريطاني النزيه — شرير — قد نظرت في الشكوى التي تقدم بها ممثلو الشعب الأريتري ضد قانون الانتخابات ، بوصفها السلطة المختصة لحماية الدستور الأريتري بموجب الفقرة (٥) من قانون القضاء الرقم (١٣٣) لسنة ١٩٥٢ والفقرة (٩٠) من الدستور الأريتري . وبعد جلسات عديدة أصدرت المحكمة العليا حكمها القاضي بعدم قانونية الإعلان الرقم (١٢١) لتناقضه مع الدستور الأريتري،



وبأن الانتخابات يجب أن تجري بإشراف لجنة عليا تؤلفها المحكمة العليا طبقاً للفقرة (٤٥) من الدستور الأريتري.
واستناداً إلى هذا الحكم، فإن كل حكومة او جمعية تشريعية تؤلف بموجب الإعلان الرقم (١٢١) تكون غير دستورية. (حكم المحكمة العليا الرقم ٢٢٥٨ المؤرخ في ١٩٥٦/٦/٢٩، والرقم ٤٨ لسنة ١٩٥٦ المسجلة تحت رقم ١١٣٦ ورقم ٢٢٩٣).

ولكن رئيس الوزراء، ومن خلفه ممثل الأمبراطور تجاهلا هذا الحكم ووضعا موضع التنفيذ الإعلان الرقم (١٢١) الذي جعل الأشراف على الانتخابات من اختصاص السلطة التنفيذية. وبمعنى آخر عينت أثيوبيا عملاءها من زعماء العشائر والطوائف كأعضاء في ما سمته برلماناً حتى أعلنت إنهاءه في ١٩٦٢/١١/١٤، وأعلنت أن أريتريا أصبحت ولاية أثيوبية. وفي اليوم التالي اجتمع البرلمان الأثيوبي وهو صوري أيضاً، وأقر الدمج وأصدر الأمبراطور إعلاناً رسمياً بذلك.

ولم تحظ هذه الإجراءات التعسفية بشيء من التأييد من الشعب الأريتري الذي نزح عدد كبير من عماله وطلابه إلى الخارج ليشكلوا في ما بعد نواة الحركة الثورية المسلحة ضد الاحتلال الأثيوبي.

لماذا ألغت أثيوبيا القرار الفيدرالي

لقد أعطى قرار الأمم المتحدة أريتريا دستوراً أساسه مبادىء الحكم الديموقراطي، وهو يختلف كل الاختلاف عن استبداد الملكية الأثيوبية وحكمها المطلق. إن الدستور الأثيوبي هو منحة من الأمبراطور وله حق النقض المطلق لجميع القوانين التي يصدرها برلمانه. فكيف كان يمكن التوفيق بين هذين النظامين المتناقضين؟

لقد كانت هذه المسألة دائماً مدعاة قلق للنظام الإقطاعي الأثيوبي. لهذا رأى سادة الأقطاع الأثيوبيين ان إزالة النظام الديموقراطي في أريتريا ضرورة حتمية لبقاء نظامهم، كما أن الإقرار بالاستقلال الذاتي لأريتريا كان في



نظرهم يشكل دافعاً للقوميات الأخرى المضطهدة في الأمبراطورية الأثيوبية كي تطالب بحقوق مماثلة . فالأمبراطورية الأثيوبية التي شكلها منيليك في نهاية القرن التاسع عشر بالحديد والنار وبإخضاع قوميات الغالا والصومال والدناكل والسداما والولامو وغيرهم، وبالتواطؤ مع الدول الاستعمارية في أثناء فترة المد الاستعماري وتقاسم القارة الإفريقية ، إنما بقيت طيلة السبعين عاماً الأخيرة بتركيز السلطة في يد الأمبراطور وأعوانه من رجال الإقطاع الأمهرا . والسماح بمبدأ الاتحاد مع اريتريا ، مع نظام حكم ديموقراطي يبيح الحريات العامة ، لا بدّ أن يحمل القوميات التي تضمها الأمبراطورية الأثيوبية على أن تطالب بالحقوق ذاتها . وهذا هو الدافع الأساسي لإلغاء الاتحاد وإخضاع أريتريا تحت هيمنة الحكم المركزي الأمهري . فهل نجح النظام الأمهري الأثيوبي في رؤياه ؟ إن حرب التحرير الدائرة في أريتريا منذ أربعة عشر عاماً تقيم برهاناً حياً على فشل السياسة الأثيوبية فشلاً ذريعاً .



الفصل السابع عشر

نشوء جبهة التحرير الاريترية واعلان الكفاح المسلح

تأسيس جبهة التحرير الأريترية

اثر تصاعد الإرهاب البوليسي في عام ١٩٥٨ اضطر عدد كبير من العمال الأريتريين إلى الهجرة إلى الاقطار المجاورة في ظل أوضاع شاقة يفتقرون فيها إلى أوراق رسمية تثبت هوياتهم . وعلى رغم التسامح الذي قوبلوا به في الأقطار العربية المجاورة فإن حياتهم اتسمت بالقلق والتشرد ، فتجمعت في نفوسهم ، مع ما كان يفتعل فيها من ألم وغضب ، حوافز قوية نحو الاشتغال بالعمل الوطني .

وهكذا نشأت جبهة التحرير الأريترية (١) بين الجاليات العمالية والطلابية في أقطار الشرق الأوسط العربية في عام ١٩٦٠ ، لتنتقل في العام

---

١ – سبق نشوء الجبهة قيام حركة التحرير الأريترية في نهاية عام ١٩٥٨ في بور سودان التي قامت بتنظيم خلايا سرية « سباعية » في معظم المدن الأريترية ، ولعبت دوراً إيجابياً كبيراً في تعبئة الجماهير الأريترية سياسياً . وقد اندمجت الحركة التي تزعمها محمد سعيد إدريس ناود مع الجبهة في عام ١٩٧٠ بعد انشقاق دام طويلا .



التالي إلى جبال أريتريا إثر الانتفاضة العفوية التي قادها المرحوم حامد إدريس عواتي في ١٩٦١/٩/١ مع بضعة مقاتلين يحملون بنادق إيطالية عتيقة . فتبنت الجبهة الانتفاضة العفوية لتحولها خلال السنوات القادمة إلى ثورة مسلحة منظمة انسجاماً مع أهداف التحرير التي حددها دستور الجبهة بالاستقلال الوطني الكامل عبر الكفاح المسلح الذي تدعمه جهود سياسية وديبلوماسية في الخارج مع الحفاظ على وحدة التراب الأريتري ، واختار المؤسسون أن يكون إدريس محمد آدم رئيساً للجنة التنفيذية للجبهة .

تطور الكفاح المسلح

وتطور الكفاح المسلح باتجاه التصعيد بالامكانيات الذاتية الأريترية أولاً ، ثم بدعم الأصدقاء والأشقاء من الأقطار العربية . فقد انضم إلى المقاتلين القلائل في مستهل عام ١٩٦٢ تسعة من ضباط الصف الأريتريين الذين خدموا في الجيش السوداني فترة طويلة بعدما استقالوا من الجيش مؤثرين خدمة وطنهم . وتمكنت الجبهة من شراء خمس بنادق انكليزية الصنع (أو عشر) بخمسمائة جنيه من عدن في أبريل (نيسان) ١٩٦٢ ، بالأموال التي جمعها العمال الأريتريون في المملكة العربية السعودية ، واستمرت على هذا المنوال في شراء السلاح والذخائر بكميات قليلة وتهريبها الى الثوار متعرضة في كثير من الأحيان الى المصادرات من قبل بعض حكومات الأقطار العربية المجاورة التي كانت تفضل عدم تكدير صفو علاقاتها الديبلوماسية مع أثيوبيا من أجل الثورة الأريترية . كما أمد الأريتريون المقيمون في أديس أبابا ببعض البنادق والقنابل اليدوية ، الثوار في تلك الفترة المبكرة .

وفي ١٢ يوليو (تموز) ١٩٦٢ قام فدائيو الجبهة بعملية فدائية فذة ، إذ ألقوا قنبلتين يدويتين في حفل أقامه ممثل الأمبراطور في مدينة (اغردات) للدعوة إلى ضم أريتريا إلى الأمبراطورية الأثيوبية ، وأبادوا أكثر من ٢٢ شخصاً من كبار الموظفين والضباط وجرحوا ٦٥ آخرين ، وانتهى الحفل



إلى مأساة بالنسبة إلى المحتلين الأثيوبيين .

ومضى المقاتلون القلائل في شن هجمات خاطفة على مراكز الجيش والشرطة في الريف ، فهاجموا مركز حلحل وغنموا منه بندقيتين وكان أول هجوم لهم ، وأغاروا في وضح النهار على مركز هيكوته متنكرين بزي سواح سودانيين ، وغنموا منه ٥٠ قطعة من مختلف الأسلحة وكمية من الذخائر . وما أن انتهت سنة ١٩٦٣ حتى زاد عدد المقاتلين المسلحين على المئة .

وأصدر الأمبراطور الأثيوبي أوامره إلى قواته المسلحة في أريتريا لاستعمال العنف بحرية مطلقة من أجل قمع ما سمّاه بـ (حركة التمرد خلال شهر واحد) . وكان أكد من قبل في خطاب ألقاه في أسمرا بتاريخ ٦/٢٨/ ١٩٦٢ ونشرته جريدة (الزمان) الحكومية : « ان أثيوبيا لن تتخلى عن أريتريا التي جاءنا الغزاة دوماً عبرها » . وشنت القوات الأثيوبية حملات إرهابية ضد الشعب وبلغ عدد المعتقلين في نهاية عام ١٩٦٣ أكثر من ٣٠٠٠ معتقل . واستعمل رجال التحقيق كل وسائل التعذيب لانتزاع الاعترافات منهم مستعينين بخبراء إسرائيليين ، دربوا لهم في ما بعد قوة كما ندوس خاصة لمحاربة الثوار . ولا تزال السجون تستضيف آلاف المواطنين حتى كتابة هذه الأسطر ، بعضهم يظل بلا محاكمة لعدة سنوات .

وفي عام ١٩٦٤ وجدت الثورة الأريترية دعماً مالياً وعسكرياً من بعض الدول العربية الشقيقة ، مما ساعد على تطوير الكفاح المسلح حتى شمل كل الريف الأريتري . وأمر الأمبراطور الأثيوبي بإخلاء المناطق المتاخمة للحدود السودانية من السكان لإقامة منطقة (مجردة من السكان) وعازلة عن الاتصال الخارجي . فشن الجيش حملات إرهابية على القرى وأباد أكثر من ألفي نسمة دونما تمييز مما أدى إلى لجوء المواطنين إلى السودان هرباً من القتل الجماعي . ويبلغ عدد اللاجئين في السودان أكثر من سبعين ألفاً يعيشون شظف العيش .

أثيوبيا تعلن حالة الطوارىء في أريتريا

في ديسمبر (كانون الأول) ١٩٧٠ فرضت سلطات الاحتلال الأثيوبية



حالة الطوارىء في أريتريا إثر مقتل الجنرال تشومي أرقتو ، قائد القوات الأثيوبية في أريتريا ، وتصاعد القتال ضد قوات الاحتلال . وبموجب هذا القانون أبيح للجنود أخذ الناس بالظنة ، فكان النهب والتقتيل الذي لا يزال سارياً حتى كتابة هذه الأسطر .

وتسيطر قوات التحرير الشعبية لجبهة التحرير الأريترية على معظم الريف الأريتري وتصطدم في معارك ضارية ضد القوات الأثيوبية مستهدفة تحقيق الاستقلال الوطني الكامل .

أما الدبلوماسية الأثيوبية فقد ركزت جهودها على حجب الدعم السياسي عن القضية الأريترية ، مستفيدة من وجود منظمة الوحدة الإفريقية في عاصمتها أديس أبابا ، مدعية ان أي دعم يقدم لأريتريا هو تدخل في شؤون أثيوبيا الداخلية ، في حين تثبت وثائق الأمم المتحدة أن القضية الأريترية لها طابعها الدولي الذي تلتزم بموجبه الأمم المتحدة بالتدخل قانونياً في حالة استحالة تطبيق قرارها. وليس يخاف على أحد أن الولاء المطلق للسياسة الأميركية هو الذي أتاح للحكومة الأثيوبية مركزها المعروف في منظمة الوحدة الإفريقية. وقد وضعت الولايات المتحدة الأميركية إمكانيات عسكرية ضخمة تحت تصرف الحكومة الأثيوبية لتقوم بدور الشرطي في حوض البحر الأحمر . ولكن هل ضمنت هذه المساعدة للنظام الأثيوبي البقاء ؟ إن أحداث أثيوبيا الأخيرة ، حيث أدى الانقلاب العسكري الأخير (وبالتقسيط) بأركان النظام إلى زنزانات السجون متهمين بالاختلاس والفساد والتبديد، في وقت تحصد المجاعات أبناء الشعوب الأثيوبية بالآلاف ، قد برهنت على الفشل الذريع للسياسة الأثيوبية والأميركية .

وتكلف الحرب الأريترية ، الخزينة الأثيوبية أكثر من ثلث مدخولاتها سنوياً ، إلى جانب عشرات الآلاف من القتلى وتصعيد التعقيدات والأحقاد التاريخية بين الشعبين نتيجة التمسك الخاطىء بالسياسة التوسعية الاحتوائية لحكومة هيلاسيلاسي ، في وقت تحتاج شعوب أثيوبيا إلى كل قرش للتنمية الاقتصادية .



فهل يتعلم الحكام الجدد لأثيوبيا من أخطاء أسلافهم ويعملون بمبدأ (عش ودع غيرك يعش) أم سيمضون في مارسمه من قبلهم من مخططات التوسع تجاه أريتريا ؟

الجواب في طيات الغد وإنّا لمنتظرون .

الوحدة الوطنية أهم منجز للثورة الأريترية

إذا كنا قد أشرنا إلى ما أدت إليه خلافات السكان من كوارث ، فإننا نسجل بفخر أن الثورة الأريترية في إطار قوات التحرير الشعبية قد قضت على الفرقة بين المواطن المسلم والمواطن المسيحي ، وأصبح الشعور بالمواطنة الأريترية هو الغالب . وإذا كانت تجربة الاتحاد الفيديرالي المريرة قد علمت الشعب الأريتري درساً ، فهو هذا الدرس الخالد : لاخلاص له إلاّ بوحدته الوطنية وبتجاوز تناقضاته الثانوية والعمل بمبدأ (الدين لله والوطن للجميع) .



الفصل الثامن عشر

اللغات في اريتريا وأثرها في تشكيل السكان

ثماني لهجات في أريتريا

لقد كانت أريتريا منذ عهود قديمة معبراً لهجرات الشعوب التي امتازت عناصرها واختلطت دماؤها بالتزاوجات التاريخية ، مما لا يترك مجالاً لتصنيفها اليوم على أساس انتماءاتها العرقية .

فقد تشكل سكان أريتريا كغيرهم من سكان مناطق شمال شرقي إفريقيا على مدى العشرة آلاف عام الماضية ، من هجرات متباينة ، أظهرها هجرات الشعوب النيلية الزنجية من جنوب السودان وغربه ، وهجرات الشعوب الكوشية ـــ القوقازية ـــ الحامية ، من الشمال ، وهجرات السبئيين والحميريين من اليمن عبر البحر الأحمر .

ومن الأوفق عند تصنيفنا للانتماءات القومية لسكان أريتريا أن نضع في المقام الأول اعتبارات اللغة والثقافة ، فالمتحدثون بالتجري أو التجرينية أو الدنكلية أو البجاوية يمثلون تجمعات لغوية وثقافية وحضارية ، وليسوا بتجمعات عنصرية .

ويتحدث السكان في أريتريا ثماني لهجات محلية (بخلاف العربية) . وتنقسم هذه اللهجات إلى ثلاثة أقسام أساسية هي :



١) اللغات السامية .
٢) اللغات الحامية – الكوشية .
٣) اللغات النيلية – الإفريقية .

١ – اللغات السامية

تأتي اللغات السامية في مقدمة اللهجات الأريترية من حيث أهميتها ودورها الثقافي والحضاري ومن حيث عدد المتحدثين بها ، وتتمثل في لغتي (التجرينية) و (التجري) ، ولا يقل عدد المتكلمين بهما عن نسبة ٨٠ ./· من مجموع السكان .

وقد اشتقت اللغتان من لغة (جئز) ذات الأصول السبئية ، والتي بطل الحديث بها ، منذ اضمحلال مملكة أكسوم في القرن الثامن الميلادي . وقد انقرضت اللغات السبئية فيجنوب الجزيرة العربية ولم تبق منها إلا لغة (المهرة) في إقليم ظفار ، وفي المحافظة السادسة من جمهورية اليمن الديموقراطية ، وهي لهجة غير مكتوبة وتشابه التجري والتجرينية في تركيبها وفي كثير من مفرداتها .

وتتشابه التجري والتجرينية في الأصول وفي كثير من المفردات ، لكنهما أصبحتا لغتين منفصلتين لا يمكن التفاهم بين المتحدثين بهما تماماً ، مثل الإيطالية والفرنسية .

والجدول يبين التشابه في المفردات بين العربية والتجرينية والتجري.

عربية	تجرينية	تجري
سمع	سمع	سمع
رايت	رئيخا	رئيكا
ما اسمك	من شمك	من سمك
علا	لعل ابليو	لعل بيلا
تحت	تحي	تحت
بكى	بكيو	بكى



رجل	اجرى	اجر
أنف	أنفي	آنف
رأس	راس	رأس

أ) لغة التجرينية

اللغة التجرينية هي إحدى اللغتين الرسميتين لأريتريا والأخرى (العربية) ، وتكتب بالحروف الحبشية التي اقتبست من الحروف الحميرية القديمة في جنوب الجزيرة العربية ، وتكتب من اليسار إلى اليمين ولها سبع حركات تكتب على شكل حروف مستقلة تبدأ بحرف الهاء هكذا :

HÆ	HOO	HEE	HA	HÆI	HI	HO

وهي الحروف نفسها المستعملة في لغة (جئز) والأمهرية أيضاً في أثيوبيا . ولا غرابة في ذلك ، فالتجرينية تسود في إقليم مملكة أكسوم القديمة : محافظات سراي وحماسين وأكلي قوزاي الأريترية ، وإقليم التجراي في أثيوبيا . ويمكن أن نعتبر التجرينية الوريثة الشرعية للغة (جئز) رغم أن (التجري) أقرب في تركيبها وكلماتها إلى جئز ، لأن التجرينية تأثرت في تركيبها وقواعدها بالتركيب الكوشي ، وخاصة لغة (أقو) ولو أن معظم مفرداتها سامية .

وبالنظر إلى استعمال (جئز) في الميادين الدينية والثقافية ، فإن التجرينية لم تخلق أدباً وثقافة متطورة، ولم تؤلف بها إلاّ كتب قليلة، ولو أن تطوراً ملموساً حدث خلال الثلاثين سنة الأخيرة بجهود بعض المثقفين أمثال ولدآب ولدماريام وجزنسئي حقوس واسرسي تسما (والأخيران كاتبان مسرحيان). كما أن الأب إسحاق جبريوسوس (من سقنيتي) قد ألف عدداً من الروايات التي تأثرت بالطابع الديني بحكم ثقافته ، أبرزها كتابه (مرقوساي ويني حمباشاي) أي (مرقص والحمرة والخبز) . وساعدت الصحف التي كانت تصدر بالتجرينية في عهد الاحتلال البريطاني على تطوير اللغة وابتداع



المفردات المناسبة . ولعب ولدآب ولدماريام دوراً إيجابياً في هذا الصدد ، إذ كان أول محرر للجريدة الأسبوعية الرسمية .

ويعتبر كتاب القانون العرفي المسمى (لقى جوا) من أقدم ما كتب بالتجرينية ، ويعود تاريخه إلى مستهل القرن التاسع عشر . ويوجد عدد من الكتب التاريخية والدينية في الأديرة والكنائس ، وخاصة في دير دبر بيزن في اكلي قوزاي .

وترجمت الإرساليات الدينية الأوروبية الإنجيل إلى التجرينية . وأعطى عدد من الدارسين الأجانب التجرينية اهتماماً ، فكتب العالم اللغوي براتوريوس (Praturius) ومورو داليونيسا (Mauro de Leonessa) وكونتي روسيني ، ولسلا ، وفرانسيسكو دا باسانو (Franlesco da Bassano) عدداً من الكتب والقواميس حول اللغة التجرينية .

ويقدر عدد المتحدثين بالتجرينية في كل من أريتريا وإقليم التجراي في شمال أثيوبيا بنحو ثلاثة ملايين نسمة ، مع الافتقار إلى الإحصاء الرسمي. ومعظم المتحدثين بالتجرينية هم من الناحية الدينية مسيحيون ، وأقليات إسلامية تسكن الهضبة يطلق عليهم (الجبرتة) .

ومنذ الاحتلال الأثيوبي حاربت السلطات الأثيوبية استعمال التجرينية (كما حاربت العربية) في المدارس والأعمال الرسمية ، وأحلت محلها لغتها (الأمهرية) عملاً بسياسة الاحتواء والتمهير . وتمنح الثورة الأريترية اللغتين الرسميتين — التجرينية والعربية اهتمامها وتقوم بنشرهما في الريف الأريتري المحرر .

ب) لغة التجري

تنتشر لغة التجري في شرق أريتريا وشمالها وغربها ، وهي مناطق ذات أغلبية إسلامية . وتمتد إلى مناطق الحدود داخل شرق السودان . ويبلغ عدد المتحدثين بها في أريتريا والسودان نحو مليون ونصف المليون . وبسبب سعة رقعة المساحة التي ينتشر فيها المتحدثون بالتجري مع اختلاف بيئاتهم



واختلاطهم بالمتحدثين بلهجات أخرى ، فقد نشأت لهجات مختلفة للتجري. ففي مصوع تتأثر اللهجة بالعربية كما تتأثر في المنطقة الغربية بلهجة البجة وبالاقو في منقة كرن. ويمكن أن نعتبر لهجة التجري السائدة في منطقة كرن، وخاصة بين قبائل المنسع (أفصح) لهجات التجري وأقربها إلى (جئز).

وقد كتبت الإرساليات التبشيرية السويدية ، وكذا البعثة الكاثوليكية عدداً من الكتب الدينية بالتجري ، بحروف حبشية . وقد تأثرت التجري بلهجات البجة والبلين من حيث دخول كلمات غريبة عليها .

وتعتبر التجري لغة شعر راقية . وقد جمع المبشر الألماني (ليتمان) أغاني وأشعار التجري في خمسة مجلدات ، ونشرها في عام ١٩١٠ وبرهن على أن التجري أغنى بالمفردات من أي لهجة سامية أخرى في شمال شرقي إفريقيا . وكتب عنها دلمان كتابه المعروف عن اللغات السامية في أريتريا وشرحه منزنجر في منتصف القرن التاسع عشر بقاموس .

ويعتقد أولندورف أن التجري تتقهقر كلما كثر عدد المتعلمين من المسلمين الذين يتخذون العربية لغة ثقافة لهم . ويحتمل انقراضها إذا ما انتشرت اللغة العربية بشكل واسع في أريتريا .

٢ – اللغات الكوشية الحامية

قليل من الناس في أريتريا – بين قبائل البني عامر في وادي بركة الأسفل – يتحدثون لغة البجة (الحدارب) التي تحدثنا عنها في موضع آخر . وهي من اللهجات الحامية المنتشرة في شرق السودان .

وتعتبر لغة البلين إحدى لهجات الاقو التي تنتمي إلى مجموعة اللغات الكوشية القديمة . ويتحدث المتكلمون بالبلين حول كرن بالتجري والتجرينية أيضاً بسبب حاجتهم إلى التعامل مع جيرانهم الأكثر عدداً .

وتنتمي لهجتا الدناكل والساهو إلى مجموعة اللغات الحامية الكوشية ، ومنها لغة الغالا والصومال .



وهكذا ، فإن أربع لهجات أريترية تنتمي إلى المجموعة الكوشية الحامية، ولو أنها مختلفة بعضها عن بعض اختلافاً كلياً ، إلاّ ما كان من اصول المفردات .

٣ — اللغات النيلية

في أقصى غرب أريتريا تتحدث قبيلتا الباريا والبازا لهجتين تنتميان الى اللغات النيلية ، حيث ينتمي السكان إلى نازحين من جنوب السودان في عصور متقدمة .

وكل هذه اللهجات غير مكتوبة سوى لغة التجرينية .

٤ — اللغة العربية

تنتشر اللغة العربية في أريتريا ، وخاصة في المدن والمناطق الإسلامية . كما كانت لغة الثقافة بالنسبة إلى المسلمين منذ عهود قديمة . وقد اتخذها البرلمان الأريتري لغة رسمية لأريتريا إلى جانب التجرينية ، حسب المادة ٣٨ من الدستور الأريتري . ويساعد انتشارها على انتشار الثقافة في أريتريا وعلى توحيد السكان الذين يتحدثون لهجات مختلفة .



الفصل التاسع عشر

جغرافية اريتريا

موجز جغرافي عن الارض والسكان والاقتصاد

تضم اريتريا رغم صغر المساحة (١١٩ الف كيلومتر مربع أو ٥٠ ألف ميل مربع) تعدداً في التضاريس والمناخ يجعلها نموذجاً لقارة كاملة. فهضبتها التي تقع اسمرا (العاصمة) في قلبها، تشكل امتداداً لمرتفعات اواسط افريقيا. اما سهول الغرب فتشابه ارض السافانا في غرب افريقيا والسودان، وتشبه صحاريها الشرقية ارض الجزيرة العربية القاحلة.

ويراوح ارتفاع الهضبة من ٦٠٠٠ إلى ٨٠٠٠ قدم عن سطح البحر، وتضم محافظات حماسين واكلي قوزاي وجزءاً كبيراً من محافظتي كرن والساحل. وتقع نقفة، عاصمة محافظة الساحل، في قلب الهضبة الشمالية التي يطلق عليها (رورا) حباب.

وتنعم الهضبة الاريترية بطقس ربيعي دائم. فاقصى درجة الحرارة في شهر مايو (أيار) لا تزيد عن ٨٦ فهرنهايت، كما لا تنخفض أقصى درجة البرودة في شهر ديسمبر (كانون الاول) عن ٣٨ فهرنهايت، ويراوح متوسط الامطار بين ١٥ و٢٠ بوصة سنوياً.





وتسمح كمية الامطار واعتدال الجو بزراعة انواع مختلفة من الحبوب اهمها (طاف) الذي لا يوجد له مثيل في العالم سوى في اليمن وجنوب افريقيا ، وكذلك الذرة الشامي (عفون) والقمح والعدس والفول وانواع كثيرة من الحبوب تزيد عن اربعين نوعاً .

وتعاني الهضبة من التعرية من التربة الخصبة بسبب السيول الجارفة وعوامل التعرية الاخرى . وتوجد غابات كثيفة في الجنوب الغربي في منطقة سراي والقاش . ويعتبر سهل (هزمو) في اكلي قوازي من اخصب المناطق الاريترية .

وتمد الهضبة الاريترية السهول الغربية والشرقية بالمياه ، أثناء موسم الامطار الذي يمتد من شهر يونيه (حزيران) حتى سبتمبر (ايلول) . واهم الأنهار الموسمية هي خور بركة ، ويبدأ بالقرب من حمبرتي في محافظة حماسين ، وينتهي عند سهل طوكر في السودان ، حيث يروي مزارع طوكر ، ماراً بمدينة اغردات ، عاصمة محافظة بركة ، وينضم اليه وادي عنسبة الذي يمر بمدينة كرن ، عاصمة محافظة كرن ، ويروي مزارع الموز والفواكه المدارية التي يملك معظمها ايطاليون ، وخاصة دنداي (الموز) وكاشياني (الفواكه المدارية) .

اما القاش فيروي في اريتريا مزارع على قدر التي يمتلكها اليهودي الايطالي (براتلو) . وتقع مدينة تسني بالقرب من نهر القاش، وهي على مقربة من الحدود السودانية .

اما نهر سيتيت والذي يسمى في اثيوبيا (تكزي) وفي السودان (عطبرة) فيشكل احد روافد النيل ، ويلتقي به في مدينة عطبرة . ويشكل سيتيت الحدود بين اريتريا واثيوبيا . وتقع مدينة ام حجر على ضفته الشرقية وتقابلها مدينة (حومرا) الاثيوبية . وهو النهر الوحيد الدائم الجريان في اريتريا .

وتقع امكانيات اريتريا الزراعية في الدلتا الواقعة بين نهري (القاش) وسيتيت ، وهي أراضٍ سهلية خصيبة . ويقدر الخبراء ، بتوسيع الزراعة



في المنطقة، في حدود مليون ونصف مليون فدان في هذه المنطقة . وتقوم المزارع السودانية في شرق السودان (طوكر ، كسلا ، حلفا الجديدة على مياه الانهار الاريترية الثلاثة) .

أما الأودية التي تصب نحو الشرق من الهضبة الاريترية ، فاهميتها الاقتصادية اقل من تلك التي تصب نحو الغرب ، بالنظر إلى ضيق المساحات التي ترويها . واهم هذه الاودية، وادي علي قدي ويروي سهول زولا حيث اقيم سد صغير . وعلى مقربة منه وادي حداث وكميلي . كما يروي مزارع بدا ، في منطقة دنكاليا ، واد يمتد إلى هضبة التجراي . اما مزارع (امبيرمي) (وقدقد) و (شعب) فترويها أودية تصب من هضبة حماسين والهضبة الشمالية . وقد اقام دانداي ، وهو الايطالي المتخصص في زراعة الموز والفواكه ، سداً في ينقوس بالقرب من قندع يروي المزارع في مرتفعات قندع بين مصوع واسمرا ، وفي قندع ورش للسكك الحديدية .

واقامت شركة سداو للكهرباء بحيرات اصطناعية في (بلزا) بالقرب من اسمرا لتجميع مياه السيول ، واستغلالها في توليد الكهرباء . ويعدّ مشروعاً ناجحاً يمد اسمرا بالكهرباء إلى جانب فوائده الزراعية .

وتؤكد الدراسات التي خلفها الطليان وجود امكانيات اقتصادية ضخمة باستغلال مساقط المياه ، وباقامة بحيرات إصطناعية لتوليد الكهرباء وتنظيم الري .

باستثناء الشريط الساحلي (ميناءي مصوع وعصب) تسقط الامطار في كل انحاء اريتريا صيفاً (من يونيه — حزيران ، حتى سبتمبر (ايلول) وتصل درجة الحرارة في الشريط الساحلي صيفاً إلى ٤٥ درجة سنتيجراد وتنخفض شتاء إلى ١٨ في اقصى حالات البرودة . وترتفع في صحراء دنكاليا صيفاً إلى ٤٨ درجة سنتيجراد ، وهي اعلى درجة حرارة في العالم . وقد درست بعثة علمية في عام ١٩٧٠ امكانية استغلال حرارة الشمس في منطقة دنكاليا لتوليد الكهرباء بواسطة طوربينات خاصة . وتبلغ نسبة الامطار في مصوع ٧ بوصات في السنة ، وفي عصب ٣ بوصات ،



وتسقط شتاء (ديسمبر، كانون الأول، حتى مارس، آذار). وتشكل المنطقة شتاء مراعي تتجمع فيها المواشي، بالاضافة إلى زراعة محدودة. اما في بركة فيبلغ متوسط سقوط الامطار ١٥ بوصة، وفي حوض القاش وسيتيت ٢٥ بوصة.

وتتمتع منطقة قندع وفلفل باعلى منسوب للمياه، اذ يصل إلى ٤٥ بوصة سنوياً، بالنظر إلى هطول الامطار شتاء وصيفاً. ويزرع فيها البن.

والذرة هو الغذاء الرئيسي للسكان في السهول الغربية والشرقية، والطاف والقمح في الهضبة. ويزرع الدخن في شواطئ البحر الاحمر بكميات محدودة.

وسكان الهضبة مزارعون يعتنق معظمهم المذهب الاورثوذكسي المسيحي. والارض ملك بصفة جماعية للقرى. ويسمى هذا النظام (رستي) ويسكنون منازل مصنوعة من حجر وطين مغطاة باخشاب الفربيون، ومسنودة باعمدة من اخشاب الزيتون البري، وتسمى (هدمو). كما هناك نوع آخر من المباني تسمى (اجدو) او تكول، ذات سقف مخروطي ومسنود في الوسط بعمود خشبي.

اما السهول الشرقية والغربية، فمعظم سكانها شبه رحل، ويمتلكون المواشي ويحترفون في الوقت نفسه الزراعة، ويدين معظمهم بالاسلام.

ويسكن ٧٨ في المئة من سكان اريتريا في الريف. ولهذا فان معظم صادرات اريتريا زراعية وحيوانية. واهمها الموز، ويصدر إلى السعودية وايطاليا، والفواكه المدارية والفول والسمسم. وتصدر معظم اللحوم إلى اسرائيل التي تسيطر شركتها (انكودي) على صناعة اللحوم، وفق إتفاقية التعاون المعقودة بينها وبين سلطات الاحتلال الاثيوبية.

وتتمتع اريتريا باكتفاء ذاتي بالنسبة إلى المواد الغذائية، ولا تستورد الحبوب الا في حالة مواسم الجفاف. وتمتلك اريتريا ثروة حيوانية من الابقار والغنم والابل والخيول تبلغ في جملتها نحو عشرة ملايين رأس.



وقد تأثر تكاثر الماشية بحالة الحرب التي تعيشها البلاد منذ ١٤ سنة حيث تتعرض إلى الابادة .

وفي اريتريا مراكز للعناية بالماشية وتطعيم الابقار ضد امراض الطاعون البقري . واسس كاشياني في عيلابرعد بالقرب من كرن ، مزارع لتربية الابقار المهجنة ، وتصدر منتوجات الالبان والاجبان إلى الاقطار المجاورة ، وإلى ايطاليا .

وفي اريتريا انواع مختلفة من الاخشاب تعتمد عليها الصناعات المحلية ، وخاصة شجر الدوم الذي ينبت على ضفاف نهري بركة والقاش ، ويدخل في تركيب عدد من الصناعات كالزراير والخمور وعلف المرشية وغيرها

وتملك اريتريا ثروة بحرية هائلة من الاسماك والاصداف واللآلىء والملح . وتزيد جملة صادرات الثروة البحرية حالياً عن ٣٠ مليون دولار تستولي عليها السلطات الاثيوبية .

ويبلغ طول الشاطىء الاريتري نحو الف كيلومتر ، ويبتدىء من رأس قصار في الحدود السودانية شمالاً ، وينتهي عند باب المندب في راس ارحيتا في الصومال الفرنسي ، المسمى ساحل عفر وعيسى . وفيه عدد من المراسي الطبيعية ، مثل مرسى تكلاي ، مرسى قبع ، مرسى كبكب مرسى زولا ، مرسى معدر ، مرسى فاطمة ، مرسى برعسولي ، مرسى بيلول .

وتتبع اريتريا ١٢٦ جزيرة ، اكبرها جزيرة (دهلك كبير) . ويعتقد وجود البترول فيها ، ولا يزال البحث عنه جارياً .

وتمتلك اريتريا نحو ٤٠٠ مصنع من مختلف الاحجام ، بعضها مثل مصنع النسيج الذي يشغل ستة آلاف عامل ، والبعض الآخر مجرد ورشة صغيرة تشغل ١٠ عمال . وتكتفي اريتريا ذاتياً بالنسبة إلى معظم الصناعات الخفيفة ، وتصدر الفائض لاثيوبيا والاقطار المجاورة . واهم الصناعات الاريترية : تعليب اللحوم والفواكه والاسماك والحلويات والجلود والسماد والسجاد والزراير والكبريت والاخشاب والصابون والملح والنسيج والزيوت



والمسامير والبلاستيك والنايلون والورق والخمور والحبال والاكياس وصناعة تجميع السيارات والثلاجات والمواسير والاسمنت الخ . . . ومعظم هذه الصناعات تتركز في العاصمة اسمرا ، ويديرها ايطاليون ، بينما معظم خبرائها الآن اريتريون . ويبلغ عدد العمال المشتغلين بالصناعة نحو ١٠٠ الف عامل .

وتملك اريتريا انواعاً مختلفة من المعادن ، في مقدمتها الحديد . ويقدّر مخزونه في جبال دقي محاري وقدم ، نحو ٢٥٠ مليون طن . وهناك الذهب والنحاس والنيكل والميكا والبوتاس والاسبستوس والمنجنيز واليورانيوم والتيتانيوم والمرمر وغيرها . ويؤكد الخبراء وجود البترول في سواحل اريتريا . ومعظم هذه المعادن لم تستخرج ، على رغم نشر احصاءات رسمية عنها ، بسبب عدم الاستقرار السياسي . وتعترض قوات التحرير الشعبية لجبهة التحرير الاريترية ، استغلال المعادن في اريتريا ، منعاً للنهب الاستعماري لخيرات اريتريا من قبل المحتلين الاثيوبيين .

وتمتلك اريتريا شبكة مواصلات جيدة ، فتبلغ طرقها المعبدة ٣٠١٦ كيلومتراً تربط كل المدن الاريترية . كما تمتلك سكة حديد يبلغ طولها ٣٠٦ كيلومترات ابتداء من مصوع حتى اغردات مروراً باسمرا ، وهو خط واحد ، ويخترق ٣٥ نفقاً .

وتنقسم اريتريا ادارياً إلى تسع محافظات هي :

١) محافظة حماسين ، وعاصمتها اسمرا ، وهي العاصمة للقطر ، وعدد سكانها ٣٠٠ ٠٠٠ نسمة .

٢) محافظة البحر الاحمر ، وعاصمتها مصوع ، وهي ميناء اريتريا الرئيسي وعدد سكانها ٥٠ ٠٠٠ نسمة

٣) محافظة دنكاليا ، وعاصمتها عصب ، الميناء الثاني لاريتريا ، وعدد سكانها ٣٠ ٠٠٠ نسمة .

٤) محافظة الساحل ، وعاصمتها نقفة .

٥) محافظة كرن ، وعاصمتها كرن .



٦) محافظة سراي ، وعاصمتها عدي وقري .
٧) محافظة اكلي قوازي ،وعاصمتها عدي قيح .
٨) محافظة بركة ، وعاصمتها اغردات .
٩) محافظة القاش ، وعاصمتها بارنتو .

ويشكل اختلاف المناخ والبيئة الجغرافية عاملاً مهماً في حياة السكان وازدهارهم . وترتبط اريتريا شعباً وارضاً بروابط اقتصادية لاتنفصم .

ويبلغ عدد سكان اريتريا نحو ثلاثة ملايين نسمة .

المراجع العربية

صورة الأرض لابن حوقل .

الحبشة في منقلب من تاريخها : بولس مسعد

سيرة الحبشة : احمد بن حسن الحيمي – تقديم الدكتور مراد كامل

الحبشة بين الاقطاع والعصر الحديث : الدكتور راشد البراوي

تاريخ حضارات السودان الشرقي والأوسط : الشاطر بصيلي عبد العزيز

السودان عبر العصور : دكتور مكي شبيكة

تاريخ شرق السودان – اقليم البجة : ضرار محمد ضرار

المفصل في تاريخ العرب : الدكتور جواد علي

تاريخ الجنس العربي : محمد عروة دروزة

فتوح الحبشة : عرب فقيه الجيزاني

بين العرب والحبشة : محمد عبد المجيد عابدين

الإسلام في الحبشة عبر العصور : المهندس فتحي غيث

تاريخ أثيوبيا : زاهر رياض

استعمار القارة الافريقية واستقلالها : زاهر رياض

افريقيا بين الدول الأوروبية : الدكتور محمد صفي الدين

سياسة مصر في البحر الأحمر ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر : الدكتور شوقي عطا الله الجمل

الالمام بأخبار من بالحبشة من ملوك الاسلام : تقي الدين أحمد بن علي المقريزي

الجيش المصري في القرن التاسع عشر : محمد محمود السروجي

مهدي الصومال : الدكتور محمد المعتصم سيد

الحضارات الافريقية : دنيس بولم – ترجمة دار الحياة ببيروت

البحر الاحمر والاستعمار : الدكتور جلال يحيى

مروج الذهب ومعادن الجوهر : المسعودي
وثائق الأمم المتحدة حول اريتريا (تقرير اللجنة الرباعية — ١٩٤٨ — تقرير بعثة الأمم المتحدة في اريتريا عام ١٩٥٠ ، التقرير النهائي لمندوب الأمم المتحدة ١٩٥٢) .
كتاب الأمم المتحدة السنوي (للسنوات — ٤٨ — ٤٩ — ٥٠ — ٥١ — ١٩٥٢) .
افريقيا تحت اضواء جديدة : دافيد باذلسون — ترجمة جمال محمد احمد .
دائرة المعارف الاسلامية (بالانكليزية)
قصة الاستعمار الايطالي لاريتريا : محمد سعيد ادريس ناود .

المراجع الانكليزية

The Ethiopians — Introduction to people and country: Edward Ullendorff
Ethiopia — The Era of the Princes: Mordekhai Abir .
The March To Magdala : Lord Napier
Ethiopia (*Ancient Cities and Temples*) : Jean Doresse .
Travels To Discover The Source of the Nile: James Bruce .
Islam In Ethiopia : Spencer Trimingham .
Eritrea A Colony in Transition: Sir Kennedy Trevaskis .
A Short History of Eritrea : Brig. Gen. Lungregg .
Periplus of the Erythraean Sea (translated and edited by W.H. Shoff) Newyork, 1912
Britian's Imperial Role in the Red Sea Basin : Themas Mariston .
A Contribution To the Physiography of Northern Ethiopia: Abul-Haggag .
A History of the Beja Tribes of the Sudan: Paulm *A.*, Cambridge .
The Morphology of the Tigre Noun: *F. R.* Palmer, Oxford, 1962 .
British Military Administration of Occupied Territories in Africa: Lord Rennel of Rodd, London, 1948.
The Semitic Language of Ethiopia: Ullendorff, London, 1955.
The Land of the Burnt Face: John Buccholzer .



المحتويات




المكتبة الارترية






المكتبة الارترية

